ذكريات ALEXANDRE ROMANES

ألكسندر رومانِس

الغربان غجر السماء

ترجمة: وليد السويركي

الأهلية

الغربان غجر السماء ألكسندر رومانس

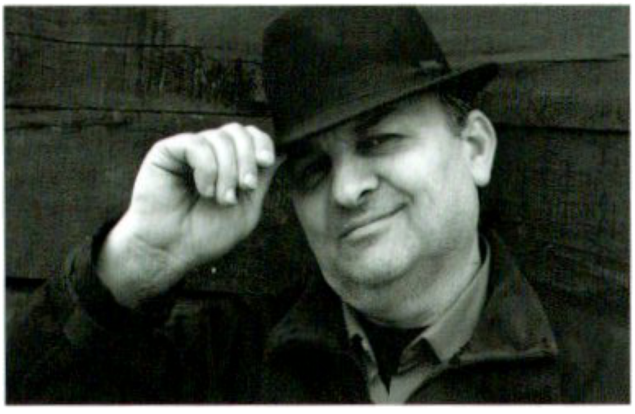

ألكسندر رومانِس لم يكن في حياته ما يَعِدُ بأنّه سيكون كاتبًا أو شاعرًا، فمدير السيرك الحاليّ، الّذي كان بهلوانًا ومروّض أسود وعازف موسيقى الباروك في شبابه، ينتمي لشعب الغجر الّذي لم تكن الكتابة يومًا مِن تقاليده. غير أنّ **رومانِس**، الّذي تعلم القراءة والكتابة في سنّ العشرين، كان لديه ما يقول، فبدأ، وهو في الخامسة والأربعين، يكتب قصائده وحكايات أهله الغجر من دون ادّعاء صفة الشاعر.

في هذا الكتاب، يروي **رومانِس** رحلة حياةٍ فريدة تبدو كأنّها عدّة حيواتٍ في واحدة لا تقل إحداها عن الأخرى جنونًا وشاعريّة؛ رحلة شاعرٍ انتقل من ترويض الأسود، في السيرك، إلى ترويض الكلمات في القصائد بعد أن هجرَ العائلة واختار حياة الترحال.

يكتب **رومانِس** ذكرياته وكأنّه يحكيها بعفويّة حارّة وخفّةٍ آسرة، ذاهبًا إلى الجوهريّ مباشرةً في نثر شذريّ مدهش ومربك، مرح ومؤلم في آن مثل حياة صاحبه الصاخبة الملوّنة. إنّها ذكريات رجل تحكم عالمه قيمتان هما الحريّة والجمال، رجلٍ يفضّل «الوردة على الوطن»؛ لم يجلس يومًا إلى طاولة كي يكتب نصوصه، ورفضَ دائمًا أن يوسّع خيمة سيركه الناجح كي لا يصبح ثريًا، واشترط لقبول وسام جوقة الشرف الفرنسيّ أن يتسلّمه في خيمة السيرك بين جمهوره؛ رجل سُجن في كل بلد حل فيه، وخاض المشاجراتِ وما زال جسده يحمل آثار الطعنات؛ رجل دعا الله، حين دخل المشفى ذات يوم حاملا ابنته بين ذراعيه: «يا إلهي نجّها! لا تجبرني على أن أصبح أعظم الشعراء».

◄ وليد السويركي

ISBN 978-9957-39-378-6
9 789957 393786

الأهلية
الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2021
الغلاف: ☎ 95297109 7 00962

أُهدي هذا الكتاب الصّغير أوّلاً إلى جان-جاك سيسيه، فأنا لم أنس ما فعل من أجلي، وأنّه كان يناديني في صغره: «بابا».

عظيمُ شكري أيضاً لمريام آرلو ولكريستين نافارو، فلولا إصرارهما، لربّما ما كنت كتبت هذا الكتاب أبداً.

رجلٌ وطفلة يمضيان جنباً إلى جنب،

يتقدّمان مع بداية المساء؛

ولكنْ بين يديهما المتّحدتين، كانت تستقر هامدةً،

عشرون سنةً ذابلة.

استدارت الطفلة، وفي فوضى شَعرها الجنوبيّ الأسودَ؛

رأت ذلك الغجريّ النائم،

أمسكته، وقطفته بحركة رشيقة؛ حركة طفلةٍ عجيبة،

وأعطته له قائلة: «فلتحتفظ به طوال حياتك»!

فرانسيس طومبسون ، «الخشخاش المنثور».

تقديم

لم يكن في حياة الكساندر رومانِس (1951م-) ما يَعِدُ بأنّه سيكون كاتباً أو شاعراً، فمدير السّيرك اليوم، ولاعب الحركات البهلوانيّة، ومروّض الأسود، وعازف موسيقى الباروك المحترف في شبابه، ينتمي لشعبٍ مترحّلٍ لم ينشغل بترك آثارٍ أو صروحٍ على هذه الأرض، ولم تكن الكتابة يوماً جزءًا من تقاليده، هو الشعب الغجريّ. غير أنّ رومانس الذي تعلّم القراءة والكتابة في سنّ العشرين كان لديه ما يقول، وبتشجيعٍ من الكاتبيْن الكبيرين جان جينيه وجان غروجان، بدأ يكتب وهو في الخامسة والأربعين قصائده وحكاياته الغجريّة. وتولّى الشاعر كريستيان بوبان نشرها تباعاً في ثلاث مجموعاتٍ صدرت عن دار غاليمار الباريسيّة العريقة، فلاقت استحسانًا نقديّاً وجماهيريًا، بفضل بساطتها المدهشة، وصدق نبرتها، وتكثيفها اللغوي، وخصوصيّة الرؤية التي تصدر عنها.

يكتب رومانس، الذي أنشأ بالقرب من باريس أوّل سيرك غجريّ في أوروبا، وما زال يعيش في كرافان متنقّل(لماذا التوطّن مادام كل ما في الوجود يتحرّك؟ كما يقول) قصائدَه ويدوّن حكايات أهله الغجر من دون ادّعاء صفة «الشّاعر»، ويحيا حياته «شِعريًا» بصورة عفويّة. يكتب ليقولَ ألمه، وغضبه، وحبّه، ويطرح أسئلته الوجودية، من دون أن يفارقه الشُّعور بالذّنب:

«لستَ سوى غجريٌّ!

هذا ما يعتقدونه،

ربّما ما كان عليّ أن أكتب أبدًا،

لقد خنتُ؛ كان عندي الكثير ممّا أوّد قوله،

والآن أطلب الصّفح من أبي و أمّي

ومن عِرقي كلّه».

* * *

في «الغربان غجرُ السّماء»، يروي رومانس، عبر سلسلة من الذكريات، رحلة حياةٍ فريدةٍ ومدهشة، تبدو كأنها عدّة حيواتٍ في واحدة،لا تقلّ إحداها عن الأخرى جنوناً وثراءً وشاعريّة. إنّها رحلة شاعر انتقل من ترويض النّمور والأسود في سيرك واحدة من أغنى عائلات السيرك وأشهرها في أوروبا، إلى ترويض الكلمات في القصائد، بعد أن هجر العائلة واختار، في العشرين من عمره، حريّة الشّارع وحياة الترحال، وفاءً لثقافة شعبه ورفضاً لقيم الحياة الماديّة والاستهلاكيّة. خلال هذه الرحلة، قادت يد القدر الفتىّ الأميّ إلى لقاءات وصداقات وتجارب غيّرت مسار حياته. بات شاعراً بارزاً، تصدر كتبه عن أعرق دور النشر الفرنسيّة، ويحظى بتقدير شعراء وكتّاب من طراز جان غروجان وكريستيان بوبان وليدي داتاس، ويحوز الجوائز والأوسمة، وصوتاً متمرّداً يدافع عن حوق شعبه وغيره من الأقليّات في فرنسا، ويفضح الممارسات العنصريّة(في مقابلة مع التلفزيون الفرنسيّ، بدأ الصحفيّ بداية قويّة جدًا: «أنتم الغجر، كلّكم لصوص».سألته: إن كان فرنسيًّا؟، فأجابني بنعم. فقلت له: «أنتم الفرنسيُّون سرقتم نصف إفريقيا، والغريب أنّه لا

يقال أبدًا: إنّكم لصوص». ولا يتردّد في مهاجمة تحالف السلطة والمال، والهيمنة على وسائل الإعلام مستشهداً بمثال جان جينيه الذي رفض طيلة حياته الظهور في مقابلات على القنوات الفرنسية لتيقّنه من أنّه لن يستطيع أن يعبّر عن آرائه بحريّة.

لا يكفّ رومانس، في مقالاته ومقابلاته عن نقد الديمقراطيّة التي لا تمنع الظلم ولا الحروب، والقوى الغربيّة التي تسعى للتلاعب بمصائر الشعوب، فيقول مثلاً: (يذكّرني الغرب بالطبيبة التي انتفخت ساقاها الضخمتان بالماء وكانت لا تكفّ عن إعطاء النصائح الطبيّة للجميع).

* * *

يكتب رومانس ذكرياته وكأنّه يحكيها بعفوية حارّة وخفّة آسرة، بلا حذلقات لغوية أو ادعاءات معرفية، ذاهباً إلى الجوهريّ مباشرة، في نثر شذريّ مدهش ومربك، مرحٍ ومؤلم في آن، مثل حياة صاحبه الصاخبة الملوّنة، فينجح في نقل حرارة التجربة وفرادتها بروح من الدعابة والسّخرية، بما فيها السّخرية من الذات. ولعلّ فتنة كتابة رومانس وسحرها يكمنان في رفضها الظّهور بمظهر الأدب المكتمل المشغول بعناية، وحذرها من الوقوع في فخّ النزعة الذهنيّة من جهة، والإفراط في التأويلات النفسية أو العاطفية الفجّة من جهة أخرى.

إنّها ذكريات رجلٍ تحكم عالَمه قيمتان هما الحريّة والجمال:

«لقد قسمت العالم إلى نصفين:

ما هو شِعريٌّ في جهةٍ

وما ليس كذلك في الجهة الأخرى ،

ما هو شعريٌ موجودٌ في نظري،

وما ليس شعرياً لا ألتفت إليه حتّى».

يفضّل رومانس «الوردة على الوطن»، و«الطائر اللاّمبالي فوق الصخْرة، إذ يرمي بنفسه في الفراغ». إنّه رجلٌ لم يجلس يوماً إلى طاولة كي يكتب نصوصه، ورفضَ دائماً بعنادٍ أن يوسّع خيمة سيركه الناجح كي لا يصبح ثرياً،» فالإثراء ليس من قيم الغجر»، واشترط لقبول وسام جوقة الشّرف الذي منحته إياه وزارة الثقافة الفرنسيّة أن يتسلّمه في خيمة السّيرك بين عائلته وجمهوره؛ رجل رفض أن يرسل أطفاله إلى المدرسة بصيغتها القائمة التي يراها أقرب إلى السّجن (حين يذهب أطفالكم إلى المدارس مبتهجين وهم يغنّون، سنرسل أطفالنا إليها) وسُجن في كل بلد حلّ فيها، وخاض المعارك والمشاجرات وما زالت الندوب وآثار الطعنات ماثلة على جسده؛ رجل دعا الله حين دخل المشفى ذات يوم حاملاً ابنته بين ذراعيه،: «يا إلهي نَجِّها! لا تجبرني على أن أصبح أعظم الشّعراء».

المترجم

الحياة معركة

لي اسمٌ، لكنّه ليس اسميَ الحقيقيّ، فاسميَ الحقيقيّ لا أنطق به أبداً. وإنْ حدث وتلفّظتُ به عرَضاً، فإنّني أقول دائماً إنّه ليس سوى اسمي قبل الزواج[1]. ولأنّ الحياة معركة، فإنّ لي اسم محاربٍ: الكساندر رومانِس.

لقد صاغ شعب الغجر، شعبي، لِنفسه ثقافةً وجماليّاتٍ في الترحال تحت الشّمس وعلى الطرقات كثيرة الحصى، بعيداً عن رفاهية المدن، لكنّنا اليوم في خطر، فهم يفعلون كلّ ما بوسعهم كي يدفعونا إلى التخلّي عن حياة الترحال. ولأنّ ثقافتنا لا يمكن أن تعيش في حالة التوطّن، فنحنُ أيضاً محكومون بالانقراض، مثل ثقافات الأقليّات جميعها. فحين تبلغ بناتي سنّ الشيخوخة، ستكون القبائل الغجريّة قد اختفت من الوجود، وستكون تلك خسارة للإنسانيّة. إنّه لأمرٌ حزين، لكنّ هذا هو مسار التاريخ الذي لا نملك حياله شيئاً.

*

منذ وقت طويل وأصدقائي يقولون لي: «عليك أن تكتب كتاب حياتك؛ الكتاب الذي تروي فيه ماعشت منذ ميلادك حتّى اليوم». كنت

(1) يشير المؤلف متهكّماً إلى تخلّيه عن اسم عائلته واتّخاذه اسماً جديداً، كما يقتضي عرف سائد في فرنسا باتّخاذ المرأة بعد زواجها اسم عائلة الزوج. (المترجم)

أفكّر في ذلك أحياناً، غير أنّي كنت أقول لنفسي دائماً: «إنْ كان ثمّة شيء لن أفعله أبداً، فهو هذا». كان يبدو لي أن تأليف كتاب عن حياتي يعادل في صعوبته تسلّق المون-بلان.[1]

غير أنّني شرعت في الأمر، ولم يكن ذلك سهلاً، فقد ضربت على صدري غير مرّةٍ قائلاً: ماذا دهاني لأرغب في تأليف هذا الكتاب؟

فلطالما اعتقدتُ أنّ على كلّ رجل وامرأة أن يرخيا ستاراً من الظلّ على شطر كبير من حياتهما، وهو ما لا يتفّق مع تأليف كتابٍ يروي حياتي. إنّ الجانب المعتم فيّ حاضرٌ بقوّةٍ، وسيظلّ كذلك وإنْ ليس كاملاً.

(1) أعلى جبل في سلسلة جبال الألب. يبلغ ارتفاعه 4880،72 متراً. (المترجم)

أَشكره على ذلك

إنّني إذ أخطُّ على الورق اللحظات السعيدة واللحظات المؤلمة؛ تلك التي أحاول نسيانها، لأُميط اللثام عن ثلاثة أرباع حياتي، وإنْ كنت أتقدّم في بعض الأحيان مقنّعاً. والغريب أنّني لا أتحدّث كثيراً عن أبي، ولكنْ إذا كان عليّ أن أصِفَ في بضع كلماتٍ الصلّةَ المتينة جدًا بيننا، فسأقول إنّه وَسَمني بالحديد المُحمّى، وإنّي لأشكره على ذلك.

كان يمكن لهذا الكتاب، بالطبع، أن يكون أغزر مادّةً وأكثر أوراقاً، لكنّ هذا كان يقتضي أن أكون قد رُبيّت تربيةً أخرى. ففي قبيلتي، تحتلّ الحشمة في المشاعر وفي اللباس مكانَةً مهمّة، ولا تعاش بوصفها كابحاً، بل على العكس تماماً. وهذا لا يمنعني أن أكون محبّاً للاستطلاع مثل فتاة في الرابعة عشرة من العمر.

هجرتُ عائلتي في سنّ العشرين، وقلبي مثقل بالهمّ، لأنّ ثقافة الغجر كانت تتطاير مزقاً. كان قد حلّ وقت رحيلي. حين أفكّر في تلك الفترة، أشعر بالأسف على أمرٍ واحد: أنّني لم أغادر أبكر من ذلك. لكنّني لم أشأ في ذلك الحين أن أثير استياء أبي . وكان يجب أن أشرح له الأمر، لكنّي لم أفعل.

في أيّ حالة ذهنيّة كنت يا ترى؟ لقد بات هذا كلّه بعيداً جدّاً. ولكن منذ وفاة والدي، تعاودني كثير من أفكاره، فأقول لنفسي: «كان سيتفهّمني بالطّبع». وأكاد أكون متيقّناً من أنه كان سيقرُّ ما فعلت.

قليل من الناس يعرفون أنّنا مجتمعٌ أموميّ، فالقرارات الأهمّ لدينا تتّخذها النساء، ولعلّ السّبب في هذا أنّ رجال قبيلتي غالباً ما يكونون في السّجون. وقد قلت في واحدٍ من كتبي:

«أن تكون غجريًا يعني أن يُزجّ بك في السجن أسرعَ من أيّ شخص آخر».

وفي أوقات الحرب، يكون الرجال في ساحة المعركة، والنساء هنّ من يدبّرن شؤون البلد. ربّما كان لدى قبائلنا شيء من هذا النظام. ولا تزال النساء عمود القبيلة الفقريّ. وحيث أنّ الحشمة في المشاعر كما في اللباس حاضرة بقوّة عندنا، فإنّه عندما تُقصّر نساؤنا وفتياتنا تنانيرهن أو يرتدين البناطيل، يكون الأمر أشبه- أعرفُ هذا بفضل الملاحظة- بنقض سردةٍ في منسوجة لِتنحلّ كلّها. فليست هذه سوى البداية، ومع مرور الوقت، لن يبقى شيء من طريقتنا في النّظر إلى العالم. لقد صار بوسعنا أن نقول: وداعاً لثقافة الغجر.

ثمّة غرابة في هذا الفائض من الحياء أجدها جميلة جدّاً، فنساؤنا شديدات الاحتشام من الخصر حتّى القدمين، لكنّهن لا يخجلن من الكشف عن الجزء العلويّ من أجسادهن، وغالباً ما يَظهرن في الكرافانات مرتدياتٍ حمّالات الصّدر فقط أو بنهودٍ عارية.

الدُّبّ

كان لِجَدّ أبي ثلاثُ زوجاتٍ ودُبّ. وكان يقول: «المزعج هو الدُبّ». كان يجوب أوروبا عرضاً وطولاً مع زوجاته الثلاث، وموكبٍ من الأبناء، وحصانٍ يجرّ كرافانه الخشبيّ الصغير، والدّب المربوط بسلسلة في مؤخرة الكرافان؛ يتوقّف في ساحة القرية لتقديم عرضٍ متواضع جدّاً، لا بُدّ، لكنّه بالغ الشّاعريّة، حيث يؤدّي أطفاله بعض الألعاب البهلوانية وحركات الالتواء والتلاعب بالكرات في الهواء، فيما نساؤه الثلاث يرقصن. أمّا هو، الرّجل الأعجوبة، فيصلُ في النهاية مع الدّب، وحين ينتهي العرض، يقرن الحصان إلى الكرافان الصغير ويمضي ليقضي بقية اليوم في الغابة. في الصّيف، ينامون جميعًا في العراء. وما كانوا ليرغبوا، مقابل أيّ شيء في هذا العالم، في العيش في مدينة أو قرية، ولم تكن الطبيعة تضنّ عليهم بسرّ من أسرارها.

في قبيلتي، نعرف كيف نميّز شجرةً من خلال الأصوات التي تحدُثها الريح في الأوراق. ويعرف الرّجال، والنّساء على وجه الخصوص، أسماء جميع الزهور، وأسماء الأشجار والنباتات كلّها، ويعرفون كيف يختارون منها ما له فوائد طبيّة. ويعرفون اليّين واليانغ كلّ المعرفة من دون أن يسمّوهما كذلك.

كان جدُّ أبي يجني مع زوجاته الثّلاث القليلَ من المال في ساحة القرية، ولكنْ كان لديهم ما يكفي للعيش، إذ كان صيّاداً بارعاً، يزاول الصيد بيديه العاريتين.

وكان لحمُ الحيوانات البريّة اللحمَ الوحيدَ الذي تجيز العائلة لنفسها أن تأكله، فقد حُظرت لحوم مزارع المواشي في قبيلتنا، والمثل الغجريّ يقول بوضوح:

«إذا أردت أن تصبح بقرةً في مرج،

فلتأكلْ اللحم المُنتج في المزارع.»

لم يكن جدُّ أبي رجلاً عادياً. ولا بدّ أنّه كان رجلاً مهيباً، لا يعرف الخوف، فمن يعرف ما هو الدّب، يعلم أنّ الاحتفاظ به بالقرب منك مدى الحياة، ساعاتٍ عدّة في اليوم، يُعدّ إنجازاً باهراً. وقد أخبرني والدي أن الدّب أخطرُ من الأسد أو النّمر، لأنّه لا يمكن التنبؤ بهجمته، ولأنّ بوسعه القتال لساعات، الأمر الذي لا يقدر عليه أيّ وحش آخر. وأضاف: إنّ خير طريقة للسيطرة عليه هي وضع حلْقةٍ في خطْمه، لأنّ هذا موضع حساس، وبإمساك المرء الحلْقةَ بإصبع واحدٍ، سينجح، لا بدّ، في التحكّم في الدّب تسع مرّات من كلّ عشر. وقد شرح لي كيف تُمرّر الحلقة، ففي ذلك الزمن، لم يكن ثمّة طريقةٍ لتنويم الحيوان.

كان الدّب يُقيّد بسلسلة إلى الجزء الخلفيّ من الكرافان الصغير، ويجعله جدّ أبي يركض لِساعاتٍ عبر الريف، وحين يبدأ لسان الدبّ يتدلّى بسبب الإنهاك، يتوقّف بالقرب من نارٍ أُعدتْ لتلك الغاية، حيث يُدخل جدّ أبي قضيباً حديدياً طويلاً وملتهباً في خطم الدبّ، ثم يخرجه على الفور، لِيضعَ الحلْقة مكانه.

*

عندما توفي جدّ أبي، أصبح جدّي هو الآخر عارض دِببة، فقدّم على امتداد سنوات طويلة عروضاً في ساحات القرى. ولكن في يوم من الأيام، وقد ألمّ به مرض العصر، طمع في المزيد، فأنشأ معرض وحوشٍ متنقّلاً صغيرًا، كان يقيمه في الأعياد والأسواق الموسميّة. وبدفع من أبنائه، خاصّةً الكساندر، أكبرهم سناً، صنع بنفسه خيمةً صغيرة من قماش الفِراش، أضافها إلى معرض الوحوش، وأخذ يقدّم، تحت الخيمة الصغيرة، عروض الأسود والنّمور التي كان يقدّمها سابقاً في معرض الوحوش. كان ينقصه فقط أن يضيف بهلوانَ أرجوحةٍ، ولاعبَ خفّةٍ، ومهرّجاً، فيغدو ذلك سيركاً. كنّا قد دخلنا توّاً عالماً آخرَ من دون أنْ ندرك ذلك.

فلن تكتفي عائلتي بسيركٍ صغير، بل ستنشىء، لسوء حظّنا، سيركاً كبيراً.

اللّيْل معاً

إجراءاتُ الزواج عند القبائل الغجرية مُبسّطةٌ إلى أبعد حد. فحين يتبادل شابّ وفتاة الإعجاب ويرغبان في أن يعيشا معاً وأن ينجبا أطفالاً، يغادران المخيّم سرّاً دون أن يلحظهما أحد، ويعودان بعد ثلاثة أيام أو أربعة، وقد أثبتا بذلك أنّهما أمضيا الليل معاً. هكذا، يصبحان زوجين في نظر القبيلة كلّها، فيقام احتفالٌ عظيمٌ يستمرّ أياماً. وترتدي المرأة الشابّة فستان زفاف من أجل الحفل، ولا تُطرح أبداً مسألةُ عقد الزواج، فقد تبادلا الوعد بأن يكون أحدهما للآخر، والكلمة تكفي، والطلاق محظور.

*

أمّا زواج أبي، فقد جرى على نحو مختلف، ذلك أنّ والِدَي فيوليت طالبا بإجراء الزواج في دار البلديّة، بأوراق رسميّةٍ حسب الأصول، وليس وفقًا لأعراف الغجر. أدرك أبي في وقت لاحقٍ سببَ إصرار والِدَي فيوليت الشّديد على أن يكون زواج ابنتهما رسميًّا: لقد كانا يعرفان أنّ ابنتهما لا يمكن أنْ تنجب أبداً. ولم يكن ذلك ما ينتظره أبي، إذ كان يحبّ الأطفال حبّاً جمّاً، غير آبهٍ إنْ كان الطّفل ذكراً أم أنثى. ولكن كان هنالك مشكلة أخرى، فعند القبائل الغجرية، يقضي العرف بألّا يتخلّى الرّجل عن زوجته، فلم يكن ثمّة حلّ آخر للحصول على الأطفال سوى اتّخاذ زوجة ثانية، مع الاحتفاظ بفيوليت.

*

نُصبت الخيمة الزرقاء الهائلة، مع معرض الوحوش الكبير، في مدينة نيس. كان هنالك حوالي مائة سيّارة. وعلّقت صور والدي وإخوته في كلّ مكان على جدران المدينة مع الشّعار: «**ملوك السيرك**». كان والدي جالساً مع زوجته على رصيف أحد المقاهي. وكانت قد مضت سنوات على زواجهما وفيوليت لم تُنجب بعد. ما حدث في ذلك اليوم دفعني للظنّ بأنّ أبي وزوجته كانا قد تحدّثا بشأنه منذ وقت طويل:

عبرت فتاةٌ غجريّة جميلة أمامهما، فقالت فيوليت لأبي: «عليك أن تتحدّث معها، وإذا أمكن، إئت بها معك». دعا أبي الفتاة إلى تناول شراب معه وزوجتَه. ولا بدّ أنّهما قد شرحا لها المطلوب منها، ومن الواضح أنّ العرض أعجبها، فقد صعد ثلاثتهم إلى السيّارة، حيث جلست فيوليت وأبي في الأمام، والمرأة الشابّة في المقعد الخلفي. في المساء، ستشاطرُ هذه الأخيرةُ فيوليت فراشَ أبي. تلك الجميلة الكالابرية[1] ستكون أمّي.

(1) نسبة إلى منطقة كالابريا، في أقصى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية.(المترجم)

ابـن الأُخـرى

عشتُ طفولتي الأولى في كرافان مساحته عشرة أمتار تقريباً.

أيْ في حيّز ضيّق. وكان لي ما قد يسمّيه البعضُ حظّ أن يكون لي أُمّان، لي وحدي. لكنّ ذلك كان أجمل من أنْ يحدث، فهاتان المرأتان كانتا تكرهان بعضهما بعضاً ولم تكن أيّ منهما تحبّني. عند فيوليت، كنت ابن الأُخرى، أمّا أمّي، فلو ترك الأمر لها وحدها، فلربّما ما أنجبت أبداً. صرتُ كارهاً للنساء بالقدر الذي يمكن أن يكونه صبيٌّ صغير. لم أكن عدوانياً، لكنْ أتذكر أنّني كنتُ كلّما وجدت نفسي أمام امرأة، أيقنت أنّني أمام عدوّ.

معطف

لم أكد أبلغ الرابعة من عمري، كانت المشاجرات بين فيوليت وأمّي لا تنفكّ تزداد. ذات يوم، افتعلت أمي قصّةً لا يكاد يُصدَّق أنْ تأتي من امرأة غجريّة، إذ طلبت من والدي أن يشتري لها معطفًا باهظ الثمن من فرو المنْك. ظنّ والدي أنّها فقدت عقلها، ففي نظره، كانت تلك رغبة بائسة. وبعد جدال رهيب، هدّدته أمّي قائلة: «إمّا أن تعطيني المال أو أرحل مع ابنك ولن تراه ثانيةً أبداً». فوافق والدي على الصفقة، ومنحها مبلغاً كبيراً. في تلك الليلة، حملتني أمّي وفرّت هاربة. ويبدو أنّ نوبة غضب هائلة تملّكت أبي حينها.

تُظهر هذه القصّة مدى سذاجة أمي، ذلك أنّها لم تكن تريد المال لشراء معطف المنْك، بل لشراء منزل، وقد فكّرَتْ: «لا يمكن أبداً لرجل مترحّلٍ أن يمنحني المال لشراء أبغض الأشياء إليه»، لكنّها كانت مخطئة، فوالدي كان رجلاً ملحوظ الذكاء، وكان بوسعه أن يتفهّم رغبتها، أمّا أنْ تطلب المال من أجل شراء معطف، فهذا يعني، في نظره، أنّها انتحرت.

*

عادت أمّي للعيش عند أهلها بصحبتي، فوجدتُ نفسي بين عشيّة وضحاها في كنف عائلة لا أعرفها، وألفيتني لأوّل مرّة في حياتي أمام امرأة لم تكن ساخطة، امرأة تحبّني، هي جدّتي.

أعرف القليل عن عائلة أمي. كانوا قد قدموا بعد الحرب العالميّة الأولى من كالابريا ليستقرّوا في فرنسا. كنّا، نحن، نعلم أن الكالابريّين غجر، لكنّ أمي لم تكن تتباهى بذلك.

بعد أن قضى الوباء على القسم الأكبر من أهل جنوب إيطاليا، جَلب سكّانُ الشّمال القبائلَ الغجريّة التي كانت تجوب اليونان ليعيدوا إعمار القرى الجنوبيّة، وعائلتا أبي وأمي تنحدران من تلك القبائل. وقد تحوّلت بعض العائلات مثل عائلة أمّي إلى حياة الحضر، بينما استأنفت عائلاتٌ أخرى مثل عائلة أبي حياة الترحال. ويُطلقُ علينا النّاس اسم السّينتي البيمونتيّين[1] لأنّنا أقمنا في إقليم بيمونتي زمناً طويلًا.

(1) sinti: تسمية تُطلق على الغجر، وبيمونتي إقليم إيطاليّ محاذٍ للحدود الفرنسيّة، وعاصمته تورينو.(المترجم).

دراجّتي الهوائيّة الصّغيرة

حدثَ ذلك وأنا في السادسة أو السابعة من عمري. لاحظتُ أنّ دراجتيَ الهوائية الصغيرة لا تسير بسرعة كافية. فاتخّذتُ مكاني في قمة منحدرٍ وانطلقت إلى الأسفل. كانت شاحنة تقترب بسرعة كبيرة نحو المفترق. ولكي أتفاداها استخدمت الكابح الأماميّ، الوحيد في الدراجة. وبما أنّني لم أكن أعرف ما الذي يحدث حين تقود بسرعة ثم تضغط الكابح الأمامي، فقد درتُ دورةً فوق المقْود وسقطتُ أمام الشاحنة. كان السقوط مفاجئاً وسريعاً بحيث لم يُتح لسائق الشاحنة أنْ يتوقّف. مرّت الشاحنة من فوقي وبأعجوبةٍ لم تُصبني.

أحصيتُ مؤخّراً عدد المرات التّي كدت أموت فيها ميتة عنيفةً فوجدتها قد قاربت العشر.

*

كان عمري سبعة أعوام أو ثمانية حين وقعتُ في الحبّ لأوّل مرّة. ها أنا أرى ثانية منزلاً بحديقة كبيرة. هنالك، كان ثمّة فتاةٌ في مثل سنّي تقضي أغلب أوقات ما بعد الظهيرة في التطريز. في الواقع، كان الأمر في غاية السهولة، كانت أمّها تقصّ لها قطعاً صغيرة من القماش وترسمُ عليها خطوط العديد من الحيوانات وتقاطيعها، فتتبّع الفتاة الصغيرة بالخيط والإبرة تلك الخطوط. كنت أذهب كلّ يوم، بعد الظهر، لألقاها في الحديقة.

وكنت أطرّز أنا أيضاً، كي أتمكّن من البقاء بقربها، إلى أن جاء اليوم الذي رحلَت فيه مع عائلتها للعيش في مكان آخر. بعد بضع سنوات، عثرت على ذلك المنزل وسألت الجيران إن كانوا يعرفون أين صاروا. أعطوني عنوانًا وذهبت إليه، لكنّي لم أجد أحداً. فلم يبق لي سوى ذكرى شعرها الأسود الطويل وعينيها الزرقاوين الواسعتين.

*

عشتُ في عائلة والدتي حتّى سنّ التاسعة. يمثّل التوطّن، بالنسبة للعائلة الغجريّة بؤساً أكيداً. ألحقتني أمّي بالمدرسة الحكوميّة، فانتظمت فيها بضعة أيام فقط، إذ لم أكن أفعل شيئاً، على ما يبدو، سوى خوض المشاجرات في أثناء الحصص وفي وقت اللعب. ولّما كنت أغادر المدرسة ممزّقَ الثياب، فقد نقلتني أمّي إلى مدرسة خاصة. كنت في السابعة أو الثامنة من العمر.

حين وجدت نفسي في مجموعة من المباني الرماديّة القديمة، شعرت كأنّني سجين معاقب، وتملّكتني فكرة وحيدة فقط: أن أخرج من ذلك المكان البغيض في أسرع وقت ممكن. لقد وجدت أن وقت الفسحة لا يطاق، وكنت أطرح على نفسي السؤال، مستنداً إلى حائط المدرسة: «ما هو الأسوأ بالنسبة لي: الدّرس أم وقت الفسحة مع الأطفال الذين يصيحون ويركضون في كلّ اتجاه كالمجانين؟» في غرفة الصفّ، لم أجلس مطلقًا في مقعدي. ويبدو أنّني لم أكن أتحدّث مع أحد. لم تكن المدرسة، عندي، سوى أوّل مذاقٍ لتجربة السجن، الذي سأعرفه لاحقاً.

أتذكّر أنّ الراهب لم يكن يتردّد في القول أمامي إنّني كنت حالةً غريبة، مع إقراره أنّني أفضل تلاميذ الفصل حين يتعلّق الأمر بموضوع

الدّين. لكنّه لم ينتبه إلى أنّ الكتب العظيمة التي كانوا يعطونها لنا مليئة بصور جميلة جدّاً ليسوع والأنبياء، وأنّني كنت، على وجه الخصوص، شخصاً حالماً. في أحد الأيام جعلتنا المعلّمة نقصّ المفارش الورقيّة لنصنعَ منها الأزياء الخاصّة بمهن أو شخصيّات معيّنة. وكانت هي من يقرّر الزّيّ الذي يناسب كلّ واحدٍ منا. فكان هناك الدركيّ، والطاهي، والمحامي، لكنّها اختارت لي زيّ بييرو لا لون[1]. في وقت لاحق، قلت في أحد كتبي:

«لقد قسمت العالم إلى نصفين:

ما هو شِعريٌّ في جهةٍ

وما ليس كذلك في الجهة الأخرى،

ما هو شعريٌّ موجودٌ في نظري،

وما ليس شعرياً لا ألتفت إليه حتّى».

(1) شخصيّة انتقلت إلى المسرح الفرنسيّ من شخصيّات الكوميديا ديللارتي الإيطالية في القرن السابع عشر. وأصبحت شخصيّة رمزية لكرنفال باريس، وهو مهرجان شعبيّ استمّر حتى بدايات القرن العشرين. وقد خلّدتها أغنية شهيرة للأطفال اسمها «في ضوء القمر». يُصّور بييرو عادةً جالساً على هلال، حالماً وحزيناً، يرتدي ملابس بيضاء بأزرار كبيرة وقبّعة سوداء، ووجهه معفّر بالطحين. وهو يرمز عادة للطيبة والبراءة مقترنين بالحسّ السليم.(المترجم)

غادجو[1]

كان أبي يلوم أمي منذ فترة طويلة قائلاً: «أنت وعائلتك أصبحتما من الحَضر، وستجعلان من ابني «غادجو»». كانت أمّي تأخذني مرّتين أو ثلاثاً في السّنة لرؤية أبي، فنُمضي ثلاثتنا النّهار معًا، وفي المساء أغادر معها. لكنّها كانت مريضة جدّاً، وظنّت أنّها مشرفة على الموت، ولما كانت لا تريد أن تتركني عند عائلتها، فقد أرسلتني للعيش مع والدي.

هكذا أصبحتُ ابن فيوليت؛ تصطحبني في كلّ مكان، وتقول بصوت عالٍ ليسمعها الجميع: «أقدّم لكم ابني». وكان الأشخاصُ الذين لا يعرفون قصّتنا يقولون: «عجيبٌ كم يشبهك ابنك»! هاهي قد عرفت السعادةَ أخيراً. في الواقع، لم تكن امرأة سيّئة، لكنّها عانت كثيراً بسبب عقمها، وتقاسم زوجها مع أمّي.

أحببتُ كثيراً حياتي الجديدة مع والدي وعائلتي الجديدة. كنت حزينا لبعدي عن جدّتي، لكنّني لم أفارقها كليّاً، فقد احتفظت في ذاكرتي بالأمثال الغجريّة المليئة بالحكمة، التي كانت تحفرها في رأسي، وظلّت مفيدةً لي حتّى اليوم.

---

(1) الكلمة تعني «رجل» بلغة الغجر، وهي التسمية التي يطلقها الغجر على غيرهم. (المترجم)

«بوسع كلمة ذكيّة ولطيفة

أن تفتح باباً ثقيلاً من الحديد».

«إنْ ساعدك إنسانٌ على عبور النهر،

فلا تنسه أبدا».

«ما أضعتَه في الجبال،

تجده في السّهوب».

«إذا أردت أن تبقيني عندك، فلتوثق يديّ

بضفيرتيك السوداوين».

«لا يكون المرء حذراً بما فيه الكفاية أبداً».

«المستحيل يحدث».

«إذا كنتَ في قاع الحفرة، توقّف عن الحفر».

بين الأشجار

كان كبار السنّ يطلقون الألقاب على الفتيان، وأخالُ أنّها كانت طريقتهم للقول: «إيّاك أنْ تأخذ نفسك على محمل الجدّ». فكان لدينا: العيِّل، وبوزُ الذيب، وجولو، وزيزيه، وماركي، والجرذ الصّغير، ورأس المطرقة، وناب الكلب، ورِجل الدّيك، ومؤخّرة البقرة، والأرنب، والعصا، وقبّعة الصّفيح، وجعجاع، ورأس الحصان.

كانت الخيمة تُنصب، في أغلب الأحيان، في حقل على مشارف المدينة، وكنّا في ذلك الوقت نغيّر المدينة كلّ يوم تقريبًا، وكان ذلك مسموحاً، أمّا اليوم، فمع معايير الأمن المتّبعة، لن يعود هذا ممكناً. وكانت الخيمة تُنصب غالباً بحيث يكون بابها مواجهاً للمدينة، بينما يطلّ الجزء الخلفيّ منها مع كرافانات السّكن على الحقول.

كنا زمرةً من الأطفال، وبما أنّنا لم نكن نرتاد المدرسة، فقد كنّا نجري في الحقول ونتسلّق الأشجار من الصّباح إلى اللّيل. غير أنّه كان علينا التدرّب على عرض السيرك الذي اخترنا المشاركة فيه. ولم تكن التدريبات تدوم أكثر من ساعة في اليوم. كنّا بلا أية مسؤوليات أو هموم. كانت حياة جميلة.

المال

كان الرجال في عائلتي يمتلكون سيّاراتٍ أمريكيّة كبيرة- إنّها دبّابات رومانيّة، كان والدي يقول لمن تثير تلك السيّارات إعجابهم. ذات يوم، سألتُ أبي كيف للمرء أنْ يعبرَ في سيّارة كاديلاك بجانب رجل يتوسّد الرّصيف، فأجابني: «إنّنا نعتاد كلّ شيء، وهذا دليل على أنّه ينقصنا شيءٌ ما». لم يكن يستخدم سيّارته الأمريكية الكبيرة إلّا حين يُضطر إلى جرّ مقطورة أو كرافان. وكان يقود في معظم الأحيان سيّارته الفرنسية القديمة، التي كانت في حالة رثّة.

كان يردّد: «سأظلّ دائماً في جانب الفقراء والبسطاء». وعلى عكس ما كان يحدث في قبيلتنا، أُضطرّ أبي للتصويت في الانتخابات مرّة واحدة أو اثنتين في حياته. لم أعرف قطّ لصالح مَن، لكنّي كثيراً ما سمعته يقول عند الحديث عن السياسيّين : «هؤلاء النّاس، ينبغي على المرء ألّا يقترب منهم».

الشّباب

شهدنا في ستينيّات القرن الماضي، على نحو مفاجىء، ظهور ما أسمته الصحافة ال yéyés[1]. فتيانٌ وفتيات يغنّون من دون أن يكون لديهم أيّة فكرة عن الغناء، على أنغام موسيقى كان فولفغانغ أماديوس موزارت لِيحكم عليها حتّى وهو في سنّ العاشرة بأنّها بلا قيمة.

ومع ذلك، كان لهؤلاء الشّباب شيء من الجدارة، فقد أشرعوا بعض النوافذ في مجتمع خانق، وكما هو الحال في الحياة، غالبًا ما يجلب النافعُ معه شيئاً من الضرر، فهم وإنْ كانوا قد وجّهوا ركلةً قوية ليقينيّات الطبقة المهيمنة، إلّا إنّهم فتحوا الباب أيضاً أمام التهاون وعدم الاكتراث.

كانت الصحافة قد استشعرت الفرصة التي تلوح من أجل زيادة مبيعاتها، فأعلَت من شأن أولئك الشّباب، بحيث لم يعد يُفسح المجال لسواهم. فبات المسرح والأوبرا والرقص والقصائد المغنّاة والسيرك من أنشطة الماضي، لكنّ أسوأ الهجمات كانت من نصيب الأوبرا والسيرك.

---

(1) تيار موسيقيّ ظهر في أوائل الستينيات. واستُخدم التعبيرُ في فرنسا وكيبيك للإشارة إلى موسيقى أو أغنية مستوحاة من مقطوعة أو أغنية أنجلو ساكسونية ناجحة .حظي هذا الاتجاه بشعبيّة كبيرة لدى الشباب من مواليد ما بعد الحرب العالميّة الثانية، ثم عُمّمت التسمية لتشمل كلّاً من الشباب المولعين بهذه النغمات وفنانيها، وكان لها دلالة تحقيرية في أفواه البالغين وخاصّة المثقّفين. (المترجم)

وفي تلك السنوات، لم تكن النّظرة إلى مدير سيرك بأفضل من النّظرة إلى قَوّاد.

ولم تكن الصحافة، في مجملها تقريباً، تمنح قيمةً لمغنّية رائعة تقدّم موسيقى الباروك أكثر مّما تمنحه لأحمقَ يصرخ بترّهاتٍ أمام الميكروفون، وهو يضرب على الغيتار مثل رجل أصمّ.

كومة الزّبل

كنت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري. نُصِبُ السيرك قرب مزرعة. في الطابق الأول، كان هناك بنت في مثل سنّي على الشّرفة. وتحت الشّرفة، كومة ضخمة من الزّبل. كانت البنت جميلة جدّاً، فوقعتُ في حبّها. وكنت أتسلّق كلّ يوم كومة الزّبل، لأكون قريباً منها.

وخلال فترة طويلة، عندما كان أحدهم يسأل عن مكاني، كانوا يجيبونه: حيث هو دائماً؛ فوق كومة الزّبل.

لا جوارب

كان لدى أبي فكرة محدّدة عن التربية. كان يؤكد أنّه يتعيّن إشغال الصّغار من الصباح إلى الليل، وإلا فإنّهم سيرتكبون الحماقات، وينبغي كذلك التحدّث معهم كثيراً لإحداث التوازن مع ما يسمعونه خارج العائلة.

ولم يكن من الوارد الحصول على مصروفِ جيب. كان قد قرّر أن أكون أفقر الناس في السيرك. كانت ثيابي الوحيدة بنطالاً ممزّقاً، حين يتسّخ، يغسل في المساء لأتمكن من إرتدائه في الصباح، وقميصاً وجرزةً من الصوف وسترة، وزوجاً من الأحذية، ولكنْ لا جوارب.

كنّا حوالي عشرين شابّاً في سيرك أبي. نادراً ما كنّا نتحدّث عن المال، وحتّى نقاشاتنا النادرة حول هذا الموضوع لم تكن تبلغ مسامع الكبار، ولو حدثَ لأخجلنا ذلك. فقد كانوا يقولون: «لديكم من الطعام قدر ما تريدون. ولديكم فِراشٌ مريحٌ وفرصة أن تكون لكم مهنة جيّدة، فماذا تريدون أكثر»؟ بالطبع، كان هذا تبسيطاً للمسألة بعضَ الشيء، لكنّ السجائر والكحول والمخدّرات والنوادي الليليّة لم تكن عالمنا، ولم نكن تعساء.

أن تبدو ذكيّاً

كنت مع والدي في سيّارته القديمة. كنّا قد سلكنا شارعاً باتّجاه واحد، ضيّقاً لا يتّسع سوى لصفّ من السيّارات. كنّا نتقدّم بصعوبة، بسرعةٍ لا تفوق سرعة المارّة على الرّصيف.

كنّا نتوقّف كلّما اجتزنا عشرين متراً. وفي سيارة خلفنا، كان هناك جنديّان من الفيلق الأجنبيّ، يرتديان الزيّ العسكري. وكانا، مع كلّ وقفةٍ، يوجّهان بسيّارتهما ضربة خفيفةً لواقي الصدمات في سيّارتنا. لم يقل والدي شيئًا، ولم يحتجّ، لكنّه كان ينظر إليهما من خلال المرآة الخلفية. وتكرّرت الضربة خمس مرّات أو ستّ.

نزل الجنديان من سيّارتهما مغتاظيْن من غياب ردّة فعل والدي، وفتح أضخمهما بنيةً الباب من جهة والدي قائلاً: «أيّها الغجري القذر، أخرج من هنا»!. كنت في العاشرة من العمر فقط، لكنّني فكّرت: كأنّما يخرجان نمراً من قفصه. خرج والدي من السيّارة مثل مارد من قمقم، ثمّ ألقى بنفسه عليهما وأمسك بخناقيهما، ولا بدّ أنه ضغط بقوة، فقد سقطا أرضاً. أنهضهما وأدخلهما إلى سيّارتهما قائلاً: «لو بقيتما هادئيْن في مكانكما، لبدوتما ذكيّين مثل الجميع».

أن تكون غجريّاً

لم يكن والدي ثرثاراً. كان كلامه قليلاً، ولكن ذا مغزى، من غير أن يمنعه ذلك من امتلاك حسّ الدعابة. ولم يكن يحبّ الأصوليّين. فكان يقول: «الأمر معهم هو نفسه دائماً، إنّهم يفتقرون لحسّ الدعابة ولا يحبّون النساء»، ويضيف: «لكن على ماذا يلومون النساء»؟

حين كان يُسأل «ما الذي يعنيه أن يكون المرء غجريّاً؟» كان يجيب: «أن تكون غجريًّا يعني ألاّ تمارس الرياضة ولا تشاهدها، وألّا تتبع تقليعات الأزياء- فهي قطع من القماش مُزّقت لأغراض تنكّرية، وألّا تبالي بالنجاح الاجتماعي والمواضعات؛ ولا تكنز المال، بل تسعى ما استطعت إلى تقاسمه مع الآخرين، وألاّ تصوّت في الانتخابات، وألاّ تكون ربّ عملٍ ولا موظّفاً، وألّا تعتمد على أحدٍ، وأن تهرب من الجموع».

وكان يقول: «إنّ أمر أهل الحَضر لا يُصدّق؛ فهم يلتحقون بالمدارس حتى سنّ الخامسة والعشرين، ليجدوا أنفسهم عاطلين عن العمل في الأربعين! وفي أغلب الأحيان، يكون شغْلهم تقليب الأوراق بين أربعة جدران». تذكّرني نظرة أبي الي العالم، المطبوعةِ بقوّةٍ بنزعةِ الترحال، بمقولة إرنست يونغر، التي كان أبي سيقرّها: «حين يكون عصرك فاسداً، عليك أن تنأى بنفسك».

توريث

في قبيلتي، يُتعمّد أن تكون أسماء العائلات والأسماء الشخصيّة على درجة من التعقيد. وتكاد تكون النساء هنّ من يقرّرن دائماً اسم العائلة الذي يدوّن في سجلّ الأحوال المدنية، وهنّ من يخترن أيضاً الاسم الشخصيّ واللقب. وغالباً ما يطلقن على الأولاد أسماء مؤنّثة، هكذا فإن لديّ ابن أخ يدعى آلين Aline. لست أعرف اسماً أكثر شاعريّة بالنسبة لصبيّ، وبما أنّ الفتى، فوق ذلك، مفتول العضلات، فإنّ التضادّ هنا جميل.

في عائلتي من جهة الأب، عُمّد العديد منّا، من باب الحفاظ على ذكرى الجدّ، باسم جوزيف، لكن الآباء والأمهات لم يكونوا ينادوننا بجوزيف، وإنّما بسامبيون، ولأنّ الجدّ كان عادة ما يُتذكر بهذا الاسم، فقد كان الأولى منطقيّاً أن يطلقوا علينا اسم سامبيون.

أطلق عليّ أبي، حين ولدت، اسم جوزيف في سجّل الأحوال المدنيّة، لكنّ والدتي قرّرت أن اسميَ يجب أن يكون الكساندر، على أنّهم لم يسموّني لا جوزيف ولا الكساندر، فقد أطلقت عليّ أمّي لقبًا احتفظتُ به حتّى لحظة التحاقي بعائلة والدي، وأطلقت عليّ فيوليت هي الأخرى لقبًا فقدته في الرابعة عشرة من عمري، فصار جميع أفراد العائلة يدعونني الكساندر.

واصلتُ وحدي ودون عون من أحد مسألة الاسم المربكة والكوميديّة

إلى حدّ ما، فعندما تسجّلت في دروس موسيقى عصر النّهضة عند باسكال بوكيه في مركز الفنون التعبيرية والهوايات في بور-لارين، أعطيتهم اسم عائلة والدتي، لأنّني لم أرغب في أن يجري الربط بيني وبين السيرك.[1]

(1) اسم والد المؤلّف هو فيرمان بوغليون **Firmin Bouglione**، لكنّه يرفض أن يحمل اسم عائلة أبيه منذ أن انشقّ وهو في سن العشرين عن العائلة، التي تعدّ واحدة من أشهر عائلات السيرك وأغناها في فرنسا وأوروبا. (المترجم).

التوطّن

احترام الشّباب كبارَ السنّ أمرٌ واجبٌ عند القبائل الغجرية التي لا تزال تمارس الترحال، ونزعة كره النساء؛ هذه الرذيلة، لا وجود لها عندنا. إنّنا نستخدم مفردات خاصّة، لكنّها ليست من باب التهاون، بل لعلّها على الأرجح إضافةٌ شاعرية. فعندما تكون المرأة سعيدةً، تقول: «يا للرَضا!» أو: «لقد أوجعت قلبي كثيراً». ويقول صبيٌّ لخصمه في مشاجرة: «لقد سفكت دم أمّي». أمّا أفظع توبيخ قد يوجّه لصبيٍّ أو فتاة فهو: «دمُ الأجداد لا يجري في عروقك».

قائمة التعبيرات الشاعريّة طويلة، لكنها ستختفي مثلما سيختفي طِبُنا وترحالنا. فمن لديهم سلطة القرار لم يعودوا يريدونها، لأنّهم يتصورّون لنا مستقبلاً آخر، أكثر ماديّة وأقلّ شاعريّة. ومع ذلك، لا شيء يفوق حياة الترحال حين يتعلّق الأمر بالاتّصال بالسّماء.

إنّني أشهدُ اليومَ الكارثة، عاجزاً أمام الموجة الهائلة التي تتّجه صوبنا، وستغرقنا. هل سنتمّكن من مقاومة العالم الحديث؟ لا أعتقد ذلك. وكما لو أنّ هذا كلّه ليس بؤسًا عظيماً، فإنّ عدداً متزايداً من الشباب في قبائلنا يتّجهون نحو التوطّن.

والسؤال المطروح الآن: ماذا نريد يا ترى؟ سقفاً فوق الرأس أم السّماءَ المرصّعة بالنجوم؟

عناصر الميليشيات

هي حكاية كانت تتناقلها العائلة. كان أبي قد نصب السيركَ في بلدةٍ في جنوب فرنسا. سأل شابٌّ غجريّ أبي إنْ كان يستطيع وضع كرافانه الصّغير لبضعة أيام في ساحة السيرك، فأخبره والدي أنّ بوسعه البقاء هو وزوجته الشابّة وابنتهما الصغيرة. حدث ذلك خلال الحرب.

كان ينبغي عبور أحد الجسور من أجل الذهاب إلى المدينة. وصل والدي بسيّارته ورأى في منتصف الجسر ثلاثة من عناصر المليشيات يلقون القبض على الشّابّ وزوجته. كانوا قد أمسكوا بالشّاب، وحين وصل أبي وخرج من سيارته، ألقوا بالشّاب أسفل الجسر في نهر جافّ، فمات على الفور، ثم أمسكوا المرأة الشابّة، وابنتها بين ذراعيها، ربّما لتلقى المصير ذاته. أمسك والدي بالشابّة وطفلتها، وانتزعهما من أيدي الأوغاد، وأدخلهما إلى سيّارته. فوجئ رجال الميليشيات بكلّ تلك الجرأة، فلم يبدوا أيّ ردّ فعل. ينبغي القول أيضًا إنّ والدي كان يتمتّع ببنية جسديّة مهيبة.

بعد بضعة أيام، كان أبي يعبر بسيّارته الجسر حين صادف أحد أفراد مجموعة الميليشيا. وحسب ما نعرف، يبدو أن والدي خرج من سيّارته ليطلب منه تفسيراً لما حدث. لم يكن عدوانيًا، لكنّه سأل الرجل لماذا فعلوا ذلك، وكيف لهم أن يهاجموا أناساً مساكين. فأجاب الرجل بابتسامة: «علينا أن نرميكم جميعاً من فوق الجسر»، فأمسك أبي بخناقه وألقاه في النهر الجافّ.

الحماران الوحشيّان

كنت في العاشرة من العمر تقريباً، وكنّا في جولة في إسبانيا. من بين فنّاني السيرك كانت هنالك عائلة إيطالية؛ عائلة فاسالو Vassalo، التي كانت تقدّم عرضاً جميلاً جداً على السلّم الحرّ. يتمثّل هذا النوع من العروض في تسلّق سلّمٍ لا يسنده أو يثبّته شيء، وأداءِ حركات التوازن والألعاب البهلوانيّة عليه. وحسب معرفتي، فإنّ هذا النوع من العروض ابتكره الصينيّون منذ زمن بعيد. كنت أمضي أغلب الوقت في كرافان تلك العائلة لأسباب عدّة أولّها وجود فتاة اسمها روزانا، كنت واقعاً في حبّها، وكنت أتناول الطعام معهم في كثير من الأحيان، لأنّني دائماً ما أحببت أكل المعكرونة.

كنت أتدرب في الصباح على أداء الألعاب البهلوانيّة مع عائلة فاسالو، وانتهى بي الأمر إلى التدرّب على السلّم الحرّ مع أصغر أفراد العائلة. رأى الأب فاسالو أنّ ثمّة شيئًا غريباً في الكيفيّة التي أستخدم فيها السلّم لكنّه لم يفهم ما هو. فاستدعى أبي الذي راقبني لبضع دقائق، ودون أن يقول أيّ شيء، أخذ كرسيّاً وقال لي: «إصعد عليه. هل رأيت كيف فعل ليصعدَ على الكرسيّ؟ إنه يخاف الارتفاع، فيصيبه الدُّوار.»

لكنّي واصلت التدريبات حتى نهاية الجولة بدافعٍ من حبّي لروزانا. وكان والدي قد قال لي : «إذا كنت تريد التوقّف عن التدرّب على السلّم الحر، فلتفعل!» لكنّ علي أنّ أعترف أنّ الأمر قد راقني في نهاية المطاف.

انتهت الجولة وغادرت تلك العائلة الإيطالية الودودة إلى سيرك آخر. ولم تكد تغادرنا حتّى علمتُ أن روزانا قد انتحرت بإلقاء نفسها تحت عجلات شاحنة. كانت في الثالثة عشرة.

بعد رحيل عائلة فاسالو، لم يعد لديّ معلّم يدرّبني، فتولّت فيوليت الأمر ووهبته كلّ طاقتها، لكنّها لم تكن تعرف شيئًا عن هذا الضّرب من العروض. وحين رأى ألفريد، الملقّب بـ«بيبيتPépette[1]» بسبب تأتأته، وهو والد صديقي ماركي، الأخطاء التي كانت ترتكبها فيوليت، عرض أن يحلّ محلّها. بعد الانتهاء من تمرين التوازن على السلّم، كان يجعلني أتمرّن على الألعاب البهلوانية مع ابنه، بطلب من فيوليت، ويَشترط أن نكون عارِيَي الصّدر والساقين. ثمّ يجلس على الدكّة، ممسكاً بسوطٍ كبير في يده، ليصحّح أخطاءنا بحزام السّوط. كانت العائلة تُسمّينا «الحمارَيْن الوحشيَّيْن».

كنّا أنا وماركي نتقبّل ضربات السّوط لِعلْمنا أنّ ذلك كان من أجل مصلحتنا، ولعلْمنا أيضًا أنّ الرجل صاحب السّوط لم يكن رجلاً سيّئًا. كان ماركي وشقيقه شارل على استعداد، من فرط حبّهما لأبيهما، لأن يلقيا نفسيهما في النّار في سبيل إنقاذه لو اقتضى الأمر.

سألتُه بعد سنوات لماذا كان يدرّبنا والسوط في يده، وقد وجدت جوابه مثاليّاً. قال : «عائلتك غجريّة، وعائلتي يهوديّة. وأنت تعرف الرعب الذي عاشه شعبانا خلال الحرب العالميّة الثانية، ومن يدري ما سنعيشه مرّة أخرى. لذا، فإن أوّل ما عليك فعله هو أن تكون قويًا، وبداية ذلك أن تفعل كلّ ما في وسعك لتجنّب العَوَز. لهذا السّبب كنت شديداً للغاية، أردت أن يكون عرضُكما عظيماً، فأنا لا أعرف المزاح حين يتعلّق الأمر بالتربية».

---

(1) تطلق الكلمة تحبّباً على البنت الصغيرة، وبصيغة الجمع تعني الخوف.(المترجم)

رولان

كان ابن عمّي رولان في الأربعينات من عمره. كنّا نقضي معه أوقاتاً ممتعة؛ يصطحبنا في كثير من الأحيان أنا ومباركي لاصطياد الطيور والأسماك، فنصطاد الطيور بالمقلاع، والأسماك بأيدينا العارية، ثم نطهوها كلّها مع البطاطس بالقرب من النّهر. وكان يعلّمنا أمثالاً غجرية، فقد كان يعرف الكثير منها.

«لا تبخس الغراب والذئب قيمتهما،

فهما يعرفان ما لا تعرف».

ويروي لنا قصصاً حدثت بالفعل، وقد تركت فيّ إحداها أثراً أكثر من الأخريات. كان يعرف عائلة غجريّة لديها طفلان، بنتٌ في الثامنةِ من عمرها وولدٌ ما زال في عامه الأوّل. كانت الأمّ كلّما غيّرت حفّاظة طفلها، قالت له وهي تنظر إلى عضوه الصّغير: «سأقطعه لك». كان الطفل مستلقياً على ظهره، والفتاة الصغيرة تلهو في الركن. خرجت أمّهما لتعيد الغسيلَ المنشور على الحبل، تاركة الطفلين وحدهما.

أمسكت البنت الصغيرة بسكّينٍ وحزّت عضو أخيها الصغير. حين دخلت الأم إلى الكرافان ورأت ابنها غارقاً في بركة من الدماء، أخذت تصرخ، فهرع زوجها راكضاً. لفّت الأمّ الطفل في بطانية، وقفز الأب والأم

في سيارتهما لينقلا الطفل إلى المستشفى. في حالة الذعر التي انتابته، رجع الأب بقوّة إلى الوراء لِيُخرج السيّارة، فدهس ابنته الصغيرة وتوفيّت على الفور. وخلال هذا الوقت القصير، كان دم الصّغير قد تصفّى تماماً بين ذراعي أمّه.

في أقل من دقيقة، هوى مصير تلك العائلة في الرّعب. جُنّت الأمُّ، ولم يعد الأب اليومَ سوى شبح.

ثمّة ما يدعو لذلك

لم تكن إدارة سيركٍ كبير مع الإخوةِ بالمهمّة اليسيرة على والدي، خاصّة بعد وفاة الكساندر، أخيه الأكبر. فقد كان بينهما تفاهمٌ عزّ وجوده مع شقيقيه الآخريْن، وعلى وجه الخصوص مع جوزيف الذي لم يكن يصغي لنصائحه، بل لم يكن يصغي لأحد. وكثيراً ما سمعتُ والدي يقول له: «كم أنت غبيّ يا جوزيف»! ولكنْ لسوء الحظ، كان والدي يترك الأمور تجري دون تدخّل بعد أن أنهكته الشيخوخة والمرض.

حين أعيد التفكير في جوزيف، مع شيء من المسافة، يبدو لي جليّاً أنّ الرجل كان مريضاً، إذ كان من المستحيل التحدّث معه دون أن يأخذ بالصّراخ. وكثيراً ما عارضناه أنا وابنه، لكنْ بلا طائل، فقد كان يفعل دائماً ما يقرّر، وغالبًا ما كان لقراراته عواقب مأساويّة على العائلة وعلى مستقبل سيركنا.

كان في هيئته شيء ملكيّ، مثله في ذلك مثل والدي. وكانت الصوّرة التي يقدّمها عن نفسه جميلة، لكنّها صورة فقط، إذ كانت قرارته إجراميّة. وكان الوحيدون في العائلة الذين يكنّون الودّ لذلك الرجل هم زوجته وبناته ووالِدي، وفيما عداهم، كانت العائلة بأسرها تبغضه. ويا للأسف! كان ثمّة ما يدعو لذلك.

الفيل

كنت في الخامسة عشرة من عمري. اشترى أبي فيلاً رضيعاً، وطلب مني الاعتناء به. كنت ألقمه الرضّاعة عدّة مرات في اليوم، وحين أخرج إلى الشارع، يتبعني مثل كلب. كانت ابنة عمّي مادونا رومانِس، التي دائماً ما تمتّعت بملَكة إبداعٍ فيّاضة قد أعدّت عرضًا فنيّا مائيّاً. وحين علِمَت أنّني أعتني بفيلٍ رضيع وألعب معه مثلما نلعب مع كلب، سألت أبي إنْ كانت تستطيع إشراكه في عرضها، وإذا أمكن، أنْ تجعله يركب زلّاجات مائيّة. رأى والدي أنّها فكرة سخيفة، لكنّه لم يرفض، بل قال: «هذا الحيوان الصّغير ذكيّ للغاية، ولن أفاجأ إذا ما نجح في ذلك». اتّفقنا على أن يعبر الفيل الصّغير، في نهاية العرض، المسطّح المائي على الزّلاجات، وتكون تلك خاتمة العرض. وافق والدي على طلب ابنة عمّي، وانطلقنا للانضمام إليها في جنوب فرنسا.

عندما وصلتُ إلى الميناء، جهّزتُ صندوقاً للفيل الرّضيع. كان المطوّرُ العقاري يفرك يديه لأنّ عرضاً مائيّاً يشترك فيه حوالي عشرين فنانًا سيُقدّم هناك على الماء أمام مبانيه، بعد بضعة أيام، وسيكون الفيل هو عنصرُ الجذب في العرض. كان المطوّر العقاريّ يأمل في أن يجذب العرضُ جمهوراً واسعاً، يكتشفُ في الآن ذاته الشّققَ المعروضة للبيع.

كانت ابنة عمّي تضع اللّمسات الأخيرة على إخراج العرض، فيما

نجري أنا وأبي التدريبات مع الفيل الصّغير الذي انقاد لركوب الزلّاجات دون حاجة لإجباره على ذلك. ولكنْ حين كان يصيبه الملل، كان يقفز في الماء ويسبح سعيداً. ولمّا كان من المتعذّر التنبؤ بسلوكه، وكان يمكنه القفز إلى الماء في أثناء العرض، فقد خطرت لأبي فكرة أن يربط قوائمه الأربعة بالزلّاجات.

لم يخطر لنا أنّ الفيل قد يغرق، وقد كاد إلا قليلاً، إذ سقط على ظهره، والزلّاجات تعوم فوقه. فأمسكتُ بقضيب حديد كان على متن القارب، وقفزت في الماء. وفككت القيود مُبْقياً خرطوم الفيل الصغير خارج الماء كي يستطيع التنّفس. بعد هذه الواقعة، عرفنا أنا وأبي ما الذي ينبغي فعله وما الذي ينبغي الكفّ عنه.

أمكننا البدء بتقديم العروض، فأنجزت ابنة عمّي لوحات جميلة جدّاً. وعلى ما يبدو كان المطوّر العقاريّ مسروراً لأنّه حصل مبكّراً على بعض المشترين. كان كلّ شيء على مايرام في أفضل العوالم- كما يقول المثل- لكنّه أجملُ من أن يكتمل.

أقيم العرضُ كلّ مساء على مدى ثلاثة أسابيع أو أربعة وكان الاتّفاق أنْ يدفع المطوّر للفنانين أجورهم صباح كلّ اثنين. حلّ يوم الاثنين الأوّل، وكنتُ إلى جانب الفيل مع أبي حين لمحتُ ابنة عمّي تخرج باكية من المبنى. اتّجَهَت راكضة نحو أبي، وقفزت متعلّقة بعنقه وهي تقول: «عمّي، هذا المطوّرُ العقاريّ القذر، لا يريد أن يدفع للفنّانين، فماذا سأقول لهم؟». تولّى أبي الأمر: «تعالا معي كلاكما!» دخلنا المبنى وركبنا المصعد.

كان باب المصعد يفتح مباشرةً على مكتب المطوّر. كان جالساً في كرسيّ مريح خلف مكتبه، يدخّن غليونه بهدوء. تقدّم أبي نحوه بخطوة

واثقة، وبحركة سريعةٍ من ساعده رمى كلّ ما كان على المكتب على الأرض صارخاً، «المال!» سحب المطوّر العقاريّ دفتر شيكاته مذعوراً ووقّع مرتجفاً شيكاً قدّمه لابنة عمّي. قال أبي: «من المؤسف أن تبلغ الأمور بيننا هذا الحدّ، آمل أن لا تحمل لي كثيراً من الضّغينة». ثم صافحه وغادرْنا. في اليوم التالي، عاد والدي إلى باريس، وقبل أن يغادر قدمّ لي بعض الوصايا. «احتفظ دائمًا بحقٍّ من العسل معك. إذا هرب الفيل، تغمس يدك في حُقّ العسل، ثم تضع يدك في فمه، وستتمكّن بفضل العسل من إعادته إلى الصندوق».

استؤنف العرضُ المائيّ، وكان يقدّم كلّ مساء. سارت الأمور مع الفيل سيراً حسناً. ثمّ حلّ يوم الاثنين الثاني. ولمحتُ ابنة عمّي تخرج باكيةً من المبنى. اتّجهتْ نحوي راكضة، وقفزت متعلّقةً بعنقي. «ابنة عمّي، هذا الوغد، عاد سيرته الأولى. إنّه لا يريد أن يدفع أجور القنانين». أخذتُها من يدها وقلت: «لا تبكي يا ابنة عمّي، أعرف ما يجب فعله، تعالي معي»! وركبنا المصعد. وقَفت ابنة عمّي خلفي، ودخلتُ مثل والدي إلى مكتب المطوّر بخطوة واثقة. وبساعدي رميت كلّ ما كان على المكتب على الأرض، وصرخت: «الشّيك»! نهض المطوّر الذي لم يتأثّر على الإطلاق من مقعده بهدوء، وبإشارة من يده إلى الباب، قال: «انصرفا من هنا»!

لا يكون لك، وأنت في الخامسة عشرة من العمر، وزنُ رجلٍ كان ينام في العراء؛ رجلٍ نشأ بين النّمور والثعابين، وكان يتنقّل من مدينة إلى أخرى على ظهر حصان، وعاش حربيْن عالميّتيْن.

بعد بضعة أيام، دفع الرّجل- بدافعٍ من النّدم ربّما- المال لابنة عمّي، أمّا أنا فقد تلقيّت درساً جيّداً.

في إسبانيا

عرض صاحبُ سيرك إسبانيٌّ كبيرٍ على والدي أن يؤجّره مجموعة من حيوانات سِيركنا من أجل المشاركة في جولة، ولمّا كان والدي يحبّ إسبانيا كثيرًا، فقد جهّز عرضاً مع نموره كي يقدّمه هناك، علاوةً على تأجير حيواناته، واتفّق مع إخوته على أن يديروا سيرك العائلة بدونه مدّة ثمانية أشهر. لم يكن صاحب ذلك السيرك الكبير من أبناء المهنة، بل رجلاً غنيّاً ارتأى أنْ يهبَ نفسه سيركًا.

ظلّ الرجل يردّد طيلة أسابيع على مسامع فيوليت وأبي: «حالما نصل إلى مدريد، سأدعوكم أنا وزوجتي لتناول العشاء في منزلنا الرائع. لدينا طاهٍ استثنائيّ، سيقدّم لنا شيئاً لذيذًا، وسأستدعي موسيقيّين، فتكون أمسية رائعة لا تنسى». لم يكنْ يدري كم كان مُصيباً فيما قال!

عندما وصل السيرك إلى مدريد، ذهبت أنا وشقيقتي وأبي، حسب الاتفاق، إلى ذلك العشاء. كان صاحب السيرك وزوجته في انتظارنا على درج منزلهما. كانا سعيدين برؤيتنا، فقد خشيا ألّا نأتي.

جالا بنا في المنزل وعرّفانا إلى طاهيهما، ثم ذهبنا إلى قاعة الطعام. كان الجو ودودًا. جلسنا إلى المائدة. كانت فيوليت وأبي يرويان طُرفاً مضحكة تحدث في السيرك، بينما صاحب السيرك وزوجته يرويان قصصًا طريفةً عن البنوك، فقد كان عالمهما هو عالم المال .

في ذلك الوقت، كان الجنرال فرانكو رجلَ البلاد القويّ. وقد فهم والدي، مع تقدّم النقاشِ، أنّهما معجبان بالديكتاتور. فقال فجأة : «لا يمكنكم تجاهل حقيقةِ أنّنا غجر، وفي إسبانيا، يعرف الجميع ما فعله فرانكو القذر هذا بالغجر الإسبان». امتقع وجه مدير السيرك، وأخذت يداه ترتعشان. نهض والدي، وقد توقّف عن الكلام. لا بدّ أنه كان يفكّر بما كان مقدماً على فعله. مدّ ذراعيه تحت الطاولة، وبحركة سريعة قذف بها إلى السقف بما فوقها من أطباق وطعام. عندما هبطت الطاولة، قال: «ما كان يجب أن نأتي إلى هنا». ثمّ أخذَنا أنا وأختي من يدينا وانصرفنا.

أصحابُ سوابـق

كان والـدي يتـرأس سـيركاً كبيـراً مـع إخوتـه، وبعـونٍ كبيـر مـن الزّوجـات وأبنـاء الأعمـام وبناتهـم وأبنـاء الإخـوة وبناتهـم، وعلـى الرّغـم مـن ضخامـة هـذا السـيرك- خيمـة كبيـرة، وحوالـي مائـة سيّارة، والكثيـر مـن الحيوانـات، فقـد ظـلّ مشـروعاً عائليـاً. كانـت هنالـك عـروض يقدّمها أفـراد مـن العائلـة وأخرى لفنّانين يسـتعانُ بهم في عـروضِ الجولات. وكان هنالـك أيضًـا موسـيقيّون وزهـاء مئة رجل مـن أجل نصب الخيمـة والعناية بالحيوانـات.

كان نصف هؤلاء الرّجال من أصحاب السّوابق الذين حين خرجوا من السجن كانوا عاجزين عن العثور على وظيفة، لأنّ أحداً لم يكن يرغب في توظيفهم. ولست أذكر أنّ أيّاً من هؤلاء الرجال قد تسبّب لنا بأيّة متاعب حقيقية.

وينبغي القول أيضاً إنّهم كانوا يحظون بإشراف جيّدٍ من العائلة ويعيشون في جوّ مريحٍ، بعيداً عن الأحكام المسبقة، حتّى إنّنا لم نكن نسألهم عن سبب دخولهم السجن. كان هناك أيضاً بعض من يعانون من إعاقة ذهنية خفيفة، ممّن كانت العائلة تعلم أنّه بإيكال مهمّة العناية بالحيوانات إليهم سيتحسّنون ويعود بعضهم أسوياء تماماً.

كان عمّي الكساندر وزوجته يَجِدّان كثيراً في العمل، وقليلاً ما يكونان في الكرافان. كان لديهما ثلاث بنات: جيرمين، ورينيه، ومادونا، ربّاهنّ رجلٌ من أصل مغربيّ، كان مشاغباً في شبابه. وقد قالت لي ابنة عمّي: «هذا الرجل كان أمّاً ثانية لنا. وليس هناك أي شيء قد نلومه عليه، أنا وأختيْ. ليس لدينا تجاهه سوى الشّعور بالامتنان.»

التوأم

لم نكن أنا وماركي نفترق من الصباح إلى المساء. كنّا نرتكب الكثير من الحماقات. وحين يُنصب السيرك في الساحة نفسها حيث تقام الملاهي، نركب سيّارات الاصطدام الكهربائية، ونتنزهُ في المدينة، وندخل السّينما ونأكل الحلوى. وماركي هو من يدفع الحساب دائماً. لم يلمني على ذلك قطّ، فحتّى سن السابعة عشرة، لم أكن أملك مالاً في جيبي، إذ لم يكن أبي يعطيني مصروفاً. كان ذلك جزءاً من التربية التي أرادها لي.

كان والدا ماركي يعملان منذ فترة طويلة في سيرك أبي، لكنهما التحقا في أحد الأيام بسيركٍ آخر. حزنتُ لرؤية تلك العائلة تغادر، خاصّة صديقي. كنّا متفاهميْن مثل توأم. مرّة أخرى كان عليّ أن أعيش ألم الفراق. وقد خلّف رحيل صديقي الأثير فيّ أثراً عظيماً.

حين التقينا بعد بضعة سنوات كانت صداقتنا على حالها، لم ينل منها شيءٌ.

شقيق أبـي

التقيتُ في باريس مصادفةً ابنة عمّي؛ إحدى بنات جوزيف. كانت متزوجة من رولان، ولمّا كنّا لم نلتق منذ سنوات، فقد أمضينا وقتًا طويلاً على رصيف إحدى المقاهي مستذكرين اللحظات البهيجة التي عشناها مع رولان. حين حانت لحظة الانصراف، قالت : «أبي مريضٌ جدّاً، بل إنّه مشرف على الموت، وكثيراً ما يتحدّث عنك، فثمّة ما يريد أن يخبرك به». لم أستطع إلا أن أبتسم وأقول: «لقد آذاني أبوك كثيرًا، حقّاً لا أريد رؤيته». بدا عليها الحزن، فقلت لها: «سآتي، لتكوني راضية». أمسكت بيدي وقالت: «لنذهب من فورنا». لم أكن أريد حقًا أن أذهب، لكنها لم تفلت يدي، فمضينا لرؤية عمّي.

كنت أمام شقيق أبي، وقد هالني الشبه بينه وبين أبي الذي كان قد توفيّ منذ فترة طويلة. بدا التأثّر على ذلك الرجل شديد القسوة، وقال: «أعلم أنه لم يبق لي من العمر الكثير، ولكن أردت أن أراك ثانية قبل أن أموت». كان الوقت متأخّراً، وهو يكاد يقع من النعاس. وقبل أن أنصرف، قال لي : «عِدني بأن تعود لرؤيتي مجدّداً.»

«عمّي! عليّ أنْ أصارحك بالحقيقة، إذا كنتُ هنا أمامك، فذلك لأنّ ابنتك ألحّت عليّ كثيراً. ثمّ، لماذا أعود ما دام النقاش معك مستحيلاً؟»

أمسك بيدي قائلاً: «عُد غدًا! أعدك بأنّنا سنطرح كلّ شيء على الطاولة، ونتصارح حول الأمور كلّها».

عانى أبي من المرض لسنوات، لكنّه لم يكن يشكو أبداً، فلم أُدرك أنّه كان يعيش أيّامه الأخيرة. وقد لُمت نفسي لأنّني لم أُمضِ إلى جانبه وقتاً كافياً. حين التقيت جوزيف ثانية، كان شبُهه بأبي وإنسانيّته المتأخرة، لكنْ الحقيقيّة، قويّين لدرجة أنّني أخذت أزوره كلّ يوم تقريبًا لمدة عام، إلى أنْ تُوفيّ. وقد دارت بيننا نقاشات طويلة.

كان يصغي إليّ من دون أن يحتجّ على لومي له بالقول: «لقد دمّرتَ العائلة»، بل إنّه أقرّ بذلك، وقال: «اتّخذني اثنان من أبنائي مثالاً يحتذى، فيا لهما من شقيّان! كان أبوك والكساندر هما القدوة التي ينبغي أن تحتذى، وليس أنا. فطوال حياتي، فعلت ما لا يجب فعله ولم أفعل ما ينبغي. وغالبًا ما أعليت من شأن بعض الأغبياء وأسأت معاملة رجال ونساء عظيمي الشأن. لقد تخليّت عن إرث أجداد قبيلتنا، فلم آتِ إلا السرقة والكذب، بل بلغ بيَ الأمر أن ردّدت طيلة سنوات أن جدّيَ لم يكن غجريّاً وإنّما تاجر أقمشة في تورينو. ربّما أردت محو أصلنا الغجريّ». وكما كان يقول أبوك: «عندما يخجل المرء من أصله، فهذا يعني أنّه أحمق».

في صحبتي لشقيق أبي في أيّامه الأخيرة، شعرت كأنّني أصحب والدي. كانت تلك الرحلة القصيرة التي قطعناها سويًا مفيدة لكلينا. كان يقول: «لقد أسأتُ معاملتك أنت أيضاً، ومع ذلك ها أنت تأتي، مثل بناتي، لرؤيتي كلّ يوم تقريباً». وقال لي أكثر من مرّة: «لم تكن عائلتنا محظوظة، ففي عام 1953 توفي أخي الكساندر. كان رجلاً صالحاً، كان الأفضل لو متُّ أنا، إذن لاختلف مصير العائلة كلّ الاختلاف». ها هو الرّجل الذي كان ظالماً قد أسقط قناعه أخيراً، كان عاريًا أمامي. استغرق الأمر وقتاً طويلاً، لكنّه صار أخيراً إنساناً.

ذات يوم، وأنا أهمّ بالمغادرة، لا أعرف لماذا قلت له وأنا أقبّله: «أراك غدًا يا أبي». فأمسك بي من كمّي واستوقفني طويلاً، ورأيت دمعة كبيرة تسيل على خدّه.

كتبتُ في واحدٍ من كتبي: «لتدمير رجلٍ أو امرأة أو عائلة أو شعب، يكفي رجلٌ واحد». هذه الفكرة البغيضة ألهمني إيّاها عمي جوزيف رومانس. كم تغيّرتُ مع الرجل الذي كان أمامي! أنا الذي كنت أتهرّب منه منذ سنوات عديدة، لم أعد أرغب في تركه، وحين توفّي، كنت من القلائل الذين تحسّروا عليه.

كان قد دمّر بمفرده عائلتنا. كان هذا الرجل بأخلاقه «المطأطة» جدًا، قادراً على أن يكشف أيضاً عمّا فيه من نُبل. ذهب مرّة لمشاهدة عرض يقدّمه سيرك كبير، أقيم في مدينة فرساي. خلال العرض، هاجم أسدٌ مروّضه. ولا بدّ أن الهجوم كان فظيعاً، إذ انتهى بموت المروّض. لكنّ جوزيف، الذي كان طاعناً في السنّ آنذاك، دخل القفص محاولاً إنقاذ المرّوض، وكانت تلك شجاعة كبيرة منه لأنّه يعرف السّباع جيدًا، ويعلم أنّه بدخولك قفصاً به وحوش لا تعرفك، فإنّما تخاطر بحياتك بقدر ما تخاطر بها في ساحة معركة.

كان لديه أيضاً فضيلة أخرى: لم يكن شخصا كسولاً. وقد رأيته يعمل حتّى وقت متأخر من حياته من عشر ساعات في اليوم إلى اثنتي عشرة ساعة. وكان يحسن فنّ رواية القصص. أتذكّر أنّه كان لدينا مجموعة من الأسود وُلدت حديثاً. فاتّصل ببعض الصحفيين كي يأتوا لمشاهدتها. هتف الصحفيّون: ما أجملها! فأضاف جوزيف: «هذا أمر طبيعيّ، فالأب والأمّ رائعان». ثم قال ملتفتاً إلى الصحفيّين: «إنّه لأمر غريب، انظروا كيف نحن، أنا وزوجتي، وانظروا الأوغادَ الذين أنجبناهم».

في آخر أيام حياته، رأيته ينفق القليل ممّا تبقى له من قوةٍ في السّعي إلى إيقاف الحرب الناشبة بين أبنائه الأربعة، ولكنْ كان قد فات الآوان، وتأصّل الدّاء. فبسببه، استحكم الكره بينهم.

وقد فهمتُ أخيراً من خلال نقاشاتي الطويلة معه أنّ ابنه البكر فيرمان كان أحبّ أبنائه الأربعة إليه، وأكثر من تعرّضَ من بينهم لسوء معاملته!

شباب القرية

روى لي والدي أنّهم كانوا قد نصبوا خيمتهم الصّغيرة في ساحة قريةٍ تقع وسط فرنسا. حدث ذلك في عشرينيّات القرن العشرين. كانت أعمار والدي وإخوته تتراوح بين الرّابعة عشرة والثّامنة عشرة. عرفوا من حديثهم مع شباب تلك القرية أنّ حفلاً راقصاً يقام في القرية المجاورة، على بعد كيلومترين. فقرّروا الذهاب إلى الحفل وطلبوا من الشّباب مرافقتهم، حيث كانت قد نشأت بينهم علاقة ودية، لكنّ الشّباب رفضوا الذهاب قائلين: «إنّنا لا نخالط الغرباء». هذا، مع أنّه في ذلك الوقت لم يكن في قرى وسط فرنسا أحد غير الفرنسيّين.

وأتذكّر مطعماً إيطالياً رائعاً قال لي صاحبه في أحد الأيام: «الكساندر، توقّف عن قول «الإيطاليّون»، «لأنّنا لسنا إيطاليّين، بل صقليّون»». لم تدهشني تلك الملاحظة، لأنّي كنت قد سمعتها من قبلُ في ظروف أخرى، لكنّ ما قاله بعد ذلك هو ما أدهشني، إذ أضاف: «نحن صقلّيون، ولكن صقليّون من الشّمال». ففكرّت: ما زلنا بعيدين عن الخروج من العنصرية ومعاداة الساميّة.

كنت قد كتبت في مقال: لا يزال أمام العنصريّة ومعاداة الساميّة مستقبلٌ مشرق، ذلك أنّه حتّى في المقبرة، ما زال الفصل بين المسلمين واليهود والمسيحيّين قائماً.

كنت مذهولاً

لا بُدّ أنّني كنتُ في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر. كان قد مرّ وقت طويل وأنا واقفٌ في عربة المترو، حيث تكدّس الركاب فوق بعضهم بعضاً. كانت امرأة في الأربعينات من العمر تجلس مع طفليها في المقعدِ أمامي. وكان أصغرهما يجلس بجانبها. نظراً للحشد في العربة، كان ينبغي- لو كان لديها شيء من الحسّ السليم- أن تُجلس طفلها في حضنها، فعمره لم يكن يتجاوز ثلاث سنوات أو أربع، لكنّها لم تفعل.

وكان طفلها الأخر ذو العشر سنوات يستلقي على المقعد قبالتها شاغلاً مكانيْن. ولمّا كنّا قد عبرنا محطات عديدة وأنا واقف، فقد سألت تلك المرأة بأدب وبدون أيّة عدوانيّة أن تطلب من ابنها أن يعتدل جالساً، فلم تُبد أيّ ردّ فعل.

ولكن من دون أن تقول أي شيء، اعتدل الصبيُّ الصّغير جالساً، فاغتنمتُ الحيّز الشّاغر لأقعد. وجدت نفسي أمام امرأة أخذت تشكو لأنّني طلبتُ من ابنها أن يفسح لي مكاناً وتسأل النّاس من حولها أن يشهدوا عليّ. قالت: «أيّها الشاب، ما فعلته ليس لطيفًا، لأنّ ابني تيتي Titi متعب». أوضحت لها بأدب أنّ تيتي جالس الآن، لكنّها واصلت الشكوى. اجتزنا محطة، وثانية، وثالثة وهي ما زالت تشكو، وبما أنّني وجدت شكواها سخيفةً ومُبالغ فيها، فقد انفجرتُ رغماً عني بالضحك، فصفعتني بقوّة. انعقد لساني، وتسمّرت مذهولاً، إذ لم أتوقع ردّ فعل كهذا.

كنّا وجهاً لوجه، يحدّق أحدنا في عينيّ الآخر. قرأتُ في عينيها: لم تكن تتوقّع ذلك، ماذا ستفعل الآن؟ كنت أنظر إليها، لكنّها لم تر غضبًا في عيْنيّ. كنت أفكر في ما سأفعله، ففي سنّ المراهقة، كان من المستحيل تنفيذ فكرة المسيح الذكيّة: «من ضرَبك على خدّك الأيمن، أدر له الخدّ الأيسر.»

ما كان لهذا الموقف الذي ينطوي على قدرٍ عظيم من الحسّ السليم أن يكون موقفي. كنت أقلّب الأفكار في رأسي بحثاً عن شيء أفعله ضدّها. لكنّ الأمر كان معقّداً، لأنني لم أرغب في التصرّف بفظاظة أو بصورة هزلية؛ بشيءٍ قد يضحكها. اجتزنا حوالي عشرين محطة وأنا لم أجد بعد ما سأفعل. رأيتها تجهّز أغراضها، وسمعتها تقول لولديها: «سننزل في المحطّة القادمة». عندما نهَضَت، وجّهت لها، مثل أغبى الأغبياء، صفعةً قوية.

لكنّ الرجال من حولنا لم يكونوا هم أنفسهم من رأوا امرأة تصفعني بلا سبب، فأولئك كانوا قد نزلوا. لم ير الركّاب الحاضرون سوى ربّة عائلة وطفليها يعتدي عليهم شابّ شقيّ. هجم نصف الرجال الذين كانوا في العربة عليّ. كان لي من حضور الذهن ما مكّنني من الوقوف في المقعد لأردّ بعض الضربات، لكنّني تلقيّت الكثير منها أيضاً. ولحسن حظّي وصلت الشرطة، وكانت تلك المرأة نزيهة في نهاية المطاف، إذ اعترفت بأنّها هي من ضربني أوّلاً.

لم يعد لدى تلك المرأة، التي كانت جميلة إلى حدّ ما ذرّة غضبٍ ضدّي، لذلك اعتذرتُ منها. وعندما غادرتُ، استدرتُ فلمحتها في دهشة كبيرة تومئ لي بإشارة صغيرة من يدها وابتسامةٍ عريضةٍ.

الحبْل

قرّرتُ مرّة، وأنا في السابعة عشرة من عمري أيضاً، أنْ أختم عَرضيَ على السلّم الحرّ بشقلبةٍ خطيرة، بحيث أقفز من أعلى السلّم، ولأُصعّب الأمر أكثر، أمرّ من خلال طوقٍ أحمله بيد واحدة.

لم يتطلّب ذلك منّي الكثير من التدريبات، فمن السهل القيام به ما دام للمرء قدرة جيّدة على حفظ التوازن على السلّم. لكنّه أمر بالغ الخطورة، ذلك أنّه بعد الانطلاق في الفراغ، إذا حدث خطأ ما، فلا مجال لتداركه. ففي تسْع مرات من أصل عشر، سيسقط المرء على رأسه.

لم يكن البهلوان الذي كان يمسك حبْلي في العادة حاضراً يومها، فذهبت لأستعين بوالدي. ما لم أكن أعرفه هو أنه لم يسبق له قطّ أن أمسك الحبل لِلاعب حركات بهلوانيّة. حين قفزت، فقدت توازني وهويت من أعلى السلّم على رأسي، لكنّني قوّستُ جسدي قدر الإمكان كي لا أسقط مباشرة على الرأس.

حين رآني والدي أسقط، شدّ الحبْل بكلّ ما أوتي من قوّة، غير أنه لنقص الخبرة، أرخاه أكثر ممّا ينبغي، فسقطتُ عند قدميه. لم أصب بأية كسور، لكنّني شعرت كأنّ لي جسد رجل عجوز خاض سباق الماراثون. شعر والدي بالأسف، لكنّني لم أقل أو أظهر له أيّ شيء. عدت إلى فراشي في الكرافان خلسةً، كاتماً ألمي، ولم يعرف أحد شيئاً عمّا حصل.

مرّت بضعة أيام. كنت على وشك الدخول إلى الخيمة مع سلالمي، فأوقفني والدي قائلاً: «تلك الشقلبة الخطيرة من أعلى السلّم حماقة. أرى أنّ أمامك حلّيْن فقط: أن تكفّ عن تلك الشقلبة الخطيرة اللعينة أو أن تشتري لك بساطاً مطاطيّاً صلباً كي يتلقّاك. ستموت إن لم تصغ إلي». اتّبعت نصيحة والدي، واشتريت بساطاً، لكنّني توقّفت بعد بضعة أشهر عن القيام بتلك الشقلبة، حتّى مع وجود بساط جيّد، فقد كانت شديدة الخطورة.

سوف نمرح

أخبرني أبي أنّه كان لدى بعض أبناء عمومته البعيدة سيركٌ صغير. كانوا شديدي الفقر، يجرّون كرافاناتهم بواسطة الخيول. كان ذلك خلال الحرب العالمية الثانية. بينما كانوا يسلكون طريقاً فرعيّاً، اضطروا للتوقّف عند حاجزٍ أقامه جنود ألمان. قال لهم الضابط قائدُ الجنود بالفرنسيّة: «بأشكالكم هذه، أكيد أنّكم من الغجر». ثم خاطب جنوده قائلاً: «أخرجوهم من الشاحنات والكرافانات.»

كانت العائلة كلّها أمامه. وكان واضحاً أنه يبحث عن شيء ما. حين لمح صبيّاً في السادسة عشرة من عمره وفتاة في الرابعة عشرة ، قال لهما: «سنلعب لعبةً ممتعةً جدّاً. انتما الاثنان، هل تريان مستودع الحبوب هناك في البعيد؟ ستركضان في اتّجاهه بأقصى سرعة ممكنة عندما أعطيكما الإشارة، وأنا وجنودي سنطلق عليكما النّار. فإنْ حالفكما الحظ، نجوتما وإنْ لم تكونا محظوظين، ستموتان. استعدّا! سأعدّ إلى ثلاثة».

عدّ الضابط إلى ثلاثة، فركض الولد والفتاة نحو المستودع. وأطلق الضابط والجنود النّار عليهما، فماتا كلاهما مُغربلَيْن بالرصاص. هجم رجال العائلة على الجنود وقتلوا اثنين منهما. لكنّ الجنود ردّوا فقتلوا رجال العائلة جميعهم، وأبقوا على النساء، وتركوهن على جانب الطريق مع آبائهن وأزواجهن وإخوتهن القتلى.

في منتصف الليل

كان أبي قد تعاقد مع مهرّجيْن إسبانيّيْن من أجل جولة السيرك. كان ماريو لطيفاً، أمّا خوسيه فلا. كانا ظريفيْن للغاية في حلبة السيرك، أمّا خارجها، فلم يكونا كذلك البتّة. ولّما كانا يتبادلان الكراهية فقد ظلّا يدبّران لبعضهما بعضاً أردأ المزحات الثقيلة ذوقاً. كان ماريو يهدّد خوسيه منذ فترة طويلة بأنّه سيدبّر له مقلباً يتذكّره طوال حياته، ويتآمر من أجل ذلك مع الفنّانين الآخرين. «عندما تُنصب الخيمة في أحد الحقول ويحلُّ الليل، ويكون خوسيه نائماً، سنحفر حفرة كبيرة أمام باب كرافانه. وسنفرّغ كلّ الدِّلاء الطافحة بالغائط في الحفرة حتّى حافتها. وسأفعل كلّ ما يلزم لجعله يسقط فيها، ولكي لا يلحظ أيّ شيء، سأغطّي الحفرة بالأغصان والأعشاب.»

اختبأنا خلف الكرافانات للاستمتاع بالعرض من دون أن يرانا خوسيه. عند منتصف الليل، طرق ماريو بعنف باب خوسيه، فاستيقظَ هذا الأخيرُ ليرى من الطارق في مثل تلك الساعة. ولمّا لم ير أحداً، عاد إلى الفراش. انتظر ماريو بضع دقائق قبل أن يعود ليطرق الباب، فسمعنا خوسيه يصرخ: «إذا كانت هذه مزحة، فإنّها ليست مضحكة!» لمْ يدرِ كم كانَ مصيباً! طرق ماريو بابه مرة أخرى، وسمعنا خوسيه يقفز من فراشه وهو يصرخ بالشتائم البذيئة. فتح بابه بعنف وخرج من الكرافان. ثمّ رأيناه يغوص في الغائط حتّى عنقه. ليس هذا النوع من المزاح الرّديء بالأمر النّادر في عالم السيرك.

العِجل الذهبيّ

منذ وفاة الكساندر، شهدتُ تدهورَ سيركنا البطيءَ. شيئاً فشيئاً، لم نعد عائلةً واحدة، وبات القارب الهائل الذي كان يمثّله سيرك أبي عصيّاً على القيادة، لكنّه واصل رحلته لبضع سنوات أخرى، إذ ظلّ لأفكار كلٍّ من أبي والكساندر، رغم فقدان زخمها، بعض التأثير. كان أبي والكساندر يحتقران المال:

«لا تسخر أبداً من الأثرياء،

فقد يحدث ذلك لك».

لكنّ أحداً لم يعد يصغي لهذا المثل الغجريّ الرائع، المفعم بالحسّ السليم. والأسوأ من ذلك أنّه بات يثير الابتسامات الساخرة. ومع ذلك فقد حظينا، نحن الشباب، بتربية استثنائيّة، فكان واقعنا اليوميّ مدرسةً رائعة لتعلّم الحياة، إلى أن جاء اليوم الذي وُضع فيه كلّ شيء موضع السؤال، باسم التقدّم.

كان والدي متعباً، وقد بدأ يشيخ، غير أنّه وافق على أن يدير مع أخيه السيرك الصيفيّ، أي السيرك غير المتنقّل. لكنّه لم يعد يريد الخيمة، حيث أراد أن يعهد بها إلى الشّباب.

وكالعادة ، كان لجوزيف رأي معاكس، غير أنّ العائلة كلّها وقفت

ضدّه. فاستسلم، للمرّة الأولى، مشترطاً أن يكون السيرك المتنقّل، أيْ الخيمة والمعدّات المتحرّكة والحيوانات، واسم السيرك، من نصيب أبنائه الأربعة فقط، بحيث لا تحصل بناته وأبناء إخوته وبناتهم على أيّ شيء. وانطلق السيرك بناءً على هذا الشرط.

أقام أبناء عمّي سيركاً كبيراً، ونظراً لأنّه لم يسبق لهم أن امتلكوا المال قطّ، ثمّ وجدوا أنفسهم بين عشية وضحاها يحوزون مبالغ طائلة، فإنّ ذلك لم يجعلهم أحسن حالاً، من وجهة نظري. فقد تهافتوا على كلّ ضروب التفاهة التي يقدّمها المجتمع. وبعد وفاة الكساندر بعشرين عامًا، باتت عائلتي كلّها تقريباً تقدّس المال. صار عِجلها الذهبيّ، أمّا أمثالنا الرائعة، فقد أُلقيت في سلّة المهملات بحجّة أنّ علينا أن نكون حديثين، وهذا يعني أن نستهلك ونغتني.

أردتُ أن ألتحق بأبناء عمّي، لكنّ أبي لم يرغب في ذلك، فهذا لم يكن يتّفق مع فكرته عن الحياة. كان كثيراً ما يقول: «لا يتطلّب الأمر الكثير من أجل أن يكون المرء سعيداً». وأتذكّر أنّ المسؤول عن الاسطبل، الذي كان يعرف العائلة، أخذ يصف ذات يوم الإخوة الأربعة، وعندما وصل إلى أبي، أصختُ السمع: «لو لم يكن فيرمان مع إخوته، لظلّ في كرافان خشبيّ صغير يجرّه حصان، والدبّ مربوط في الخلف بسلسلة، متنقّلاً من قرية إلى أخرى لِيقدّم عرضاً صغيراً مع زوجته وأولاده». كان الرجل مصيباً، فكثيراً ما ردّد أبي المثل الغجريّ القائل:

«الإنسان أشرس من النّمر،

نعطي النّمر عشرة كيلوات من اللحم فيُتخم،

أمّا الإنسان، نكسوه بالذهب، فيطلب المزيد.»

*

كان أبناء عمّي في جولةٍ لسيركهم الكبير، وأنا وأختي في باريس، لا نفعل شيئًا. وذات يوم، عَرضت علينا وكالةٌ فنيّة أن نقدّم عروضنا في قاعات الموسيقى والملاهي الليليّة. لم يكن لدينا أدنى فكرة عمّا يمكن أن تكون عليه قاعة الموسيقى أو الملهى الليليّ.

قدّمتُ فقرة حركات التوازن في الجزء الأول من عروض فنيّة عديدة. أتذكّر المغنيّة بربارا التي لم أحبُب هيئتها ولا أغانيها. لكنّي، بعد بضع سنوات، قدّرتها حقّ قدرها. كما تبادلتُ بضع كلمات مع داليدا، وعندما علمت فيما بعد أنها انتحرت لم أُفاجأ بذلك.

بعد العروض في قاعات الموسيقى الباريسيّة، غادرت أنا وأختي إلى بروكسل. كانوا قد تعاقدوا معنا للعمل في قاعة موسيقى تسمّى L'Anci-enne Belgique، أجواؤها غريبة ولكن لطيفة. كانت أختي تؤدي عرض المشي على الحبْل، وأنا عرض التوازن على السلّم الحر، مفتتحين حفلَ المغنّي ميشيل بولناريف. كنت أنا وأختي نشهد جميع حفلاته، ليس من أجل سماعه يغنّي، بل لمشاهدة «التمثيليّة» التي كانت تؤدّيها صديقات العازفين في فرقته، حيث يختلطن بالجمهور ما إنْ يظهر على خشبة المسرح، ثم يرمين أنفسهن عليه وهن يصرخن ويتظاهرن بفقدان الوعي أو بتمزيق شعورهن. كان ميشيل بولناريف قد طلب من أختي الانضمام إلى معجباته الهستيريّات المُفترضات، لكنّها رفضت بأدب.

بعد بلجيكا، عُرض علينا عقدان للعمل في سويسرا. كنّا بعيدين عن أجواء L'Ancienne Belgique حيث قضينا وقتًا ممتعًا. في الملهى الأول، ومنذ اليوم الأول، عرفت أنها ستكون آخر مرة أقدّم فيها عرضاً في هذا النوع من الأمكنة.

كان الملهى مريعاً. كنّا ندلف إلى قاعةٍ خافتة الإضاءة، تغمرها سحابة من دخان، حيث ضُبطت أجهزة الصوت على أعلى درجة، وجميع الزبائن تقريباً غارقون في الكحول. وحدهن المومسات الحاضرات في القاعة، كنّ يحتفظن بعدُ بشيءٍ من الإنسانية.

نظرات الإعجاب

كنت في السّابعة عشرة. كانت نادلة جميلة تقف خلف منضدة الشّراب في حانة الملهى. كنا نتبادل نظرات الإعجاب. ولم أكن أعرف أنّها صاحبة ربّ العمل. لاحظ الرجل الإعجابَ المتبادل بيننا، فأغاظه ذلك كثيراً. في إحدى الليالي، قبل الإغلاق بقليل، كنت أبدّل ملابسي في غرفة الملابس مع الفنّانين عندما جاءني نادلٌ ليحذّرني من أنّ خمسة رجال أو ستّة مسلّحين بالأسواط كانوا ينتظرونني.

كانت علاقتي جيّدة مع جميع الفنّانين في ذلك الملهى باستثناء واحد. كان سوقيّاً جدّاً ، قذر اللسان، لا يستطيع قول جملتين دون أن يضمنّهما كلمةً فاحشة. وكنت الوحيد الذي يتكلّم معه، فلا أحد كان يتوّجه إليه بالحديث. عندما خرجت، لحق بي، وحين بلغتُ الرصيف، تقدّمني وهو يصرخ : «أوّل من يجرؤ على لمس الصّبيّ، سيكون في عداد الأموات»! فتراجع صاحب الملهى والحرّاس عن نيّتهم، وتركوني بسلام.

لم يفعل الفنّانون الذين كانوا يسمّون أنفسهم أصدقائي أيّ شيء للدفاع عني، لكنّ ذلك الرجل الذي لم يكن يحبّه أحد خاطرَ بالوقوف بين المتوحشين وبيني. منذ هذه القصة، بتّ أعلم أنه ينبغي ألّا تثق بالمظاهر أو أن تصدر حكمًا نهائيّاً على أيّ شخص.

في هذين الملهيين، كنا نقدّم عروضنا بين منتصف الليل والثالثة صباحًا. لم يكن المتفرّجون يأتون لمشاهدة العروض بل لرؤية الفتيات. وجدنا نفسينا، نحن اللذيْن اعتادا العيش كأسرة واحدة في سيرك، أيْ في قريةٍ يعرف فيها الجميعُ الجميعَ ويتحدّثون إلى بعضهم بعضاً، في مدينة كبيرةٍ لا نعرف فيها أحداً، ننتظر من الصباح حتّى المساء لحظة تقديم عرضنا. فانتابنا الشعور بأنّنا قد هُجرنا.

كانت أختي هي الأخرى غير راغبة في الاستمرار في الملهى. وحين أعيدُ التفكير في تلك اللحظة من حياتي، أقول لنفسي إنّنا كنّا ساذجيْن سذاجةً لا تُصدّق. فما دام الملهى لم يعجبنا ، وهذا ليس بالقليل، فلماذا احترمنا عقدنا؟ لماذا لم نعد فوراً إلى فرنسا؟ لا أعتقد أنّ هذا قد خطر ببالنا حتّى. كنّا قد وقّعنا عقداً فاحترمناه. ولكن ما إنْ انتهى التزامنا، حتّى عدنا إلى فرنسا، وكانت المفاجأة السّارةُ أنّ عقداً قدّم لنا للمشاركة في جولة لسيرك كني Knie[1]. فذهبنا إلى سويسرا مع والدي وفيوليت. وباستثناء ثلاثة أشخاص منفّرين أو أربعة في ذلك السيرك الكبير، لم يكن هناك سوى أشخاص طيّبين، فاستعدنا أخيرًا روح القرية.

تصرّف والدي رغم ذلك بغرابة في هذه المسألة. لم يكن ضدّ الذهاب في جولة السيرك؛ ما لم يكن يريده هو الذهاب في جولة سيركٍ مع أبناء عمّنا. كان يقول عن أبناء أخيه الأربعة: «هناك اثنان منهما ينبغي تجنبّهما تماماً».

---

(1) أكبر سيرك في سويسرا، ومقرّه رابرسفيل. أسّسته عائلة Knie عام 1803.يضمّ اليوم حوالي مئتي عامل.(المترجم)

المُهتاج

كانت مشاركتي في ذلك السيرك السويسريّ الكبير مناسبةً لتعلّم درسٍ لم أنسه. كان فريدي كني، صاحب السيرك، يعرض على الحلبة حوالي عشرين حصانًا رائعًا من سلالة ليبيزان. ولكن، قبل عرضه مباشرة، كان هناك فقرة لفنّان إسبانيّ أطلق على نفسه اسم «مجنون البكَرة». لم يكن راضياً عن وجوده في ذلك السيرك وكان يفعل كلّ ما في وسعه لكي يُطرد. ففي نظره ، كان ذلك سيركًا ألمانيًا، ولمّا كان يكره الألمان، فقد كان وقحًا تجاه السيرك وسويسرا. وكان كلّما غادر الحلبة، قابَل فريدي كيني لحظة دخوله مع خيوله، فشتمه أو تلفّظ بفظاعات عن السيرك أو البلد.

كان فريدي يتظاهر بأنّه لا يسمع، واستمرّ هذا الحال طيلة الجولة كلّها. كنت مدهوشًا على الدوام من غياب ردّة فعله، وكنت أتحرّق لسؤاله لماذا لم يكن يبدو عليه أيّ تأثر. في اليوم الأخير من الجولة، ذهبت إليه لأِسأله عن سبب تغاضيه عن الإهانة لمدّة ثمانية أشهر. وأذكر أنّني قلت له: «لو أن هذا الرجل قال في سيرك أبي ما قاله لك، لَنالَ صفعة قوية وكان نصيبه الطرد». لكنّ إجابة فريدي كنِي كانت مثاليّة. سألني عن رأيي في الفقرة التي يؤدّيها الرجل، فقلت إنّ فقرته استثنائية. قال فريدي كيني: «أصبت يا بُنيّ. هل لاحظت ما يلقى من نجاح ؟» أجبته بأنّني لاحظت ذلك، فقال: «حسنًا، إنّني أقدّم جودة عَرضي على كلّ ما سواها». كان يقدّم جمهوره على نفسه، إنّه درسٌ جيّد لم أنسه قطّ.

أكثر من جميلة

خلال الجولة في سويسرا، وقعتُ في حبّ امرأة من زيوريخ؛ شقراء جميلة، بعينين زرقاوين واسعتين. بقينا في مدينتها بضعة أيام، ثم رحل السيرك. لم أكن أملك رخصة قيادة لأنّني كنت في السابعة عشرة من عمري فقط، ولا سيّارة ، فاستعرتُ واحدة. كنت ما إنْ يقيّض لي وقتُ فراغٍ حتّى أقود السيارة وأمضي للقائها في زيوريخ، فنجلس على مقعدٍ أو على رصيف مقهى لنتحدّث، أو نتجوّل يداً بيد في المدينة. ولم يكن بيننا ما يتعدّى ذلك.

في ذلك اليوم، لم يكن هناك عرض في السيرك، فذهبت للقائها ودعوتها إلى المطعم. كانت تعمل في النّهار بائعةً في متجر للعطور؛ فما من شيء يثير القلق. أخبرتني في أثناء العشاء، بتردّد، أنّها تنوي التوقّف عن بيع العطور، لأنّها دخلت مجال صور الأزياء. فلم أُخْفِ عنها ما نعتقده في قبيلتي بشأن الموضة. لم تفهم ما كنت أرمي إليه، فقلت لها: ليس بالأمر بالغ الخطورة أن تُلتقط لك الصور من أجل عرض الأزياء، ولكنْ بما أنّك جميلة، بل وأكثر من جميلة، فإنّك لا تعرفين إلى أين يمكن أن يقودك هذه الأمر، وقد تدفعين الثمن غالياً.

كان الوقت متأخّراً، فغادرنا المطعم ورافقتُها إلى منزلها. توقّفَت وقالت لي: «هذه الأمسية هي أمسيتنا الأخيرة معًا، لأنّني قابلت شابّاً»،

وأضافت كما لو كانت تعتذر: «إنْ كان هذا سيريحك، فَلْتعلَم أنّه يشبهك كثيراً».

كنّا على جسر، والظلام مخيّم، لا نكاد نتبيّن شيئاً. فار الدم في عروقي، وفي سَوْرة غضب، أمسكتها من خصرها وألقيتها في البحيرة. لكنّني، وقد أصبت بالذّعر، غُصت وراءها لأنتشلها من الماء، وبما أنّني لا أجيد العوم، فقد كنت أنا من كاد يغرق وكانت هي من أخرجني من الماء.

لم نلتقِ ثانيةً أبداً، كنت أحبّها كثيرًا.

*

كنت في السابعة عشرة. وكانت تلك السّنة التي قضيتها في سيرك كِني مع والدتي وأختي وأبي واحدة من أجمل سنيّ حياتي.

بعد الجولة، تزوّجتْ أختي من ابن مدير سيرك، أمّا أنا، فقد عدت إلى باريس وأنا لا أدري ماذا سأفعل. كنت أعرف أن سيرك كِني فريد من نوعه، وقد قضينا فيه أنا وأختي وقتًا رائعًا، لكنّني كنت أطرح على نفسي الكثير من الأسئلة. لم يكن يغريني الانخراط مرة أخرى في أيّ سيرك، خاصّة وأنّها ليست كلّها جيدة. كان صديقي ميشيل نوواك يؤدّي عرضاً رائعاً في الساحات العامة مع أنطوانيت. التقيت به في الشارع: «ماذا تفعل؟» -غادرتُ سيركاً، لكنّني لا أرغب حقّاً في الالتحاق بآخر، خاصة بعد سيرك كِني.

فقال لي ميشيل: «لم لا تفعل مثل جدّك، رجلُ الدُّببة؟ كان يؤدّي عرضه في الشارع، ويبدو أن ذلك كان جيّداً، حسبما سمعت». أدركتُ أنني كنت غبيّاً بعض الشيء، لأنّني لم أفكر في ذلك من قبل، وبدا لي واضحاً أنّ ذلك ما كان ينبغي فعله.

تُحسن المصادفات أحياناً تدبير الأمور. كان صديقي ماركي في باريس، فقلت له: «الليلة، سأؤدّي لأوّل مرة عرضاً في الشارع.»

- «سآتي معك، سأقدّم بعض الألعاب البهلوانية وتؤدّي أنت عرض السلّم الحرّ. سيكون من الأسهل لك أن نفعل ذلك معاً.»

قدّمنا لمدّة أسبوعين عرضًا بسيطًا. كانت الأمور تسير سيراً حسناً، لكنّ ماركي عاد إلى سيرك في إسبانيا ملتحقاً بعائلته، وواصلت أنا العرض في الشارع وحدي.

كان الشارع مدرسة استثنائيةً بالنسبة لي، فقد كنت ألتقي كلّ يوم أشخاصاً مختلفين ومثيرين للاهتمام. رافقت مرّة أحد الأصدقاء إلى موقعٍ لتصوير أحد الأفلام، إذ لم يكن لديّ ما يشغلني. عندما رآني المخرج، رجاني أن أشارك في فيلمه، حيث كان ينقصه ممثّل. لم أكن أرغب في ذلك، لكنّني قبلت في النهاية. أراد مدير الممثّلين أن يضمّني إلى فريقه، وعندما سألته عن الدور الذي يراه مناسباً لي، فاجأني بقوله: سأعطيك كلّ الأدوار: مفوّض الشرطة، والقسّيس، والراهب.

تخلّف عقليّ شديد

في سنّ الثامنة عشرة، تلقيّت استدعاءً من أجل إجراء فحص طبيّ، مثل جميع الأولاد في عمري، لمعرفة ما إذا كنت لائقًا لأداء الخدمة العسكريّة. سألني والدي إنْ كنت أرغب في قضاء عامٍ لا أفعل فيه شيئاً، مرتدياً الزيّ العسكري، في الثكنات مع عساكر وأطفال يبلغون من العمر ثمانية عشر عامًا. كانت الطريقة التي عرض بها الأمر تنطوي على توجيه مسبق، ولكن لم يكن ذلك ضروريًا، فقد أجبته دون تردّدٍ أنني لا أرغب في ذلك.

عثر والدي على طبيبٍ باعه ملفّاً طبيًا يشهد فيه أنّني أعاني من تخلّف عقلي شديد. أعطاني الطبيب زجاجة صغيرة قبل الفحص مباشرة، وطلب منّي أن أشرب منها ملعقة صغيرة لا أكثر. لم أكن مطْمئناً على الرغم من ملفّي الطبيّ والمادة التي كان يجب أن أشربها لكي أكون في حالة من الهياج. قلت لنفسي، يكفي أن أقع على طبيب عسكريّ ليس على قدر كبيرٍ من الغباء، كي يَكتشفَ أن ملفّي مزوّر، ومن يدري إن كانوا لن يجنّدوني ساعتها؟

كنّا حوالي مئتيْ شخص على الأرجح، مصطفّين في ساحةٍ تحت المطر. بدأ صبر العسكري الذي كان يصدر الأوامر ينفد: «ما دمتم تهرّجون، فلن تدخلوا المبنى». كنا مبلّلين حتّى الغرق، والخبثاء الصغار لا يكفون عن

العبث. وقد فاجأني أنّي وجدت نفسي أشعر بالتضامن مع العسكريّ أكثر من الشباب. بعد أن أمضوا وقتا طويلاً تحت المطر، هدأوا أخيرًا ودخلنا مبنى الفحص الطبيّ.

كنّا نقف في صفٍّ واحد وكان علينا أن نمرّ على خمسة أطباء عسكريّين أو ستّة. حين صرت أمامهم، لم أكد أقدر على الوقوف على قدميّ، ذلك لأنّني بدلاً من أنْ أشرب بضع قطرات من الزجاجة، وخوفًا من أن يجنّدوني، شربتها كلّها. كنت أحسُّ بنبضات قلبي في صدري. طلبوا مني أن أنفخ في أنبوب، فلم أستطع، ووجدت مشقّة في الكلام. شعرت كأنّما يغمرني ضباب كثيف وسمعتُ على نحو مبهم طبيباً يقول: «أنت هناك! أخرج من الصفّ، أنت مُعفى.» رأيت شابّاً يرتدي زيّ امرأة يتقدّم. كان يرتدي تنّورة وقميصاً جميلاً، مع تسريحة شعر معقّدة، وحذاء بكعب عالٍ.

جنّ جنوني، وقلت لنفسي: كان يكفي أن أجيء مرتدياً زيّ امرأة كي أُعفى من الخدمة.

فَعل هذا طيلة حياته

سألت الطبيب في نهاية الفحص الطبيّ، كي أطمئنّ أخيراً على مصيري، عن رأيه في ملفّي الطبيّ، فقال: «سواء كنتَ بصحة جيّدة أم لا، لن يغيّر هذا في الأمر شيئاً، لأنّنا لا نحتفظ هنا بالغجر». خرجت من الثكنة بقلبٍ خفيف. كان الجوّ جميلاً. صادفت في الشارع امرأة بين المارّة، ففكّرت: «ما أجمل المرأة!»

كنت أؤدّي منذ أشهر عرضاً في التوازن في شوارع باريس حين اتّصل بي والدي ليخبرني: «يجب أن تعود إلى السيرك، نحن بحاجة إليك. في فصل الشتاء، لدينا بعض السّباع ولكن ليس لدينا مروّض. ففكّرت أنا وأخي بك». فعدت إلى السيرك، كيلا أردّ لأبي طلبا.

كان عرض الأُسود هذا، ينبىء بأنه سيكون سيئاً، وذلك لمجموعة من الأسباب عميقة الجذور.

كان لجدّي وجدتي سيركٌ صغير، وكانا يتمتّعان بمزايا عظيمة، غير أنّه لولا ابنهما البكر الكساندر لما أمكن العائلة أن تنشىء سيركاً كبيراً أبدا. حين بلغ الكساندر الخامسة عشرة من عمره، تولّى زمام الأمور، لكنّه واجه صعوبة لم يتمكن أبدًا من حلّها. فقد وافقت العائلة على أن يقودها، ما عدا جوزيف الذي كان يعترض، غالباً بغيرِ وجه حقّ، على معظم القرارات التي يتّخذها شقيقه.

كان الكساندر ذكيّاً ذكاء لافتاً، والشيء الوحيد الذي قد ألومه عليه هو أنّه كان طموحاً. وكان والدي ذكيّاً ذكاء لافتاً هو أيضاً، لكن ليس لديّ ما ألومه عليه؛ ذلك أن طموحه، على عكس الكساندر، كان محدودًا. وعندما بدأتُ في وقت متأخّر من حياتي أقرأ الفلاسفة السابقين على سقراط أحببتهم حقًّا، لأنّي رأيت فيهم رجالاً من طينة أبي وإخوته.

قد يبدو أن هذا التاريخ الموجز يبتعد بنا عن عرض الأسود الذي كان يفترض أن أقوم به، لكنّ الأمر ليس كذلك أبدا. فبعد وفاة الكسندر، أُطلِقت يدُ جوزيف أخيراً ليضع جميع أفكاره السيّئة موضع التنفيذ. كان أبي مقتِصدًا، لا ينفق الكثير. ذات يوم، تجرأت على لومه على ذلك، فكان جوابه جواباً مثاليّاً: «يا بنيّ، لقد عانيت كثيراً في كسب المال الذي أملك، بحيث أنّني لا أجد متعةً في إنفاقه».

وكان جوزيف مبذّراً، لكنّه لم ينفق أي شيء على السيرك. كنّا على أبواب فصل الشتاء، ولولا علاقة أبي المؤلمة مع المال وأنانيّة جوزيف، لما كنت وضعت قدمي أبداً في قفص مع أسود عصيّة على الترويض. كان والدي قد قال، بعد طول تردّد: «يجب أن نشتريَ ثمانية أشبالٍ صغيرة أو عشرة». ولكنّ لأسباب تتعلّق بالتوفير، وقد أصفها بأنّها مثيرة للشفقة، اشترينا خمسة. ومرّة أخرى اتّخذ جوزيف القرار الخاطئ، حيث أضاف ثلاثة أسود بالغة، ما من مروّض قد يرغب في اقتنائها.

ريشةُ هندّي

روى لي أبي أنّ والده كان يلومه في شبابه على تقديم عرضه مع الأسود وهو يرتدي بذلةً عاديّة. كان يقول له: «عليك أن تبذل قليلاً من الجهد». ولكثرة ما تلقّى من لوم، اشترى باروكةً بريشة هنديٍّ أحمر، بات يحتفظ بها على الدوام في جيب سترته.

وقبل الدخول إلى حلبة السيرك بقليل، ودون أن يبدّل بذلته، كان يعتمر الباروكة ذات الريشة. وقد هنّأه جدّي على ذلك قائلاً: «أحسنت يا ولدي، ها أنت ترتدي أخيراً زيّاً مناسباً لأداء عرضك». أمّا والدي، فقال لي: «لا بدّ أنّني كنت سخيفاً وسط الأسود، ببذلتي وباروكتي وريشتي الهنديّة». على ما يبدو، لم أكن أنا وأبي نرى ما يراه جدّي.

كان جدّي قد أدخل الكساندر، ابنه البكر، إلى القفص بين السّباع، لكنّه لم يؤدّ العرض لفترة طويلة ويبدو أنه كان خائفًا. لذلك أدخل جدّي ابنه الثاني جوزيف في القفص مع السّباع، لكنّه هو من أخرجه، وكان يقول: «إنه يبدو كالأحمق بين الأُسود. سوف تلتهمه». ولعدم وجود مروّض، أدخل جدّي أبي في القفص مع الأسود، وكان حينها في الثانية عشرة من عمره.

بـدون مقابـل

كلّ يوم أربعاء على باب السيرك، كنْت أدخل عشرات الأطفال من أولادٍ وبنات، دون مقابلٍ، ليشاهدوا العرض. ليس الأطفال نفسهم دائماً، لكنّ الصغير جان-جاك كان حاضراً كلّ يوم أربعاء. ولكثرة ما رأيته يدخل مع الآخرين، أثار انتباهي. كان والده من ساحل العاج وأمّه من المارتينيك. وكان عمره سبع سنوات أو ثماني. ذات يوم، طلب مني أنْ أدرّبه على عرض المشي على حبل مشدود. وصار يأتي راكضاً إلى السيرك فور خروجه من المدرسة من أجل المشاركة في التدريبات.

وقد أحرز تقدّماً سريعاً بفضل موهبته، فكنت أنجح في جعله يؤدّي أشكالاً ورقصات بالغة الصّعوبة. وفوق ذلك، كان لديه الأناقة التي يتمتّع بها الأفارقة غالباً. كان ما يؤديّه جميلاً جدًا.

ماضٍ ثقيل

كان والدي قد اجتهد في طمأنتي قدر المستطاع قائلاً: «ليست السّباع بالأمر الجديد عليك، فقد نشأتَ في معرِض الوحوش، وسأكون دائماً بالقرب من القفص، قريباً منك بما يكفي للتدخّل إنْ هاجَمَتك».

لم أُجبه، لكنّي قلت له في سِرّي: «يا أبي، ثمّة فرق كبير بين السّباع التي تكون أمامك، لكنّها خلف القضبان، والسّباع التي تكون أمامك بدون قضبان». دخلتُ القفص مع الأشبال الصغار، ومع الأسود الثلاثة الكبيرة التي لم يكن يريدها أحدٌ بسبب ماضيها الثقيل. كانوا يسمّونها «أصحاب السوابق».

كانت هذه قد أفسدت ثلاثةَ عروض. ففي واحد منها، مزّقت عضلة ساعدِ المروّض، وفي عرض آخر قتلت مروّضاً، وتسبّبت بالكثير من المشكلات في عرضٍ ثالث، ما دفع المروّض الذي سئم منها إلى إنهاء مسيرته المهنيّة. وقد نقلَ لي أشخاصٌ عديدون أنّ والدي قال لهم حين دخلتُ القفص، وهو الذي لم يُثنِ عليّ يوماً:

«لكأنّ ابني قد فعل هذا طيلة حياته».

في الأيّام الأولى، كان أبي يدخل القفص معي. كان يمسك شاعوباً في يدٍ ومسدّساً في اليد الأخرى، وأمسك أنا أيضًا شاعوباً في يد وفي اليد

الأخرى كرسيّاً طلب منّي أبي أن أحمله من المسند. ولمن يعرف القليل عن الأسود، فإنّ الكرسيّ وسيلة ناجعة بقدر الشاعوب في صدّ الأسد الذي يهاجمك. أجريت، ووالدي إلى جانبي، بعض التدريبات، ثمّ ارتأى أنّه صار بوسعي الدخول إلى القفص بمفردي.

وجدت نفسي لأوّل مرة في حياتي وحيداً أمام الأسود. كان انفعالي شديداً ولكن ما كان ليخطر لي أن أعارض إرادة والدي، فقد كنت أثق به كلّ الثّقة. وكان شرح لي قبل دخولي القفص طبيعة كلّ واحدٍ من الأسود.

عَرَضُ والدتها

شهدتُ حوادث عديدة في السيرك. أتذكّرُ لاعبة أرجوحةٍ قرّرت بسبب تقدّمها في السنّ التوقّف عن أداء عرضها. وكان لتلك المرأة ابنة وحيدة، كانت تردّد منذ فترة طويلة: «عندما تتوقّف والدتي، سأؤدي بالضبط العرض ذاته»، فتقول والدتها: «سيكون استئناف عرضي خطأً عظيماً لأنّه خطير للغاية. لقد سقطتُ ثلاث مرّات، وإنّها لمعجزة أنّني مازلت على قيد الحياة».

كانت ابنتها تناهز العشرين من عمرها. أخذت، مخالِفةً رأي والدتها ونصيحة لاعبي أرجوحةٍ آخرين، تقدّم العرض الذي كانت تؤدّيه والدتها.

ذات مساء، رأيتها تسقط من الأرجوحة، لكنّها وجدت في نفسها من القوة ما مكنّها من النهوض. وخرجت من الحلبة تكسوها الدماء، وتمدّدت وراء الستار على سجّادة البهلوانات. جاءت والدتها راكضة، ولفظت الشابّة أنفاسها الأخيرة بين ذراعي أمّها.

وأتذكّر كذلك سقوط لاعبة أرجوحةٍ أخرى، لم تمُت لكنّها نزفت الكثير من الدماء، فحَمَلها إخوتها إلى أقرب كرافان، خلف الخيمة، وسمعت صوت بهلوان الحركات الالتوائية يصرخ: «لا، ليس في كرافاني! إنّها تنزف الكثير من الدماء، فلترحموا سجّادتي»! لقد رأيت الكثير من الحوادث، لكن هذين الحادثين تركا في نفسي أثراً أكثر من غيرهما.

غير أنّ أغلب الحوادث تقع مع السّباع. فمؤخّراً، هاجم نمر في سيرك مروّضاً شاباً، فركض والده الذي كان خارج القفص إلى كرافانه باحثاً عن بندقيّته، ولكن بسبب انفعاله، كانت يداه ترتعشان بشدّة حتّى أنّه لم يستطع أن يُلقم البندقية الرصاصة، فافتُرس ابنه أمام عينيه. وكما كان يقول والدي، فإنّه يظلّ من الغريب أن يرغب المرء في حبس نفسه في قفص مع قتَلَة.

أدّى والدي طيلة حياته عروضاً مع السّباع. بدأ ذلك طفلاً ودخل القفص أيضاً قبل وفاته بفترة قصيرة. وفي الأربعين من عمره، أدّى عرضاً مع ثلاثة عشر نمراً، وفي تلك السّنة، لم يواجه الكثير من المواقف الخطرة، فدفعه ذلك إلى الظنّ بأن الرقم ثلاثة عشر يجلب له الحظّ، إلى أن جاء اليوم الذي هاجمه فيه أحد النّمور، فقضى عدّة أشهر في المستشفى بين الحياة والموت.

مستنداً بظهري إلى القضبان

في واحدة من المرّات الأولى التي دخلت فيها الحلبة مع أسودي، انقطع التيّار الكهربائي، فتذكّرت على الفور، في العتمة وبين الأسود، ما وقع لأحد المروّضين. كان قد وجد نفسه مثلي بين السّباع في الظلام، وحين عاد النّور، كان يرقد في بركة من الدماء. استندتُ إلى قضبان القفص، لأن الخروج منه كان يعني المجازفة بأن تخرج الأسود معي. لم يكن بوسعي أن أفعل إلّا شيئاً واحداً: الانتظار حتّى يعود النّور، على أمل ألّا يستمر انقطاع التيار طويلاً وأن تظلّ الأسود هادئة.

كنت أعرف أنّ الأسود والنّمور حيوانات شديدة الخطورة، لها الذكاء نفسه والقوة نفسها، لكنّني لم أكن أعرف أكثر من ذلك. كان والدي قد شرح لي الفرق بين النوعين، فأدركت لماذا يؤدي معظم مروّضي السّباع عروضهم مع النّمور؛ ذلك أنّه حين يريد الأسدُ اللبوة، يصاب بالجنون، بالعكس من النّمر.

حديقة الحيوانات الخربة

كنت قد ذهبت إلى جنوب فرنسا، كي أقضي بضعة أيّامٍ مع جيلبير هوك[1]، الذي أمضى حياته مثل والدي مع النّمور. أكدّ لي الرجل كلّ ما أخبرني به أبي، وقبل أن نفترق، روى لي القصّة التالية التي عاشها مع والدي.

مع نهاية الحرب، دُمّرت حديقةٌ للحيوانات في ألمانيا بالقنابل، فاضطرّ القائمون عليها إلى بيع نمورهم جميعها. كان والدي هناك لحظة وصول جيلبير هوك. كان الرجلان على سابق معرفة ببعضهما فقرّرا، تجنّباً لإثارة مشكلة، أنْ يتقاسما مجموعة النمور مناصفةً، فحصل كلّ واحد منهما على خمسة عشر نمراً. ولّما كان الوقت متأخراً، فقد انطلقا معًا بحثًا عن مكان يبيتان فيه.

طلبا غرفتين في الفندق الوحيد الذي كان لا يزال قائماً في المدينة، ولكن لم يكن قد تبقّى سوى غرفة واحدة، بسرير واحدٍ كبير.

حجزا الغرفة وذهبا للنوم، لكنّهما اندسّا تحت الأغطية والبطانيّات

---

(1) Gilbert Houcke: (1918-1984) ، ينحدر من عائلة اشتهرت بتربية الخيول لكنّه تحوّل مبكراً إلى ترويض النمور. يعدّه كثيرون أعظم مروّض نمور في جميع العصور. كان نجما بارزاً في عالم السيرك في أوروبا من منتصف الأربعينيات حتى عام 1971 .(المترجم)

بملابسهما، بالقميص والبنطال والسترة ، والمضحك في القصّة أنهما ناما بأحذيتهما أيضاً.

في نهاية حياته، أصيب جيلبير هوك بالشّلل في نصفه الأيمن كاملاً. كان يعيش في جنوب فرنسا مع زوجة عسكريّ. أخذتُ سيارتي وأمضيت بضعة أيام معهما. وقد وصفت له علاجاً غجريّاً، وبعد خمسة أيام من العلاج، بدأ يحرّك أصابع يده المشلولة منذ فترة طويلة، وبما أنني اضطررت للعودة إلى باريس، فقد طلبت منه أن يستمر في اتّباع الوصفة لقناعتي بأنّه سيتعافى. لكنّي لا أعرف ما جرى بينه وبين تلك المرأة، فما كدت أغادرهما حتّى أوقفَت العلاج.

اتّصل بي بعدها بثمانية أيام ليخبرني: «لقد شُلّت أصابعي مرّة أخرى». هل أرادت تلك المرأة أن تبقيه تحت جناحها؟ أم أنها كانت من الغباء بحيث لم تستطع رؤية التغيير؟

توفّي جيلبير هوك بعد بضعة أشهر. كان صديقي.

الاتّهام يبدّل مُعسكره

في جادّات الماريشو في باريس، تجاوزتني سيّارة كانت تنطلق بسرعة كبيرة. على بعد مئتي متر، رأيت حشداً حول رجل عجوز ممدّدٍ على الأرض، وعلى بعد أمتار قليلة منه، تبيّنتُ السيّارة التي كانت تسير بسرعة مفرطة، فتوقّفت لمعرفة إنْ كان بوسعي أن أفعل شيئاً.

اقتربتُ من المجموعة الهائجة التي كانت تعبّر عن غضبها على سائق السيارة. حين رآني، بدأ السائق يصرخ مشيرًا إليّ: «ألا تخجل من القيادة بهذه السرعة؟ انظر إلى هذا الرجل المسكين الذي صدمته. بوسعك أن تفخر بنفسك»! أدركت أنه قد يؤلّب عليّ الحشد الذي لم ير شيئًا على الأرجح، لذلك شرعتُ بالصراخ عليه وشتْمِه كي يبدّل الاتّهام معسكره. كان عدد الناس يتزايد، وأصواتهم تعلو، فانتهزت الفرصة لأترك الجمع خلسةً، وبدون أن ألفت الانتباه إليّ، صعدتُ إلى سيارتي ووليّت هارباً.

سبق لي أن عشت هذا النوع من القصص. كنت في الثانية عشرة من عمري، وأختي جيبسي في الخامسة عشرة. كنّا خارجيْن من قاعة التمرينات بالقرب من ساحة بيغال في باريس، حيث كانت تنتشر بائعات الهوى آنذاك. أوقفَنا رجال الشرطة قائلين: «ماذا تفعلان هنا وأنتما في هذه السنّ؟ ولماذا لستما في المدرسة»؟ وتجمّع حشدٌ من الناس حولنا.

كان الناس يتحدّثون إلى رجال الشرطة واستمرّ ذلك طويلاً. أخذَتني أختي من يدي خلسةً، وخرجنا من بين الحشد، وابتعدنا حريصيْن على أن لا يلحظنا أحد. حين صرنا على بعد حوالي ثلاثين مترًا من الشرطة والحشد، ركضنا هاربين.

لا ملامة

حين كان ابن عمّي رولان يتدّرب مع نموره، كان يتّصل بي لمساعدته. كانت النمور تمرّ عبر نفق طويل من القضبان، يتكوّن من عدة قطعٍ طولُ الواحدة ثلاثة أمتار، رُبطت إلى بعضها بعضاً. فتحتُ باب النفق كي تدخل النمور إلى الحلبة، فدخلت جميعها إلّا واحداً. رميت له قطعاً صغيرة من اللحم لأشجّعَه على التقدم، لكنه استدار في منتصف النفق ليعود إلى العربة-القفص. ولما كان النّفق ضيّقاً، ولم تُربط في ذلك اليوم أجزاء النفق بعضها إلى بعضٍ بسبب الإهمال، بات النّمر خارج النّفق. كان رأسه على بعد خمسين سنتيمتراً من رأسي، وكانت يداي فارغتيْن.

صاح ابن عمي: «لا تتحرّك، إنّه فاتك!» وخرج من القفص راكضاً ليتصدّى للنّمر. ولكي يسرع أكثر قفز من فوق السياج الذي يحيط بالقفص، لكنّه أخطأ فسقط بساقين منفرجتيْن على السيّاج، ما سبّب له، والرجال يعرفون عمّ أتحدّث، ألماً يعادل خمسمئة لسعةِ دبّور. لبثتُ مشلولاً في مواجهة النمر، وعندما رأيت ابن عمي ملقىً على الأرض، يتلوّى من الألم، تسنّى لي من حضور الذهن ما مكّنني من إعادة وضع قطعة النفق بالاتّجاه الصحيح، لأمنع النّمر من الهرب.

كان ابن عمي رولان، مثل أبي، مدير سيركٍ ومروّضاً طوال حياته، ومثله أيضاً، تعرّض لحوادث كثيرة. ذات يوم، هاجمته جميع سباعه في آن معاً، ولمّا لم يكن لديه الوقت للوصول إلى باب الخروج، فقد تسلّق سياج

القفص ولكن قبل وصوله إلى القمّة، أمسك به أسدٌ من ساقه وأسقطه في القفص قاطعاً أحد شرايينه. لحسن حظّه، كان السيرك منصوباً أمام مستشفى، وكان ثمّة طبيبٌ في الخيمة.

نادراً ما شعرت بالخوف؛ أقول نادراً لأنّ بوسعي القول إنّني ارتكبت خلال تقديم فقرتي مع الأسود بعض الحماقات. وكما يقال، فقد حدث أن وجدت نفسي عالقاً في المصْيدة. فعلاوة على الخطر الذي يمثّله السّبع، كان لديّ هوسٌ مؤسف بإجراء التجارب. وكادت بعض تلك التجارب أن تكلّفني حياتي. أتذكّر لاعبَ أرجوحة كان يأتي إلى جميع العروض لمشاهدة فقرتي. عندما سألته عن السبب، قال: «عاجلاً أم آجلاً، سوف تفترسك أسودك، ولا أريد أن يفوتني ذلك».

كنت سألت والدي كيف أصنع لأجعل الأسود تمرّ من فوقي راكضة في ختام العرض، وأنا ممدّدٌ عند مدخل النفق، فأجابني: «ليس هناك ما تتدرّب عليه، عليك فقط أن تجرؤ على التمدّد أمام النفق، آملاً أن لا يتوقّف أيّ من الأسود فوقك، لأنّ الخطر سيكون عظيماً إنْ توقّف أحدها». منعني والدي من محاولة ذلك قائلاً: «في رأيي، فإنّ الأسد **إليوس** لن يمرّ.»

لم أكن قد أخبرت أبي بأيّ شيء، لكنّني تمدّدت بحذرٍ عند مدخل النفق لحظة كانت الأسود على وشك الخروج، ممسكاً بيدي عصا مطرقة، فاتّضح أنّ ما قاله أبي كان صحيحاً، إذ مرّت الأسود جميعها باستثناء **إليوس**.

عندما رأيته ينطلق نحوي، أدركت ولكن بعد فوات الأوان أنّه سيتوقّف فوقي، ليس من أجل أن يلعق يدي، بالطبْع. أردت النهوض بسرعة، لكنّ الأسد كان قد بات فوقي فعلاً، فلم تنفعني عصا المطرقة بشيء. كان والدي، لحسن الحظّ، عند مدخل النفق، فأدخل شاعوبه في فم الأسد. ولم يوجّه لي أيّ لوم.

الجميلةُ مشعلةُ الحرائقِ

حدث ذلك ذات أمسية شتائيّة. كنت في العشرين من عمري. كنت أسير في الشارع باحثاً عن مطعم فصادفتُ شابّةً سمراء في غاية الجمال. اقتربتُ منها، أنا الذي تنقصه الوقاحة ولم يسبق له أنْ تصرّف على هذا النحو قطّ، وسألتها إلى أين هي ذاهبة. أدهشها سؤالي، لكنّها ابتسمت لي ابتسامة عريضة وقالت: «أنا ذاهبة إلى المسرح للاستماع إلى الموسيقى، ولديّ تذكرتان، سأصطحبك إنْ أحببت». دعوتُها لتناول العشاء، وبعد المطعم، ذهبنا لحضور الحفل الموسيقيّ.

في نهاية الحفل، أمسكتُ يدَ الشابة وخرجنا من المسرح. أنهينا الأمسية جالسيْن على مقعد. ولن نفترق بعدها طيلة عشرين عامًا. كانت تلك ليدي داتاس Lydie Dattas التي أصبحت زوجتي، ثمّ بعد بضع سنوات، واحدةً من أعظم شعراء اللغة الفرنسيّة.

«سِرتُ في الثلج من غير أن أنال من جماله.»

«أحيّي الزنابق البيضاء التي ستكون على قبري.»

«أوه ! كم هو يائسٌ غناء العندليب...»

«حين جرّبتُ تاج الأشواك...»

«قلبي الراكع تحت الماغنوليا البيضاء...»

«كما أسفل المذبح احتضارُ الورود الجليل...»

«وضعت قلبي كلّه في كلّ ما فعلت.»

«آنَ كنتُ أشبِهُ الربيع كلّ الشّبه...»

«خبّأتُ جمالي بعيداً عن أنظار الرجال...»

«آنَ يعودُ زمنُ الدموع المحتوم...»

«أحرِفُ النظرات التي تصّوب علي».

«فضّلَت الملائكةُ حزنيَ على أفراحك.»

«تركتُ الجمال من دون أن أمنحه نظرة».

«لا يعلم اللهُ سوى الخطى التي تقودنا نحوه.»

«الملكة التي هي أنا تتذلّل أمام الله»[1].

(1) Lydie Dattas, *Le Livre des anges*, Gallimard, 2003.

السّؤال

أمضيت سنواتٍ مع شعراء استثنائيّين: ليدي داناس، وجان جينيه، وجان-ماري كيرفيتش، ودومينيك بانييه، وكريستيان بوبان، وجان غروجان، وإذا كنت قد بدأت في كتابة القصائد، فذلك بالتأكيد ليس صدفة. ولكنْ في حياتي، هنالك أوّلاً لقائي بليدي، فهي من أخذ بيدي وهي من فتح عينيّ لأوّل مرّةٍ على عالمٍ كنت أجهله كلّ الجهل.

لقد أطلعتني على أجمل ما في الأدب والموسيقى والرسم، لكنّني سرعان ما استبعدتُ بعضاً من هذه الفنون، بادئاً بالرسم. بالطبع، أعجبت بلوحاتٍ قليلة، لكنْ ما كنت لأعبُر مدينة باريس كلّها فقط من أجل أن أشاهد معرضاً فنّياً. استبعدتُ الروايات كذلك، وحين قلت لها: لماذا ثلاثمائة صفحةٍ لِقَول ما قد يعبّر عنه شاعرٌ في عشرة أسطر؟ لم تجبْني، بل نظرت إليّ وهي تبتسم. واستبعدتُ الموسيقى أيضاً. لم أستبق سوى الموسيقى الباروكيّة، وممّا سواها، وعلى سبيل الاستثناء، موسيقى موريس رافيل التي أحبّ كثيراً.

كانت ليدي تتساءل مع جان جينيه : ماذا نفعل مع الكساندر؟ أنُطلعه على الأشياء التي نحبّ مجازفين بأن يفقد، حينها، ما نحبّ فيه، أم نتركه على سجيّته؟

هل فقدتُ شيئاً يا ترى؟ لمّا كنتُ قد نشأتُ في عائلة غجريّة لا

تخشى أيّ شيء، ولمَا كنت قد تشبّعت منذ الطفولة بأمثال قبيلتي وأفكار أبي الخطيرة، فلا أظنّ أنني خسرت الكثير. حين مدّت لِيدي لي يدها، فإنّها لم تفعل سوى أن قدّمت لي عالماً ستتعاظم باطرّادٍ أهميّتُه في حياتي.

بفعل اهتمامها المتزايد بثقافة الغجر، التحقت ليدي بمعهد اللغات الشرقية لتتعلّم لغتي. وسيكتب كريستيان بوبان، الذي سيصبح صديقًا لي بعد بضع سنوات، في مقال: «لقد أعطى كلّ منهما للآخر ما كان يفتقر إليه.»

من بين الكتب التي قدّمتها لي لقراءتها كانت مؤلفات الفلاسفة السابقين على سقراط. قالت: «سيعجبك هذا». وكانت على حقّ لأنني أحببتهم، وخاصةً هيراقليطس. في كتابٍ ليس من مؤلفات هيراقليطس، قرأت: «ينبغي ألّا تفتح النساء أفواههن، وإلّا سيكون الأمر فظيعًا». حينها، أعجبتني الفكرة، لكنّني وجدت أن منطق الرجل يعوزه التماسك، فلو كنت مكانه لقلت: «ينبغي ألّا يفتح الحمقى أفواههم، وإلّا سيكون الأمر فظيعًا». ولكن بدافع الفضول، لم أغلق الكتاب، إذ أردت أن أرى إلى أيْنَ يريدُ أنْ يصلَ المؤلّف.

في كتاب آخر، صادفتُ فكرة لم تفارقني أبدًا، لأنّها كانت تتوافق بالضبط مع ما كنت أعتقد: «لا تَقُل بثلاث كلماتٍ ما يمكنك قولُه في كلمتين». وأظنّ أن بوسعي القول إنّ هذا واضح جدّاً في قصائدي.

«جرّحني العالمُ مثل حيوان حيٍّ تمزّقه الأيادي».

الانفصال المؤلم

كانت عائلة ليدي عائلةً استثنائية، جميع أفرادها موهوبون. فوالدها حاز الجائزة الأولى في العزف على آلة البيانو من معهد باريس للموسيقى، وكان عازف الأرغن في كاتدرائية نوتردام دو باري. وهو بالمناسبة من مواليد مارسياك، في منطقة لو جير، وداتاس اسمٌ غاسكونيّ شائع. أمّا والدتها، فنشأت في منطقة باريس، وكانت ممثلّة رائعة، وأختُ ليدي وشقيقها يزاولان الرسم. كانت عائلةً فنّانين.

كان لوالد ليدي قدرةٌ رهيبة في خوض النقاشات، وقدراً كبيراً من حسّ الفكاهة. وقد ورثت ليدي عنه الكثير. أتذكّر النقاش الأخير الذي دار بيني وبينه. كنا نتحدّث عن قرارٍ سياسيٍّ اتّخذه رئيس الجمهورية توّاً. وعندما سألته عن رأيه فيه، قال : «لو كنت مكانه، لآثرت تناول ملعقة صغيرة من الخراء، على أنْ أفعل فعلته».

تعارف والدها في لندن خلال الحرب. كان والدها قد وقع في الأسر، لكنّه هرب ورحل إلى إنجلترا لمواصلة القتال. ثمّ عادا إلى فرنسا بعد الحرب وأنجبا ثلاثة أطفال. كان والد ليدي يعمل، أمّا أمّها التي كانت تحصل على العديد من الأدوار في إنجلترا فقد أحبطها وجودها في باريس، حيث لم يُعرض عليها أيّ دور.

قرّر والد ليدي، عن طِيبةٍ ومن أجل أن تتخلّص زوجته من الشعور

بالإحباط، العودةَ إلى إنجلترا مع جميع أفراد الأسرة، مع أنّ مسيرة مهنيّة رائعة كانت تنتظره في باريس.

كانت العودة إخفاقا كاملاً، إذ حصل والد ليدي على وظيفة ليست بذات شان، مدرّساً للموسيقى في المدرسة الثانوية الفرنسية في لندن، أمّا والدتها، فأخذت تندب حظّها لأنّها لم تحصل على أدوار في إنجلترا أكثر ممّا حصلت عليه في فرنسا، وما زاد الطين بلّة أنّ الأطفال، ليدي وسيلفي وجيل، كانوا يكرهون إنجلترا.

ومع أنّ ليدي ثنائيّة اللغة اليوم، فقد كانت ترفض حتّى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة تعلّم اللغة الإنجليزية. وكان الأبناء الثلاثة كلّما كبروا، ازدادوا رغبةً في العودة إلى فرنسا.

حين بلغت ليدي الثامنة عشرة من عمرها، جاءت للعيش في فرنسا. كانت طيلة فترة دراستها في إنجلترا تلميذة متواضعة، ولكن حين وجدت نفسها في صفّ الفلسفة، أصبحت طالبةً لامعة. وسوف تقول: أخيرًا وجدت موضوعاً يشوقني.

التحقت بجامعةٍ في باريس لدراسة الفلسفة، لكنها لم تستمرّ فيها طويلاً. وستقول في وقت لاحق بعد لقائنا: «بين الفوضى الحزينة في الجامعة وفوضى الغجر البهيجة، بلا تردّدٍ اخترتُ الغجر».

الأحمق

بينما كنت أعبر ضواحي باريس، انفجرت إحدى عجلات السيّارة، فتوقّفتُ لتغييرها، غير أن سيّارة مرتْ قريباً جدّاً منّي بسرعة فائقة، ثّم صدمت بعد عشرين متراً رجلاً عجوزاً، ولم تتوقّف. كنت أعلم أنّ خيرَ ما يفعله المرء في مثل هذا الموقف، أن لا يلمس الشخص المصاب وأن يتّصل بالإسعاف بالسرعة الممكنة. ولمّا لم يكن لدي هاتف في جيبي ولمحتُ في البعيد لافتة إحدى الحانات، فقد ركضت نحوها لأطلب المساعدة.

حين دخلت الحانة، كان هناك حشد كبير من الناس يغنّون ويرقصون، وكان علي أن أصارع كي أصل إلى منضدة النادل. كان جهاز الصوت قد ضبط على أعلى درجة، وأنا أصرخ على الرجل خلف المنضدة، فلا يسمعني. أمسكتُ به من ياقة سترته، فالتفت إليّ أخيراً، لكنّه ظلّ لا يسمعني، ففكّرت لأوّل مرة في حياتي: لا بدّ أنّ الشيطان موجود.

وصل المسعفون بسرعة، برفقة سيارة شرطة. سألوني إنْ كنت رأيت الحادث. لقد رأيتُ كلّ شيء، ثم إنْ كنتُ لاحظت على وجه الخصوص أنّ السيّارة كانت تسير بسرعة، وقالوا: «لقد أوقفْنا على بعد كيلومتر واحدٍ من هنا سيّارة بسبب السرعة، واعترف الرجل أنّه دهس شخصاً منذ قليل. هل تودّ أن تدلي بشهادتك»؟

لا ينبغي في عرف قبيلتي الإدلاء بشهادة، لكنني صُدمت بحالة ذلك الرجل المسكين، وهو مُلقىً على الأرض في بركة من الدّم، فوافقت على أن أشهد. الشّرطي: «هل كانت السيارة تسير بسرعة؟» كانت تسير بسرعة، بل بسرعة مفرطة. «ما لون السيارة وما نوعها ؟» أجبت دون تردّد بأنّها بي ام دبليو بيضاء. الشّرطي: «هل أنت متأكّد من أنها بي إم دبليو بيضاء»؟ كنت متأكّداً من ذلك، لأنّ السيارة مرّت على بعد مترٍ واحدٍ منّي. الشرطيّ: «لكنّ السيارة من ماركة رينو ولونها أسود».

اليوم، بتّ أعرف أيّ قيمة قد تكون لشهادةٍ يدلي بها المرءُ وهو في حالة صدمة.

لا يحدث أبداً

في سيرك أبي، أعددتُ عرضاً باستخدام الحبل الطائر، لكنّني لم أؤدّه أمام الجمهور قطّ، وحدث أيضاً أن أعددت عروضاً باستخدام الأفيال أو الخيول، غالباً لتعويض مرّوضٍ غاب بسبب المرض. ودائماً ما كانت الأمور تسير على نحو خاطىء، إذ لا ينبغي الدخول إلى الحلبة مع حيوانات لم نعرفها ولم نتدرّب معها. ولكن بأدائي عرضاً مع أسود ونمور، كنت في وضع لا يحدث أبدًا في السيرك.

فالمرء إمّا بهلوان أو مروّض وحوش، وليس الاثنين معاً أبداً، ذلك أنّ من يؤدّون العروض مع الحيوانات نادراً ما يتعاطفون مع البهلوانات ومؤدّي عروض الحبل المشدود أو لاعبي الخفّة. إنّها عقليّات مختلفة جدّاً. وقد لاحظتُ أيضاً أنّ من يؤدّون عروضاً مع الدّببة أو قرود الشمبانزي أو الأفيال أو الأُسود يكادون يتّسمون دائماً بطبعٍ فظّ.

في الأشهر الأخيرة من عرضٍ مع الأسود، أصيب بهلوان، فطلب مني أبي الحلول مكانه لأداء عرض التوازن على السلّم الحرّ، ففعلت ما لا يحدث أبدًا في عروض السيرك: كنت مروّض وحوشٍ وبهلوان توازنٍ في الآن نفسه.

كانت ليدي قد علّقت صليباً خشبيّاً صغيراً حول رقبتي.

حياتي كلّها

لعلّ لقائي بليدي كان حظيّ السعيد، فبدونها لَكنتُ أمضيت، على الأرجح، حياتي كلّها مروّضاً للوحوش، ولَعشتُ متنقّلاً من سيرك إلى آخر إلى أن يجيء اليوم الذي يَنتزع فيه لي ذراعاً أو يقتلني نمرٌ من نموري، وهذا مصيرٌ عاديّ بالنسبة لمروّض.

لم أعبّر لها قطّ، بفعل الحياء، عن كلّ ما أدين لها به، غير أنّي، في فكري، أقبّل يديها كلّ صباح. فبفضلها، وبفضل جدّتي، لم أعد أحتمل أن يتحدّث أحدهم بالسّوء عن النساء. وقد كتبت مؤخّراً نصّاً صغيراً كنت أريد أن أدرجه في مجموعتي الشعريّة القادمة، لكنه يجد مكانه على نحو أفضلٍ هنا:

جاثياً على ركبة واحدة، أحيّي ذكرى أولئك النّسوة المسحوقات وسط اللّهب خلال قرون ممتدّة على يد أبٍ أو زوجٍ أو أخٍ أو ابن. لأنّ هذا الجنس ملعون. من قرّر ذلك يا ترى؟ ومن قرّر هذه القوانين التي يفوق كلٌّ منها الآخر غباءً؟ وهذا الشباب الرائع، الذي يتخمونه بالخواء أو الذي يتعفّنُ في السجون؟ من قرّر ذلك؟ مثل هؤلاء الذين لا يردعهم شيء، ونلقاهم في كلّ مكان. من سيكون قادراً على إبعادهم عن امرأتي وبناتي، وعنّي؟

تحت شمسٍ حارقة

جوزيف لم ينسَ. كان يرغب بشدّة في أن يراني في القفص بين السّباع الفتّاكة. وحين عرضتْ وكالةٌ فنيّة على أبي أن يرسلني مع أسودي إلى سيركٍ في إسبانيا، اغتنم الفرصة، لكنّ أبي كان قاطعاً: «لن تذهب، فأنا لم أعد في سنّ تمكّنني من أن أتبعك». لم يكن من الوارد عنده أنْ أؤدّيَ عرضاً مع الأسود دون أن يكون هو بجانب القفص. أمّا أنا وليدي، فملأتنا بالفرح فكرة ترك سيرك أبي الكبير من أجل الذهاب إلى سيركٍ صغير في إسبانيا. وقد نجحنا بمساعدة كبيرةٍ من جوزيف في إقناع والدي والالتحاق بذلك السيرك.

كانت خيبة الأمل الأولى أنّ السيرك لم يكن صغيرًا البتّة، وما زاد الطين بلّة أنّ الارتباك كان يسوده جرّاء افتقاره للتنظيمِ والمال. وبوسعنا القول إنّها كانت بداية سيّئة.

وصلنا في أثناء الجولة، ولم يكن الفنّانون قد تقاضوا أجورهم منذ شهور، وكانوا يخوضون حرباً لا ترحم. ومنذ اليوم الأول، وبسبب سوء فهمٍ، استعْدينا جميع الفنّانين: كانت الشمس حارقة، ومن دون أن يخطر لنا أنّنا نرتكب خطأً، أوقفنا الكرافان، والعربة-القفص التي تؤوي الأسود في فيء الشجرة الوحيدة الموجودة في الساحة، على بعد 50 مترًا من الخيمة. لم يعجب ذلك الفنّانين، ولم يروا فيه سوى ضربٍ من الاحتقار. فقالوا : «ليس

هذا السيرك جيّدًا بما يكفي في نظرهما، ولهذا أقاما كرافانهما في أبعد مكان ممكن». شرحتُ لهم الأمر، لكنّهم أصرّوا على موقفهم، وجعلانا نبدو مثل اثنين من المتحذلقين. لا داعي للقول إنّ تلك كانت بداية سيّئة، إذ ما كادت الجولة تبدأ، حتّى كان لدينا أعداء، ولكنْ كان أشدّ ما يقلقنا، أنا وليدي، هو أن يفتح أحدهم أبواب العربة- القفص، في الليل، في غفلة منّا.

فما يرعب كلّ مروّض هو أن يرى وحوشه خارج القفص. في ذلك السيرك، كان هذا احتمالًا لا ينبغي تجاهله. فلم نعد ننام، ولم ينقضِ يوم واحد من دون أن تقع حادثة دراميّة. وما كاد يمضي على وجودنا في السيرك شهران حتّى كنت قد تشاجرت بالفعل مع نصف الفنّانين. بدا الأمر وكأنّنا نعيش أحداث رواية سيئة، فأطلقت ليدي على السيرك اسم «طوّافة ميدوزا».[1]

كانت تقول لي منذ أيام : «أودّ لو أؤدي فقرة الأسود بدلاً منك مرّةً واحدة على الأقل». بدا لي الأمر ممكنًا، لأنّ ليدي كانت تعرف الأسود جيّداً بقدر ما تعرفها الأسود كذلك، إذ كانت تراها كلّ يوم. قررنا أن تفعل ذلك في المدينة القادمة. نُصب السيركُ لمدّة ثمانية أيام وسط مدينة ملاهي المهرجان الموسميّ. بعد العرض، ذهبنا في جولة، فركبنا الأحصنة الخشبية الدوّارة، وتوقفنا خلال عودتنا إلى السيرك عند أحد الأكشاك لتناول بعض الشراب .

---

(1) إشارة إلى حادثة غرق تاريخية خلّدتها لوحة بالاسم نفسه للفنّان تيودور جيريكو(1791-1824).تمثّل الطوافة في اللوحة ما تبقى من الفرقاطة الفرنسيّة ميدوزا بعد تحطّمها بالقرب من ساحل موريتانيا في الخامس من تموز عام 1816. حينها لم ينج سوى 15 راكباً من حوالي 50، بعد صراع مرير من أجل البقاء، حيث لا طعام ولا ماء، وقيل إن النّاجين اضطروا في أثناء الثلاثة عشر يوماً التي سبقت إنقاذهم إلى أكل جثث الموتى. (المترجم).

اغتنمتُ الفرصة لأكل السّجق، واتفّقنا أن تؤدي هي العرض بدلاً منّي في اليوم التالي. لم أكن قلقاً لأنّني كنت سأفعل من أجلها، إنْ وقع خطأ ما، ما كان سيفعله والدي من أجلي. ركبنا مرّة أخيرة الأحصنة الخشبيّة الدوارة، ثمّ مضينا لننام. وما إنْ استلقيت في السرير حتّى انتابتني آلام في المعدة، فربطنا ذلك على الفور بالسّجق الذي أكلته. كانت الآلام تزداد شدّة، وكان يجب أن أتقيأ، لكنني لم أفعل، ذلك أنّه في المرات القليلة التي سبق أن تقيّأت فيها شعرت أنّني أموت. ظللتُ أتلوى ألماً في السرير طيلة الليل، وفي الصباح، تقيأت رغماً عنّي.

كنت قد أمضيت ليلة مؤلمة جدّاً، فبقيت مستلقياً في السرير من التعب. بدا لنا واضحًا، بالنّظر إلى الحالة التي كنت فيها، أنّه لم يكن اليوم المناسب كي تواجِه ليدي الأسود. لا بد أنني كنت مريضاً حقّاً، فقد شعرت خلال النهار أنّني فقدت كلّ قواي . في المساء، أديّتُ العرض كالعادة. فهل شعر الجمهور أنّني كنت خائر القوى؟ أظنّ أنّني أديّت العرض على نحو طبيعيّ تقريباً، ولكن في نهايته غادرت الأسودُ الحلبة، كالعادة، لتعود إلى العربة- القفص، باستثناء واحد؛ أحد أصحاب السوابق الثلاثة.

لم يكن ذلك الأسد عصبيّ المزاج بل كان أسداً هادئاً، غير أنّه كان يسير نحوي بخطوة حازمة. وقرأت في عينيه: «لن تغادر هذا القفص حيّاً». ولمّا لم يكن بمقدوري إيقافه فقد واصلت التراجع أمامه، ولا بدّ أنني درتُ حول الحلبة خمس عشرة مرّة أو عشرين. كان ثمّة حلّ واحد فقط: أن أندفع مثل رجل يائس نحو الباب، ولكن كان في ذلك مجازفة بأن يخرج الأسد معي. من دون أن نتبادل الكلام، كانت ليدي قد فكّرت في الشيء نفسه، وهي تمسك الباب مبقيةً عليه مفتوحاً قليلاً. كان السيرك فارغاً على الدوام، لكنّه كان ممتلئاً هذه المرّة . وكان كلّ شيء رهنٌ بليدي، فإذا لم

تتمكّن من إغلاق الباب خلفي بسرعة، سيخرج الأسد من القفص ليهاجم كلّ ماهو أمامه ويدّب الذعر في الخيمة. اغتنمتُ لحظة غفلة من الأسد ورميت نفسي على الباب. فاندفع الأسد خلفي، لكن ليدي أغلقت الباب بسرعة، فارتطم بقضبان القفص ارتطاماً عنيفاً.

كثيرا ما أفكّر في ما كان يقوله والدي : «لا يكون المرء حذراً بما فيه الكفاية أبداً».

الدّرب الذي ينبغي أن يُسلك

بعد أن وازنّا بين محاسن الأمر ومساوئه، بدا لنا واضحًا أنّه لا بدّ من الرحيل. وفي ليلة من الليالي، حرّرتُ الفرامل من دون أن أشغّل محرّك الشاحنة، ولّما كان السيرك قد نُصب في مكان منحدِر قليلاً، فقد سرنا بصمتٍ حتّى بلغنا الطريق. شغّلت المحرك عند آخر الساحة، وعدنا إلى فرنسا. سُرّ أبي بعودتنا، وقال: «أيّ جنون هي تلك الجولة في إسبانيا! لقد تصرّفتما كالأطفال أنت وليدي».

وضعنا العربة-القفص والكرافان في مرآب السيرك الذي كان يقع في مكان هادئ على بعد حوالي 30 كيلومتراً من باريس. كنّا بعيدين عن جنون السّيرك الإسباني.

كنت آخذ ليدي من يدها بعد ظهر كلّ يوم، فنمضي في نزهة في الحقول. فنخوض، سعيديْن، نقاشات طويلة، ونتساءل: والآن، ماذا سنفعل؟ ثمّ توصّلنا إلى هذا الاستنتاج: يقتضي الاستمرار في العمل مع السّباع أوّلاً التخلّي عن أخطر الأسود وأصعبها ترويضاً، ثمّ شراء بعض النّمور.

كنّا أنا وليدي قد تعلّقنا بالأسود، لكنّنا قررنا بيعها، فاتّصلنا بالعديد من حدائق الحيوان ولكن أحداً لم يرغب في شرائها، فقدمّناها أُعطيةً.

ولا أدري ماذا حلّ بأُسودي.

كان الأمر سيستغرق عامين ما بين بيع الأسود وشراء النمور وإجراء التدريبات، وكان هذا يعني، على وجه الخصوص، الاستمرار في عالم السيرك، ولكن لا هي ولا أنا كنّا نريد ذلك. كنّا نشعر أنّنا قد استنفدنا هذا المجال، وبعد الكثير من التردد، حسمْنا أمرنا: لم يعد السيرك يضيف لنا أيّ شيء.

لذلك، قرّرت أن أستأنف تقديم عرض السلّم الحر في شوارع باريس. كان والدي قد بنى مع شقيقه عمارة بشعةً في جادّة روششوار على أنقاض سيرك ميدرانو الجميل، الذي هدمته عائلتي بغباء. ولما كنت أرغب في الاقتراب من باريس من أجل استئناف عَرضي في الشارع، فقد اقترح علينا والدي أن نسكن شقّة في تلك العمارة. كان يحبّ ليدي كثيراً، لكنّ الأمر لم يكن سهلاً، فقد اعتادت الكرافان ولم تعد ترغب في تركه. لحسن حظّنا كان للشقّة شرفةٌ كبيرة، فكنّا نعيش فيها.

المترو

عندما استأنفت تقديم عرضي في شوارع باريس، سُرقت سيارتي. لذا، كنت أحمل سلالمَ بطول ثلاثة أمتار فوق كتفي وأستقّل المترو إلى وسط المدينة. لم يمرّ يوم في عربات المترو من دون أن أتلقّى الشتائم بسبب طول السلالم، وكان النّاس على حق.

كنت حريصاً على سلالمي حرصي على حدقتَي عينيّ، فسلالم بهلوانات التوازن تختلف كلّ الاختلاف عن السلالم التي تباع في الأسواق التجارية، فالأبعاد والوزن عاملان مهمّان هنا.

كنت خارجاً من المترو، على السلّم الآلي، فعلِقت سلالمي الخشبيةُ الثلاثة في السقف. رأيتها تنفتل أمامي وأنا عاجز. ولم تعد صالحة للاستعمال، ولم يكن لديّ المال لأصنع غيرها. صارت أداة عملي حطاماً، ومعها روحي المعنويّة.

تهتُّ في شوارع باريس على مدى أيّام، بلا مال، ودون أن أدري كيف أخرج من هذا الموقف الصّعب. كنت جالساً على مقعدٍ عندما اقترب منّي مونا أغيغي Mouna Aguigui، الذي كنت على سابق معرفة بسيطة به. كان شخصاً غريب الأطوار، وطيّب القلب[1].

---

(1) André Dupont، المعروف باسم «مونا أغيغي» (1911- 1999) فيلسوف متشرّد، وداعية سلامٍ مناهضٌ للرأسمالية، ومدافع عن البيئة . كان يتجوّل في شوارع باريس على دراجته الهوائية، ويتوقّف ليخطب في الحشود. بلغ أوج شهرته خلال ثورة مايو 1968. (المترجم)

كان يخطب في الجموع في شوارع باريس. اسمه الحقيقي أندريه دوبون. كان نادلاً في مقهى، ثم أصبح هذا الحكّاء الفيلسوف مشهوراً في باريس، ما يقوله جدير بالاهتمام، وكان يبدأ خُطبه دائماً بالقول: «سأحدّثكم عن مجتمع الـ«كاكا - بيبي كابيتاليست»[1]». مدّ لي يده برزمة من الأوراق النقديّة قائلاً: «لقد علمتُ بقصّة سلالمك.»

بعد بضعة أشهر، أردت أن أعيد له المبلغ، لكنّه أبى. أصررتُ حقًا ووضعت المال في يده، لكنّه عاد فدسّ الأوراق في جيبي. لطالما استمتعت بالذهاب لتناول شيء من الشراب مع ذلك الرجل الاستثنائيّ. كان يعرف حبّي للقصص الحقيقيّة، فكان لديه دائمًا واحدة يرويها لي. لقد كان شخصاً طيّباً.

(1) «مجتمع التغوط والتبوّل الرأسمالي».(المترجم)

الكنيسة

حصلتُ على سلالم جديدة وعدت إلى الشوارع. صار لديّ سلالم لكنّي كنت ما أزال بلا سيّارة. كنت أؤدّي عرضي بعد الظهر أحياناً في ساحة سان جيرمان دي بريه، وأمضي، بين فقرتين، لأجلسَ في الكنيسة من أجل بعض الهدوء.

كنت لاحظتُ وجود أماكن مسيّجة حول الكنيسة، فعزمتُ على أن أستأذن القسّ بأن أضع سلالمي على السياج مع قفل. أتذكّر أنّه كان يرتدي بدلةً حسب الموضة الرائجة حينها وحذاءً عالي الجودة. استمع إلى طلبي من دون أن يقول أيّ شيء. ثمّ قال بدون أن ينظر إليّ: «لا أسمح لك بوضع سلالمك بمحاذاة السياج».

أوضحت له أنّ ذلك لن يزعج أحداً، فالمكان بقعةٌ محجوبة بلا منفذ، وتقع خارج الكنيسة، لكنّه لم يغيّر رأيه. «لا جدوى من الإلحاح، الجواب هو لا»، واستدار على عقبيه وانصرف. لم أكن أتوقع ردّاً سلبيّاً من ممثّل المسيح، خصوصاً على طلبٍ هيّنٍ كهذا. عرفتُ مرّة أخرى أنّ أهل الكنيسة أيضاً قد يكونون مخيّبين للآمال. ظلّت مشكلتي الكبيرة قائمة إلى أنْ تمكنّت أخيراً من شراء سيّارة صغيرة.

في الأقاليم

كان الصّغير جان-جاك، الذي كنت أدخله إلى السيرك بعد الظهر من كلّ أربعاء يمضي من الوقت معي أنا وليدي أكثر ممّا يمضيه مع والديه. كان والده، وهو سائق سيّارة أجرة، يعمل نهارات لا تنتهي، بينما تخدم والدته في البيوت من الصّباح إلى المساء، فكان يلتحق بنا ما إنْ يغادر المدرسة. كان عمره عشر سنوات.

أدّيتُ عَرضي على مدى سنوات في شوارع باريس، لكنّي ذهبت أحيانا إلى الأقاليم. عندما عرف جان جاك أنّني ذاهب مع ليدي إلى لا بول La Baule وإلى لا روشيل La Rochelle لتقديم عرض في حركات التوازن، أراد أن يأتي معنا، لذا، قرنتُ كرافاناً صغيراً بمؤخّرة السيّارة وغادرنا ثلاثتنا. كان الابنَ الذي لم نرزق به، وكان يدعونا «أمّي و أبي».

سأتّصل بك

كان من بين مَن يتحلّقون حولي في جادةّ روششوار الشّاعر جان جينيه. كانت ليدي قد قرأت لي كتابه الصغير «البهلوان» وكنت أعرف وجهه. تقدّم نحوي في نهاية عرضي وصافحني. تبادلنا بضع كلمات، لكنّه غادرني بسرعة، إذ كان عليه اللحاق بالطائرة، ولم يكن لديه مُتّسع من الوقت.

كنت أرتّب سلالمي على سقف السيّارة، أمّا هو، فكان يحاول إيقاف سيّارة أجرة، لكنه لم ينجح في ذلك. لمّا رأيت صبره ينفد، عرضت عليه أن أقلّه. كان في طريقه إلى مطار أورلي. تحدّثنا طيلة الرحلة كما لو كنّا نعرف بعضنا بعضاً منذ الأزل. وعلاوة على ذلك، كان يعرف عائلتي جيّداً؛ والبهلوان الذي يتحدّث عنه في كتابه، كان قد عرفه في سيرك أبي. وصلنا إلى أورلي. فقال لي عند خروجه من السيّارة: «سأتصل بك، فور عودتي». بعد ذلك بخمسة عشر يومًا، التقينا في مقهى ليزوازو، بالقرب من مكان لقائنا الأول.

ولم نفترق طيلة عشر سنوات؛ السنوات العشر الأخيرة من حياته.

الشّاعرة والشّاعر

كان من لُطف ليدي أنْ علّمتني القراءة والكتابة. كانت تختار لي كتباً لأقرأها أو تقرأها هي عليّ، إذ كنت بطيئاً في القراءة. قرأت لي كتاب جان جينيه «معجزة الوردة» وكانت تقول: إنّه كتاب رائع، هو أجمل كتبه. كانت معجبةً بالشّاعر، ليس بسبب موهبته الشعريّة فقط، وإنّما لأنّه كان يحيا أيضاً حياة الفقراء وينحاز دائماً إلى المقهورين والمستضعفين. وكنت أعلم أنها تتمنّى أن تلتقيه.

كان جان يسكن في فندق آنفير، على بعد مئة متر من مسكننا، لكنّي لم أكن قد أخبرت ليدي بأنّني تعرّفت إليه. أردت أن يكون الأمر مفاجأةً لها. مثل كلّ يوم، كان في مقهى ليزوازو. سارعت فحدّثته عن ليدي: «إنّها تكتب قصائد جميلةً وستجنّ فرحاً لو التقتكَ». ثم أطلعته على قصيدةٍ كانت قد كتبَتها وهي في سنّ السادسة عشرةَ:

«ما كدت أرى للمرّة العشرين الطحلبَ يخضرّ ثانيةً حتّى ناديتُ الموتَ الرائع، كما لو أنّ هذا الربيعَ عاجزٌ عن أن يقدّم لي شيئاً. تعبتُ من شبابيَ الذي قُدّر لي، ولم أعد قادرةً على حَمْل صليبِهِ المستحيل. أودّ أن أمضيَ الى باطنِ الأرضِ بالغِ النداوةِ، كي أحظى بلمسة الحنان الأخيرة: الظلّ البنفسجي المعلّق في عنق الأشجار الذهبيّة.»

قرأ جان القصيدة أكثر من مرّة وهو يهمس: «ليس هناك ما يقال، إنّها جميلة جدّاً». ثم مضينا للقاء ليدي، لكنّها كانت غائبة، فتناقشنا طويلاً بانتظارِ عودتها. حين عادت ورأت الشّاعرَ جالساً في كرسيّه، تورّد وجهها، واحمرّ وجه جان أيضاً. ثمّ نهض لتحيّتها وطالت مصافحتهما. كان ذلك جميلاً مثل فتىً وصبيّة يتبادلان قبلة عفيفةً على الفم.

أن تكون أَسْوَدَ

كنت أؤدّي عرضي في منطقة ميناء لاروشيل. وكان شابّ يرتدي زي قسٌّ يقدّم على بعد ثلاثين متراً منّي عرضاً كوميدياً رائعاً. كان مثيراً للإعجاب بقامته الطويلة ونحوله وردائه الطويل حتّى القدمين. عرضتُ عليه أن نقدّم عرضاً مشتركاً، وسرعان ما تفاهمنا. نال عرضُنا الصغير إعجاب الجمهور. وكان هناك إلى جانبنا عددٌ من فنّاني الشارع، وكان الصّغير جان-جاك يتنقّل من عرض الى آخر، ثمّ يلتحق بنا في نهاية الأمسية، أنا وليدي والقسّ المزيّف، فنمضي لتناول الطعام.

ذات مساء فقدناه، فانتابنا القلق عليه وأخذنا نسأل الناس الذين نقابلهم إنْ كانو قد رأوا طفلاً صغيراً من جزر الأنتيل. عند منتصف الليل، أخبرنا أحدهم أنّه رأى طفلاً مختبئاً بين سيارتين عند مدخل المدينة. وجدناه جالساً على الارض، مُحمرّ العينين. احتضنته ليدي: «لماذا تختبئ؟» إنّنا نبحث عنك من ساعات». فقال جان-جاك هامساً: «لن تفهماني». «أخبرني، ألحّت ليدي، أؤكد لك أنني أستطيع أن أفهم». «هل تعلمين أنّه لا يوجد شخصٌ واحد أسود في هذه المدينة؟» «لا، لم ألحظ ذلك. ما الذي يعنيه هذا»؟

غمغم جان-جاك : «إنّه لأمر قاسٍ أن يكون المرء أسود، لا سيّما إنْ كان وحيداً». بدا عاجزاً، بلا حيلة. فواسيناه وعاد برفقتنا.

بعد تلك الواقعة بعشر سنوات، كنّا كلانا في السيارة، نعبر مدينة باريس. توقفْنا عند إشارة مرور حمراء، فخرج جان-جاك من السيّارة، ثمّ أمسك بكلتا يديه عمود اللافتات الإشاريّة الخشبيّ، وأخذ يضرب رأسه بالعمود ضرباً عنيفاً، وقطرات دمع كبيرة تتحدّر على وجنتيه. كان ينتحب. بذلت ما بوسعي لتهدئته. فقال لي: «أنت لا تعرف ما يعنيه أن يكون المرء أسود». رويت القصّة لليدي، فقالت: «إنّنا نحبّه كثيراً، ولكن لن يكون بوسعنا أبداً أن نمحوَ الأذى الذي ألحقه البيضُ بالشعوب السوداء».

العُود البديع[1]

كنت مع سلالمي على أحد أرصفة جادّة سان جيرمان، أبحث عن أرضيّة مستويةٍ تماماً كي أؤدي عليها عرض التوازن. رأيت خمسة موسيقيّين شباب أو ستّة يعبرون أمامي، وهم يعلّقون أعواداً في رقابهم. أبهرتني أصوات الآلة وموسيقاها وجمالها. أعجبني كلّ شيء فيها، وفي اليوم التالي، التحقت بدروس العود عند باسكال بوكيه، في مركزCAEL الواقع في بور-لارين.

عزمت على أن أتّخذ من العزف على تلك الآلة مهنةً، فقد كنت أحبّ كثيراً ألحان البلاط الفرنسية[2] التي يغنيّها رينيه جاكوبس. ولما كنت بالغ السذاجة، فقد قلتُ لنفسي: سيكون من الجميل الغناء بمرافقة العود، كما كانوا يفعلون في الماضي، ولكن حين رأيت مقدار الجهد الهائل الذي يتطلّبه إتقان العزف على الآلة، تخليّت عن فكرة الغناء، وسرعان ما تأكّدت أنّني اتّخذت القرار الصائب.

كانت مجموعة من عازفي موسيقى النهضة تتدرّب في إحدى قاعات المدرسة، وكان ينقصها مغنّون. كنّا أربعة أو خمسة من عازفي العود. أمَرنا

---

(1) المقصود هنا هو العود الغربيّ وليس العود العربيّ أو الشرقيّ.(المترجم).

(2) نوعٌ موسيقيٌّ ولد في فرنسا في نهاية القرن السادس عشر وراج في أوساط الطبقة الأرستقراطية والحاشية الملكية حتّى منتصف القرن السابع عشر. كانت مقطوعاته تؤلّف للغناء المنفرد مع آلة العود .(المترجم)

قائد الأوركسترا باللحاق به، وأجلسنا مع عازفيه. كان أمام كل واحد منّا نوتات مقطوعةٍ موسيقية. غنّى جميع عازفي العود ما عداي. كنت أتمنّى أن أغنّي، لكنّني شعرت أنّني لا أستطيع ذلك. سألني قائد الأوركسترا عندما انتهى التمرين، لماذا لم أغنّ، فأجبته بأنّي لو فعلت لَشعرتُ بأنّني أتعرّى. «أعرف هذا الإحساس. وهذا الأمر يحدث كثيراً مع الموسيقيّين. في الواقع، لم تستطع الاختباء وراء الآلة، وكان ردّ فعلك طبيعيّاً جدّاً في نهاية المطاف. ولكن من يدري، قد تتمكّن من الغناء ذات يوم.»

كانت دروس باسكال آسرة، فهي تجيد الشرح، وتتقن عزف موسيقى عصر النهضة اتقاناً لافتاً. وكانت إحدى أكبر مفاجآتي في تلك المدرسة، أنّ باسكال وبعض الموسيقيّين المحترفين كانوا يتحدّثون، في نهاية الدرس، عن أفضل ما يُنتج في مجال الموسيقى. ولفرط ما سمعتهم يتحدّثون عن موسيقى عصر النهضة والموسيقى الباروكيّة، فهمت أنّ باسكال وزملاءها الموسيقيّين يعتقدون أنّه لم يعد ثمّة موسيقى بعد الموسيقى الباروكيّة.

ذات يوم، سمحت لنفسي بالقول: «ولكنْ بعد باخ، هناك موزارت وشوبان، ورافيل». فنظروا إليّ كما لو أنّني قلت شيئًا فظيعاً. واليوم، لن أقول مثلهم أنّه لم يبق شيء بعد الموسيقى الباروكية، لكنّها لا تزال الموسيقى الأثيرة لديّ.

حين التحقت بدروس الموسيقى القديمة عند باسكال بوكيه، لم أعطهم اسم عائلتي الحقيقيّ، بل اسم عائلة والدتي، لأنّني لم أرغب في أن تُعقد الصلة بيني وبين السيرك في نشاطي الجديد.

كان اسمي الكساندر دي أنجيلِس. وكان من الصعب الحصول على أجمل من هذا، خاصّة، لرجل يعزف على آلة العود.

غاليمار

كانت ليدي قد تعرّفت إلى أنطوان غاليمار وأطلعته على بعض قصائدها، وهو بدوره عرّفها بالشّاعر جان غروجان، وبجَدّه غاسطون غاليمار. ونشأت بينها وبينهما علاقة ودية، فباتت تتردّد من وقت إلى آخر إلى شارع سيباستيان-بوتان[1] لتلتقيَهم. كان غاسطون غاليمار يروي لها حكاياته مع كتّاب الدّار، وجان غروجان يقول لها: «أكثري من زياراتك لي، فتخرجيني بذلك من هذا المكان». وهو من تولّى نشر مجموعتها الشّعرية الأولى، واختار لها عنواناً «قصائد الصّبا». ليست تلك المجوعة استثنائيّةً في أيّ شيء، لكنّها ضمّت ثلاث قصائد أو أربع لا تخلو من قيمة، والغريب أنّ أجمل قصيدة كتبَتها في تلك الفترة لم تُنشر في هذا الكتاب. وكانت تدور بينها وبين جان غروجان نقاشاتٌ مطوّلة حول الشّعر والتصوّف.

ذات مرة، طلَبت منّي ليدي أن أرافقها، حيث كانت ذاهبة لمقابلة غاسطون غاليمار. وفيما كنت جالساً في بهو دار النّشر، مرّ من أمامي جان غروجان، فتوقّف وسألني من أكون، فأخبرته باسمي. قال: أنت غجريّ؟، فقلت إنّي غجريّ. قال: «سنذهب إلى مكتبي، اتْبعني، فلدينا ما نتحدّث به». سأصبح صديقه حتّى آخر يوم في حياته.

---

(1) حيث يقع مقرّ دار النشر الباريسيّة العريقة غاليمار. (المترجم).

قرية جميلة

كنت أنا وليدي كثيراً ما نقرن الكرافان بالسيّارة ونمضي للتجوّل في الريف الفرنسيّ، فإذا وقعنا على مكان يعجبنا توقّفنا فيه. لمحنا مرّة شجرةً جميلة على ضفّة نهر. فأقمنا الكرافان بينها وبين النّهر. كان المكان رائعاً. حين عبرنا القرية مشياً على الأقدام، رأينا بيتاً تسكنه امرأتان شابّتان تصنعان الجرار. نشأت بيننا ألفة، فقرّرنا البقاء لبضعة أيّام.

كنا نَمضي بعد الظهر لنراهما تُطلعان من بين أيديهما آباريق وفناجين جميلة. وكان ينضمّ إلينا كلّ يوم امرأةٌ ورجل مُسنّ من القرية المجاورة، فنجلس حول طاولةٍ نشرب الشاي ونتحدّث في أمورٍ شتّى. كان لدينا دائماً ما نقول، لكنّ الرجل المسنّ لم يكن يتكلّم، ولم أسمع نبرة صوته قط. وكان يكتفي حين يمدّ يده للسلام بإيماءة خفيفة بالرأس.

كنّا أنا وليدي على وشك الرحيل، وكان ذلك آخر يوم نقضيه برفقتهم. انتحت المرأة العجوز جانباً، فاغتنمت الفرصة ولحقت بها لأسألها لماذا لا يتكلّم زوجها، فأجابتني:

«إنّه رجل محطّم، لقد رأى بسبب مهنته ما يفوق كلّ احتمال».

وحين سألتها ما هي مهنته، احتضنت يدي قائلةً: «كان زوجي قاضياً».

مقهى لِيزْوَازو

كان الفندق الذي يبيت فيه جان جينيه يقع على بعد مئتي متر من البناية حيث أعيش مع ليدي، وبين الفندق والبناية كان يقع مقهى ليزوازو. كنّا نَمضي كل صباح للقائه هناك. وكان قد أخبرنا: «هنا كان يلتقي السرياليّون».

لم أكن قد سمعت بهم قطّ، وأضاف «لا أحد يعرف من كان الأغبى بينهم». لم تصفّق ليدي، ولكنْ كأنما فعلت.

في أوقات بعد الظهر، كنت أحتضن عودي، حين لا أكون برفقة ليدي وجان، لأتدّرب على مقطوعات موسيقى عصر النهضة الإيطاليّة والفرنسيّة- فرانشيسكو دي ميلانو، بيير أتينيان، أدريان لوروغ- التي كانت تعطيني إياها باسكال بوكيه. وكنّا نعود أنا وليدي عند العصر لنلتقي جان في مقهى ليزوازو. لقد قضيت في ذلك المقهى، بين ليدي وجان، لحظات لن أنساها أبدا.

لم يكن جان يعتني بمظهره، فكان يشبه رجلاً ينام في الشارع، وبما أنّني لم أكن أنا أيضاً مثاليّ المظهر، فقد كنّا نذهب كلّ يوم، لكي نتجنّب الطرد، لتناول الطعام في حيّ باريس-روششوار؛ المكان الوحيد في باريس الذي يقبل فيه أصحاب المطاعم الزبائن من كلّ نوع.

كنّا جالسيْن إلى طاولة صغيرة، ننتظر أن يقدّموا لنا الطعام، ولكن كانت امرأة شابّة تقف على باب المطعم، بدا من الواضح أنّها تنظر إلى جان من دون أن تجرؤ على الدخول. أشرتُ إليها بيدي لِتدخل. فجاءت صوبنا وألقت التحيّة، ثمّ خاطبت جان: «أظنّ أنّك الشّاعر جان جينيه». ابتسم لها جان ابتسامة عريضة: «أنا جان جينيه، تفضّلي بالجلوس، وأخبريني ماذا تريدين».

إحمّر وجه الشّابة انفعالاً. كان جان بالغ اللطف مع الناس البسطاء. قالت له: «أنا ممثّلة وأوّد أن أقدّم عرضاً لمسرحيّتك «الخادمتان»، لكنّي أعرف أنّك نادراً ما تمنح الإذن بذلك». بدون أية كلمة، استلّ جان قلمه من جيبه، واقتطع جزءاً من المفرش الورقيّ أمامه، وسألها عن اسمها ثم كتب: «إنّني آذن للآنسة... بتقديم المسرحية التي تختار من بين مسرحيّاتي».

كان قد رفض قبل هذه الواقعة بشهر أن تُعرض مسرحيته «الشّرفة» في الكوميدي-فرانسيز.

كان جان كثيراً ما يستخدم كلمة «أناقة»، ولم تكن تنقصه. أمام الشّاعر، كانت الشابة مثاليّة، هي الأخرى لم تكن تنقصها الأناقة.

أوبِـرا غارنيّيه

ذات شتاء، كنت على الرصيف مع سلالمي، عاريَ الصدر، مرتدياً سروالاً لاصقاً. كان البرد قارساً، وأنا أحاول أنْ أجمع حلقةً من النّاس حولي كي أبدأ عَرضي، لكنّني لم أستطع. لم يكن المارّة يرونني حتّى. اقترب رجل من الاتّحاد العام للعمّال CGT ، وهو ميشيل هيليك: «إذا بقيت هنا بصدرك العاري، ستموت من البرد». ثمّ سألني إنْ كان لديّ حلّ آخر. «هات سلالمك واتبعني، يمكنّني أن أحصل لك على وظيفة مُشغّلِ آلاتٍ في أوبرا باريس».

قضيت الشتاء كلّه في أوبرا غارنييه. لم يكن هناك ما ينبغي فعله إلّا في اللحظات التي كان يلزم فيها تحريك الديكورات، فكنت أمضي أوقات بعد الظهر كلّها في الاستماع لتدريبات الأوركسترا، متنّعماً بالدفء، وقدماي جافتان،؛ أتلّقى مالاً كي أسمع موزارت وأشاهد فرقة الباليه في أوبرا باريس والراقص الاستثنائيّ باتريك دوبون. وقد أذهلتني، أنا الذي لم يكن يحبّ الرقص كثيرًا، رؤيته يرقص بكلّ تلك الأناقة. كان ذلك رائعاً جدّاً، فهو لم يكن يرقص، بل يحلّق طائراً.

ثم جاءت فرق باليه البولشوي. كانوا رائعين هم أيضًا. أستطيع القول إنّني أمضيت لحظات ممتازة في تلك الأوبرا، إذ كان مشغّلو الآلات ودودين، وكنت محظوظًا جدّاً بأنْ أسمع فنّانين عظماء وأشاهدهم.

وعلاوة على ذلك، لم أكن مضطراً إلى مدّ يدي آخر الشهر لأحصلَ على المال.

استعدتُ سلالمي في نهاية الشتاء الذي قضيته في الدّفء، وعدت إلى الشارع. أديّت عرضي طيلة الصّيف في سان جيرمان دي بري. كان موسمًا جيّداً لأنّ الرجال والنساء الذين كانوا يتحلّقون حولي في ذلك العام كانوا كرماء. أدركت مع مرور الوقت أنّني حين لا أجتهد في أداء عرضي على أفضل وجه، لم يكن الناس يمنحونني المال، كما لو أن مدّ اليد في الشارع لم يكن مهينًا بما فيه الكفاية، إذ على المرء، زيادة على ذلك، أنْ يكون ماهراً.

كانت نهايةَ الصّيف، والشّتاءُ الذي بدأ كان أشدّ برودة من سابقه، فاتّصلت برجل اتّحاد العمّال CGT، لكنّ وظيفة مشغّل الآلات في قصر غارنييه لم تعد متاحة، لذلك عرض عليّ وظيفة كهربائيّ في مسرح الأوديون. وفي الأوديون كما في الأوبرا، كنت أجلس في القاعة عندما ينتهي العمل، لأشاهدَ البروفات المسرحيّة. ولم تفُتْني منها واحدة.

أتذكّر مسرحيّة كارلو غولدوني «المَضْيَف». لكنّ أكثر الأشياء تشويقاً كان مشاهدة جورجيو ستريلر في إثناء إخراجه للعمل. كان يؤدّي جميع الأدوار أداءً يبلغ حدّ الكمال، وكان هو بذاته فرجةً كاملة.

كنت أجلس في آخر القاعة، حيث الضوء الخافت، في مكان لا يستطيع رؤيتي فيه، فضلاً عن استغراقه الكامل في ما يفعل. وقد تعلّمت الكثير بمشاهدته هو أيضاً.

الأثينيّون

خُضتُ نقاشات كثيرة مع جان جينيه حول السيرك. وذات يوم سألني: «هل أحببت تأدية العرض مع الأسود؟» سألني هذا السؤال، لأنّ من يرون في إبقاء الحيوانات البريّة في الأسر أمراً لا يُطاق كانوا في ازدياد مطّرد.

أجبته بأنّني أحببت ذلك، غير أنّه كان من المحزن رؤية تلك الحيوانات الرائعة في قفص. كان جان صامتاً يفكّر. ثم روى لي قصّة وقعت في اليونان القديمة.

كانت الحجارة التي تُستخدم في بناء البارثينون في أثينا تُجلب من بعيد، محمّلةً على ظهور الحمير، التي كانت تمضي في كل الاتّجاهات. ولمّا كانت الحجارة لا تبلغ وجهتها، فقد اجتمع الأثينيّون لإيجاد حلّ للمشكلة. فقرّروا، لكي ينجح الأمر وتسير الحمير أمامهم سيراً مستقيماً، أن يفقأوا عيونها.

ثم لم يزد على ذلك. كان ينظر إليّ منتظراً ردّ فعلي، فقلت: «جان، ماذا كنت ستفعل لو كنتَ في مكان الأثينيّين؟» لكنّه لم يجب عن سؤالي، بل قال : «لو كنتَ أنت في مكان الأثينيّين، ماذا كنت ستفعل؟ هل كنت لِتفقأ عيون الحمير؟»

أخبرته أنّني ما كنت لأستحسن مثل هذا القرار القاسي، خصوصاً من أجل تشييد مبنىً عديم الفائدة أو لا يستخدم، بالأحرى، إلا للتباهي. ثمّ إنّ للحمير أجمل العيون في مملكة الحيوان كلّها. وأضفت : «وأنت، ماذا كنت ستفعل؟» فأجابني دون أدنى تردّد: «كنت سأوافق على قرار الأثينيّين، ولو كنت أحبسُ أسوداً في قفص، لما طرحت السؤال على نفسي أصلاً.»

بعد بضعة أيام، أثرت نقاشاً معه حول مصارعة الثيران، وهنا اتّفقنا على أنّه لا ينبغي حظرها.

كنّا مرّةً في السيّارة، فقلت له: «جان، ما رأيك بالمسيح؟» فقال لي دون تفكير: «ليس سوى يهوديٌّ صغيرٍ مدّعٍ». ولمّا كان متعكّر المزاج، فإنّني لم ألحّ عليه، بل انتظرت بضعة أيام وأعدت السؤال: «ما رأيك بالمسيح»؟ فأجاب بعد صمت طويل: «المسيح، يا له من شاعر!»

أبٌ

على مقعد الذكريات، تذكّرت قصّة غير عاديّة. كانت الشابّة ميريام تأتي كثيراً لزيارتي وطرح الأسئلة عليّ ظانّةً أن بوسعي أن أفيدها، حيث كانت تؤلّف كتابًا عن الغجر. ولما كانت ذكيّة وودودة بشكل لافت، فقد أخذت أرافقها إلى المقهى من وقت لآخر، وأجيب عن أسئلتها. ولاحظت مرّة أنّها ترتدي صليباً صغيراً في عنقها.

كان قد مرّ أكثر من عام حين التقيتها مجدّداً. مضينا إلى المقهى، وانتبهتُ إلى أنها نزعت الصليب وأحلّت محلّه نجمةَ داوود، فسألتها لحظة افتراقنا عن السّبب. لم ترغب في شرح الأمر لكنّي ألححت، فروت لي الحكاية في نهاية المطاف.

والدتها، التي كانت شابّة وجميلة، كانت تتجوّل في جميع أنحاء أوروبا، وذات مرّة، نصبت خيمتها الصغيرة بالقرب من دير في بولندا. كانت تجلس في الصباح الباكر أمام الخيمة لتناول الشاي، وكان راهبٌ شابٌّ يمّر في كثير من الأحيان من أمامها، فدعته مرّةً إلى شرب الشاي معها. وصار يجلس بجانبها كلّ صباح ليشربا الشاي معًا. وفي أحد الأيام قالت له: «إنّني حامل، فماذا نفعل؟» كان الراهب الشابّ مستعدّاً لأن يهجر الدير كي يعيش مع أمّها، لكنّها رفضت العرض بعد تردّد دام طويلاً. ثمّ هدّت الخيمة الصغيرة، وعادت إلى فرنسا، حيث أنجبتها.

كانت البنت تقضي عطلتها، كلّ عام، في الدير مع ذلك الراهب، فكانا يمضيان في نزهات طويلة في الريف، وكان يفعل كلّ ما باستطاعته للعناية بها. وحين مات، قيل لها إنّه أبوها، إذ لم تكن تعرف ذلك. سألتُها : «وما علاقة هذا باستبدال نجمة داود بالصليب؟»

«حدث ذلك خلال الحرب في بولندا. حُشرت النّساء في شاحنة توقّفت لبضع لحظات في قرية تقع قبل معسكر الموت مباشرة. وأعطت امرأةٌ طفلها لرهبان مرّوا بجانب الشّاحنة، وتربّى الطفل في الدّير، وأصبح راهباً عند بلوغه. كانت المرأة التي أعطت طفلها للرهبان تعلّق النّجمة الصّفراء على سترتها. كانت تلك المرأة جدّتي.»

الشّاعر

كثيراً ما كنت أذهب مع ليدي لزيارة الشّاعر جان غروجان في قريته أفان- لي- مارسيلي. أيّ متعة هائلة كان يجدها المرء في الاستماع إلى حديثه ! فقد كان صاحبَ ثقافةٍ واسعة وأفكارٍ مدهشة. ولعلّ قصائد جان غروجان ونصوصه لا تعني لأصحاب الآذان اللاهّية إلا القليل، لكنّه دائماً ما يبلغ الجوهريّ وبلُغةٍ تصلُ حدّ الكمال.

كان بعض الأدباء ينتقدون في نمط حياته ضرباً من التهيّب، لكنّه كان النقيض التّام للرجل الهيّاب، بل هو أحد أكثر من التقيت من الرجال جسارةً. كنت أذهب مع ليدي أيضاً لزيارته في دار غاليمار. وفي كل مرّة، كان يقول: «أخرجاني من هنا». كان كتوماً جدّاً في ما يخصّ شؤون الدار، لكنّنا كنّا نحسّ بأنّ لديه الكثير ليقوله.

السّماءُ بلا لونٍ

الأشجارُ بلا ظلٍّ،

وما من هبّةِ هواء

طائرٌ يرمي نفسه

سهواً على الأرض

مثل ثمرةٍ قبل الأوان.

مَطْرةٌ على الغابة

تلمّ عبر العشب،

الوقتُ الذي يمضي.

(جان غروجان ، «عشب»، ناتانايل، غاليمار،1996)

الأريكة

كان جان جينيه يأتي إلى بيتنا، حين لا نذهب أنا وليدي إلى مقهى ليزوازو لرؤيته. ولاحظنا أنّه بات يطيل البقاء عندنا أكثر فأكثر، وفي إحدى الليالي، نام على الأريكة الوحيدة التي كانت لدينا.

في الصباح، كان مسروراً جدّاً لأنّه نام في شقّتنا الصغيرة، وحين قالت له ليدي: «يمكنك أن تبيت هنا قدر ما تريد»، بدا مثل طفل زُفّ له خبرٌ سارّ. ولّما كان لدينا سريرٌ مفردٌ صغير لا نستخدمه، فقد أمضى جان فصل الشّتاء معنا في الشقّة.

وهكذا حظيت كلّ مساء بنقاش شائقٍ حول الشّعر. لكنّه عاد في نهاية فصل الشتاء ليستأجر غرفة في فندق أنفير. وكان ذلك قراراً معقولاً، فالشّقة كانت صغيرة.

*

أدركت بفعل ما أمضيتُ من وقت طويل مع جان أنّ المقاطع القليلة غير المحتشمة في عمله إنّما كتبها كي يحدث صدمة لدى الآخرين، إذ نادراً ما سمعت ذلك الشّاعر يتفوّه بلفظ بذيء، بل كان ذا حسٍّ بالغ الرهافة.

اصطحبني ذات يوم لمشاهدة لوحاتٍ لهنري ماتيس، الذي كان يحبّه كثيرًا. ولمّا كنت جاهلاً كلّ الجهل، فقد قلت له بكلّ براءة، عند خروجنا من المعرض: «نعم، أحببت ذلك، إنّه جميل جدًا، لكنْ يمكنني أن أصنع مثله». فأوضح لي أنّه، من أجل فهم الفن التشكيليّ وتذوّقه، ينبغي على المرء أن يشاهد الأعمال قرنًا بعد قرن، بدءًا من العصور الأولى.

في اندفاعتي، تجرأت على سؤاله: «جان، هل سبق لك أن مارست الحبّ مع امرأة؟» كنّا نسير في الشارع، فتوقّف وحدّق في عينيّ قائلاً: «الكساندر، هل سبق لك أن مارست الحب مع رجل؟» لم نمض أبعد من ذلك في النقاش، وتوقفْنا كلانا عند هذه النقطة.

السويديّون

عندما بدأتُ تقديم عرضي في الشارع، كان كثير من العروض الفنيّة لا يزال يُقدّم في الشوارع، والآن لم يبق منها شيء لسبب بسيطٍ هو أن كلّ شيء بات محظوراً أو يكاد.

كانت قد نشأت صداقة بيني وبين اثنين من فنّاني الشارع. كان ميشيل نوفاك يؤدي عرضاً جميلاً من ألعاب الخفّة. ولم ينقطع الاتصّال بيننا قطّ. وكان هناك أيضاً نافثُ نارٍ يدعى «الرّجل القصير»، إذ كان طوله أقلّ من متر وستّين سنتيمترا. وقد فقدت الاتّصال به، وأشعر بالأسفِ لذلك.

منذ أيام، صوّرني فريقٌ سينمائيٌّ سويديٌّ خلال تأديتي عرض التوازن في شوارع باريس. بعد أخذ المئات من الصور، سألوني إنْ كان بوسعهم تصوير فيلمٍ لي. وافقت بشرط أن أحصل على نسخة من الفيلم، فوعدوني بأن يمنحوني نسخة. كنت ساذجاً بلا شكّ، لأنّني لم أرْتب في وعدهم للحظة، خاصّةً وأنّني لم أُرد منهم مالاً. في حينها، فكّرت: لا بدّ أن السويديّين ليسوا على قدر كبير من الخبث! لقد نسيت وصايا والدي: «أينما كان وبين كلّ الشعوب ثمّة أناس طيّبون وآخرون أشرار».

حين أعدت التفكير بهذه القصّة بعد بضع سنوات، لم يكن ما أدهشني هو سذاجتي أو عدم نزاهة أولئك السينمائيّين- لأنّني اليوم، مع خبرة أكبر قليلاً، أعرف أنّنا جميعا ساذجون، بدرجات مختلفة، هذا صحيح،

ولكنّنا ساذجون - بل كوني فكّرتُ أنّ جميع السويديّين، لا بدّ، أحسن من الآخرين أخلاقاً. حتىّ أنّني تساءلت إنْ لم أكن بذلك على شيء من العنصريّة.

كانت الفكرة ذاتها قد خطرت لجان جينيه أيضاً. فقد روى لي أنّه كان يسير في مدينة في الهند، وفي الطريق، كان هنودٌ شديدو الفقر يسألونه بعض المال، فيعطيهم دائمًا بعض القطع المعدنية، وذات يوم، مدّ غربيٌّ، وهو شابٌّ أشقر بعينين زرقاوين، يده إليه، وبدلاً من إعطائه قطعة معدنية أو اثنتين أعطاه ورقة نقديّة. تفاجأ جان بسلوكه، مثلما وقع لي، وتساءل إنْ لم يكن عنصريّاً.

هائلان كلاهما

إنّ القول إنّ جان جينيه كان كريماً لا يفي الرّجل حقّه، فهو لم يكن يدّخر لنفسه شيئاً. كان يبيت في فنادق رثّة كي يدخرّ المال من أجل غرض وحيد: أن يكون قادراً على المساعدة. وكثيراً ما مدّ لنا يد العون أنا وليدي.

كان لديّ عودٌ قديم في حالة بائسة. وذات يوم، طلبت من صانع أعواد، وقد ضقت بالأمر ذرعاً، أن يصنع لي واحداً. كنت أملك خُمس الثّمن فقط، وكان جان من تكفّل بدفع الباقي، ما يعادل ثمن سيّارةٍ صغيرة آنذاك.

حين توفيّ هذا الرجل الذي تجسّدت فيه الطيبة عينُها، ألبسه بعض أصحاب النوايا الخبيثة ثوب المعادي للساميّة، وهو لم يكن كذلك، بل كان يؤمن بأنّ الشاعر يمثّل الشخص الأخلاقيّ الأسمى في المجتمع. وكان يردّد: «ليس ألبرت آينشتاين عالم فيزياء وإنّما هو شاعر»، و«لا أحد يعزف على آلة الكمان أفضل من يهودي مينوهين»، و«اليهوديات أجمل نساء العالم».

واليومَ، بعد مرور ثلاثين عامًا على وفاته، ما من مسرحٍ أو مكان يحمل اسمه. وقد لقي جان غروجان المعاملة نفسها أيضاً.

وقد سمعتُ من صحفيٍّ مؤخّراً مقولةً ذكيّة: «في فرنسا، نحتفي بمن لا يستحقون الاحتفاء ونكرّمهم، ونتجاهل من يستحقونه.»

يدّعي ألبير ديشي أنّه متخصّصٌ في أعمال جينيه، لكنّه ينشر الأفكار

الخاطئة عنه. وهنا مثال واحد من بين أمثلة كثيرة: إنّه يدعي أنّ جان أمضى السنوات العشر الأخيرة من حياته في المغرب، بينما هو قد عاشها معي أنا وليدي في باريس.

*

قبل موته بفترة وجيزة، قال جان جينيه لليدي، وكان معجباً بنصوصها: «يومًا ما، سوف ينحني أمامك الأساقفةُ والأمراء».

كنا نتحدث مع جان في كلّ شيء، ولكن خلال فترة معيّنة، كان يتحدّث معي أكثر وأكثر عن السيرك. كنت أخفي إنزعاجي، من باب اللطف؛ فالسيرك، عندي، كان قد صار حكاية قديمة. قد باتت ورائي. غير أنّ جان كان يبدي المزيد من الحماس: «الكساندر، الأمر كلّه يعتمد على طريقة القيام بالأشياء. يمكن أن يكون سيركاً صغيراً وجميلاً جدًا، ما رأيك لو أقمنا واحداً»؟ لا أعتقد أنّني أجبته بنعم، لكنه لم يتوقّف عن الحديث في ذلك وكان لديه كلّ يوم فكرة جديدة من أجل العروض. ولمّا كانت أفكاره رائعة، فقد أثارت اهتمامي في نهاية الأمر.

في إحدى الليالي، قال لي: «أحضر ملصقاتٍ في الغد، سنخطّ كلّ أفكارنا على ظهرها ونعلّقها على الحائط، فيكون لدينا نظرة عامة». بمرور الوقت، أثار ذلك اهتمامي، وبدأت فكرةُ سيرك نديره كلانا تشقّ طريقها إلى النّور، لكنّي كنت أعرف بالتجربة أنّ مشروعاً برئيسين ينتهي في تسع مرات من أصل عشرة إلى الفشل.

ينبغي أن أقول أيضًا إنّ جان كان يحسن الشرح، لكنْ كان لديه في بعض الأحيان أفكار حول عروض يتعذّر تنفيذها. كان يسألني دائمًا ما إذا كان ذلك ممكنًا، فأقول رأيي، غير أنيّ لاحظت أنه كان يشعر بخيبة الأمل

حين أقول له «هذا غير ممكن»، فلا يعود للحديث عن السيرك لعدة أيام. فهمت أنّه يجب عليك أن لا تحبطه أبدًا. في وقت لاحق، أتيح لنا متّسع من الوقت لنفرز الأفكار. وعندما قال لي: «على لاعبة الأرجوحة أن تقفز من قبّة الخيمة وبدون شبكة ، لتجد نفسها على الحلبة، في وضع توازن على الرأس، فما رأيك»؟ صفقّت بكلتا يدي، لكنّي أدركت أن الفكرة مجنونة. ولكن كان لديه أيضاً أفكار أخرى بالغة الروعة حول العروض وإخراج المَشاهد.

كان جان يصطحبني إلى كلّ مكان، حتّى ظنّ من كنّا نقابلهم أنّني عشيقه. وغالبًا ما كنا نمزح حول ذلك، لكنّ «الشاعر»[1] الذي قضيت الشطر الأكبر من وقتي معه كان ليدي، فقد كنّا زوجين.

دعانا مؤخراً صحفيّ يعمل في الصحافة الأدبيّة لتناول العشاء أنا وليدي. قال لنا: «أحبّ الشعر كثيرًا، حتّى أنّني لو عشت في الحقبة التي كان فيها آرتور رامبو على قيد الحياة، لما فارقته». فقالت ليدي: «لو أنّك عشت في زمن رامبو، لما عرفته، إذ كنت ستكتفي بالكتّاب الذين تتحدّث عنهم الصحافة. واليوم، في الشّعر، هناك من يضاهيه، وهو حيّ حقاً».

كان لليدي قدرة مرعبة على السّجال، فكانت تقف بنديّة أمام جان غروجان وجان جينيه اللذين كانا يقرّان على الدّوام تقريباً بأنّها محقّة.

وأتذكّر والدها الذي كان يقول: «ابنتي، ليست فتاة، إنّها شركة هدم».

---

(1) تطلق كلمة poète (شاعر) في الفرنسية على الجنسين .(المترجم).

سوء الفهم

كان ذلك بحدود الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً. أيقظتني ليدي قائلة: «هناك رجلٌ في الخارج يصرخ مستغيثاً». ارتديت بنطالي سريعاً ونزلت إلى الشارع.

حين كنت في العشرين من عمري، كان لدي عصا مطرقةٍ ألجأ إليها إنْ وجدت نفسي أمام أوغاد يشبهون دِبَبة الجبال، فآنذاك، كنت قد قرّرت أنّني لن أتراجع أبدًا وأنّه من غيرِ الوارد ألّا أكون الطرف الأقوى.

خرجتُ من المبنى، فلمحت في غبش الفجر رجلاً يحيط به حوالي اثني عشر شاباً كان واضحاً أنّ أصولهم تعود إلى شمال افريقيا. اقتربت، لكنّني أسقطت عصاي، إذ أدركت على الفور، بالنّظر إلى عدد الرجال الذين كانوا أمامي، أنّها لن تكون أنفع لي ممّا لو كنت أحمل في يدي عود معكرونة.

كان أحد الرجال يمسك بإحدى يديه شَعر الرجل الجاثي على ركبتيه، وبيده الأخرى مُديةً. دخلت الحلقة صائحاً: «إنّ لله يرانا» ! نظر الرجل الذي يحمل السكين إليّ مدهوشاً وقال: «من أنت؟ هل أنت مسلم، وماذا تريد»؟ في اللحظة نفسها، رفع الرجل الراكع رأسه، فلمحت صديقي، «الرّجل القصير». قال لي: «إنّه مخطئ يا الكسندر. أنا لست من يظنّ». توجّهتُ للرجال قائلاً : «أعرف هذا الرجل منذ فترة طويلة، إنّه ليس بالرجل

الشرّير. وعلى أي حال، ليس لديك الحق في قتل إنسان. الله وحده لديه هذا الحق». قال الرجل حامل المُدية: «لا تتعب نفسك، أنا لا أؤمن بالله». فأجبته: «لقد عاش النبيّ الموقف ذاته». قال صاحب المُدية: «هذا هو! سيخطبُ فينا واعظاً ...»

قلت: «عندما وصل محمّد إلى المدينة المنورة، قال له رجل قويّ البنية مثلك، له رقبة ضخمة: «أنا لا أؤمن بالله، ولن تدخل المدينة». فكّر النبي هنيهة، ثمّ قال: «أنت يا من لا يؤمن بالله، اعلم أنّ الله أقرب إليك من حبل الوريد»».

وضع الرجل مديته، فاغتنم الرّجل القصير الفرصة وفرّ هارباً. كان النهار يطلع، فدعوت الرجال لشرب قهوة لذيذة صنعتها لنا ليدي. حين قابلته بعد بضعة أيام، عانقني قائلاً: «لم أكن أؤمن بالله، لكنّني متأكّد من شيء واحد: أنّ الله هو من بعثك إليّ في ذلك اليوم».

عازف الكمان

كنت أصعد شارع سانت-أندريه دي زار وسلالمي على كتفي. أمرُّ من أمام مدرسة، فألحظ وجود مقعد أمامها مباشرة، وبما أن أسفلت الشارع في ذلك الموقع مسطّح تمامًا، أجلس على المقعد، وأخلع سترتي وسروالي، حيث كنت أرتدي دائماً لباساً تحتيّاً لاصقاً استعداداً لأداء عرضي، ثمّ أصطنع ما يلزم من حركات كي يتوقّف المارة ويشكّلون حلقة من حولي. وحين أشعر أن الحلقة كافية، أبدأ في أداء العرض. وأمرّر في النهاية القبّعة على الحضور، كالعادة.

كان المكان مثيراً للاهتمام، لأنّ الناس يتوقّفون بسهولة. لذا، هجرت مكاني في سان جرمان وصرت أجيء إلى هذا الشارع الصغير كلّ يوم. كان النهار يأفل، وقد بدأت عرضي توّاً حين جلس صبيّ في مثل سنّي على المقعد، ثمّ أخرج الكمان وبدأ يعزف. في نهاية العرض، عندما مرّرت القبّعة، وبفضل شراكتنا غير المقصودة، كان هناك ثلاثة أضعاف المبلغ المعتاد، لكنّ عازف الكمان كان قد اختفى.

لاح لي في نهاية الشارع، فانطلقت راكضاً لألحق به: «بفضلك زادَ ما جنيت من مال ثلاثة أضعاف، فهل ترغب في المجيء كلّ يوم لتعزف ساعة أو ساعتين خلال تأديتي العرض، ونتقاسم المال»؟ ثم سألته لماذا أخرج

كمانه، فقال لي : «إنّ عرضك جميل، وعندما أرى شيئاً جميلاً، أخرج دوماً كماني. سألته عن اسمه: «اسمي صاموئيل». وأنا في باريس طيلة الصيف من أجل تلقّي دروس الكمان على يد أحد الأساتذة، وبما أنّني لست غنيّاً، فإنّ اقتراحك يهمّني».

كنّا نلتقي عصر كلّ يوم أمام المدرسة، وشكّلنا ثنائيّاً رائعا، لكنّ أحد رجال الشرطة أمرنا ذات يوم بأن نقدّم عرضنا في مكان آخر. لم يكن يريدنا أن نبقى في ذلك الشارع. شعرت بالضّيق، لأنّني كنت قد جرّبت بالفعل أماكن عديدةً في باريس وكنت أعرف من التجربة أنّ ذلك الشارع مثاليّ. هدّد الشرطيّ باقتيادنا إلى مركز الشرطة إذا لم نغادر، وظل منغرساً هناك أمام المدرسة.

عدنا في اليوم التالي، لكنّه كان حاضراً أيضًا، فأجبرنا على المغادرة بعد أن سرق مالنا. قرّرت التحدّث إليه: «ليس من المنطقي إجبارنا على الانتقال بعيدًا، فنحن لا نؤذي أحداً». وأضفت: «مضايقة شابٌّ من الغجر وآخر يهوديّ، في ماضٍ ليس بالبعيد جدّاً! هل يذكّرك هذا بأيّ شيء»؟ لم يجبني، بل انتظر فقط أنْ ننصرف.

توقّف صاموئيل عن المجيء، فذهبت لرؤيته كي أقنعه بالاستمرار. كان يقيم في غرفة خادمة. قلت: «علينا أن نصمد. لن نستسلم»، لكنّه قال لي: «إذا اقتادنا إلى مركز الشرطة، سأموت من الخوف».

كنت في شارع سانت- أندريه دي زار بدون سلالمي. وعلى مبعدة، رأيت الشرطي الذي تسبّب لنا بالكثير من المتاعب. كان يسير في اتّجاهي وهو ينظر إلى واجهات المحالّ. ودون تفكير، انطلقت في الشارع راكضاً وحين وصلت إليه وجّهت له لكمة عنيفةً وهربت.

بعد أن ابتعدت قليلاً، استدرت وأنا ما زلت أركض، فرأيته جالساً على الأرض. اليوم، عندما أفكّر في كل ذلك، أقول لنفسي، «يا لها من خسارة!» وعن الضربة التي وجهتها للشرطيّ: «يا للبؤس»!

فقدتُ أثر عازف الكمان الشابّ ذاك. لا بد أنه اليوم عضو في فرقة للموسيقى الكلاسيكية. إذا عرف نفسه هنا، فليتّصل بي، سأُسرّ بذلك أيّما سرور.

اليمين

كان جان جينيه يتمتّع بقدرٍ كبير من روح الدعابة. فكان يقول : «ليس من اللطيف أن أكون أنا». وحين لا يعجبه أحد ما، كانت فكاهته لاذعة.

أتذكّر نقاشاً نظمّه صحفيون في حانة عقب انتخاب فرانسوا ميتران رئيساً للجمهورية، حيث أرادوا أن يخبرهم جان برأيه. بدايةً، لم يكن يذكر اسم ميتران البتّة، وكان يطلق عليه اسم «سائق السيّد»، ربّما بسبب مظهره الملكيّ أكثر من الملك. كنت أعرف أفكار جان بشأن السياسة الفرنسية، وكان يقول: «لست أعبأ بها كثيراً، فهي ليست سوى مسألة تخصُّ الرجال البِيض».

قال له صحفيّ بعد ساعة كاملة من الحوار: «إنّ اليمين محبطٌ بسبب فقدانه السلطة». «لا يا سيّدي، ليس اليمين محبطاً لفقدانه السلطة. اليمين محبطٌ لأنّه فقد السيطرة على التجارة»، أجاب جان.

تعقّدت الأمور حين وجب علينا التفكير في تمويل السيرك. كان ذلك عام 1981، فور فوز اليسار في الانتخابات. كان فرانسوا ميتران، رئيس الجمهورية، قد دعا جان جينيه أكثر من مرّة إلى قصر الإليزيه، لكنّ الشاعر لم يتنازل ليلبّي الدعوات. كان يكفي أن يستجيب ليد فرانسوا ميتران

الممدودة له من خلال جاك لانغ، وزير الثقافة، لكي نحصل على المساعدة، لكنْ لم يكن من الوارد عند جان طلب العون من الاشتراكيّين. كان يقول: «إجمالاً، أنا أفضّل جماعة اليمين، فهم على الأقل يتقبّلون الإهانات».

خطر في بال جان أن يلجأ إلى جان- لوي بارو. لكنّها لم تكن فكرة جيدة، فالأمور كانت قد ساءت بينهما خلال بروفات مسرحيته «السواتر». وقد روى لي جان أنّه غضب من الممثّل، الذي سأله أين تكمن المشكلة بينهما، فأجابه: «أنا لا أحبّك وأتقيّأ مسرحك». رغم ذلك، حدّد موعدًا معه ورافقته إليه. كان يسير أمامي. فتح باب مسرح أورسي، لكنّه عاد وأغلقه بعنف قائلاً: «القرد العجوز هنا، فلنهرب!» وهربنا. ولما كان يطلق أسماء مضحكة على كلّ من لا يعجبه، فقد كنت أعرف أن المقصود بالقرد العجوز مارغريت دوراس.

ثمّ وجد جان وسيلة: أن نطلب من البلديات مبلغا صغيراً تستردّه عندما يحلّ السيرك في المدينة. مضينا لمقابلة صديقه شارل سيلفستر، الصحفيّ في جريدة لومانيتي اليوميّة، فقال له: «إنّها فكرة ممتازة». عندما رأيت الأمر يوشك أن يتجسّد من الناحية المادية، حيث بدأ جاك يجري بعض الاتّصالات، أخذت سيارتي وذهبت لأصنع سلال القشّ على ضفاف نهر اللوار مع الفرع الفقير من عائلتي. أظنّ أنّني لم أكن قد شفيت من السيرك حتّى تلك اللحظة، فلم أرغب في الغوص ثانية فيه. لم يحمل جان لي أيّ ضغينة بسبب ذلك، ولم يوجّه لي أيّ لوم. وبقينا صديقين.

ذات مرّة ، كنّا أمام كشك لبيع الصحف، وكان بإمكان المرء أن يقرأ في العناوين الرئيسة: «وفاة الفيلسوف جان بول سارتر». نظر جان إلى

الصحيفة وقال: «أخيراً، سيكفّ عن قول الهراء».[1]

في يوم آخر، كان يقرأ العنوان الرئيس في إحدى الصحف، وكان حول إي. تي ، وهي شخصية دميمة للغاية في فيلم أمريكي حقّق نجاحاً هائلاً: «إي. تي أبكى أمريكا كلّها». فقال جان: «هؤلاء الأمريكيون غريبون. يبكون على إي. تي، لكنّهم ألقوا أطناناً من القنابل على رؤوس الفيتناميّين الذين يكادون يضاهونه دمامة».

(1) كان جان-بول سارتر من أوائل من اكتشفوا موهبة جان جينيه الأدبية وبشروا به بوصفه كاتباً عظيماً. جمعت الصداقة بين الرجلين بعد خروج جينيه من السجن عام 1944، وألّف عنه سارتر عام 1952 كتابه المشهور «القدّيس جينيه: ممثّلاً وشهيداً»، حيث عدّه أنموذجاً للإنسان الوجودي. والكتاب هو أضخم دراسة أدبية كرّسها سارتر لمؤلف، ويمثّل حالة فريدة من نوعها في تاريخ الأدب الفرنسي، فلم يسبق أن حظي كاتبٌ حيّ وشاب باحتفاء كهذا. كان تأثير الكتاب صاعقاً بالنسبة لجان جينيه وفرض عليه عشر سنوات من الصمت الأدبي. فلم يغفر ذلك لسارتر، مؤكّداً أنّه «شعر» بنوع من الاشمئزاز - لأنّني رأيت نفسي عارياً ومعرّى على يد شخص آخر. إنّني أعرّي نفسي في جميع كتبي، وأتنكّر في الوقت نفسه بواسطة الكلمات والاختيارات والمواقف، والتخييل، متدبراً أمري بحيث لا أتأذى كثيرا». واتّهم جينيه سارتر بأنه استخدم شخصيته وحياته من أجل التمثيل لنظريته حول الحرية الوجودية. كما كان لموقف سارتر وسيمون دو بوفوار السلبيّ من القضيّة الفلسطينيّة التي آمن بها جينيه ودافع عنها دوراً كبيراً في تباعد الشقّة بين الرجلين، وابتعاد جينيه عن اليسار الفرنسي عموماً. (المترجم)

كارثة

حين كنت في الشارع مع سلالمي، أخبرني رجل طاعن في السنّ أنه عرف أبي بين الحربين العالميّتين وروى لي هذه القصّة المدهشة:

استُدعي أبي للالتحاق بثكنة عسكرية، لأنّ الحرب كانت على الأبواب. وعندما حضر، توجّه من فوره لرؤية القائد، وقال له: «أنا غجريّ، ونحن الغجر لا نخوض الحروب، ولن نبدأ هذا اليوم». لكنّ القائد رفض أن يصغي إليه، وقال، «يا فتى، أنت قويّ، ونحن نحتاج إلى شباب مثلك، سأحتفظ بك».

حذّر والدي القائد قائلاً: «سيكون الأمر كارثة». في الليل، ذهب إلى مستودع الذخيرة وفجّره، حسب الرواية. وفي الصباح، ذهب إلى القائد قائلاً: «لا تبحث، أنا من فجّر المستودع». فطردوه من الثكنة، وعليه، لم يشارك في الحرب. أجد هذه الحكاية مريبة بعض الشيء، لكنّ الأمر الأكيد هو أنّ والدي كان في سنّ يسمح له بخوض الحرب، لكنّه لم يفعل .

سمعت أحياناً والدي يقول: «ينبغي أن يوجّه مسدّسٌ إلى صدغي، لإجباري على السّير المستقيم». وكان جينيه قد أخبرني بشيء قد يبدو بلا معنى، لكنّه ليس كذلك: «لقد رتبّت أموري دائماً بحيث يكون في داخلي فوضى».

خيّل إليّ في كثير من الأحيان أنّ جان كان سينسجم جيّداً مع والدي الذي كان يقول: «النّظام ضروري، ولكن إذا أُفرط فيه، لا تعود هناك حياة وتحدُث الفوضى».

رجل مسكين

حدث ذلك في ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل. كنت وراء مقود سيارتي متوقّفاً عند إشارة المرور، وحين أوشكت على الانطلاق مجدّداً، رأيتُ على مبعدةٍ عشرة رجال مسلّحين بقضبان حديدية ينهالون بالضرب على رجلٍ عجوز ملقىً على الأرض، وهم يصرخون.

التقطت عصا المطرقة وخرجت من السيارة عازماً على وقف المذبحة. وركضت صوبهم عاقداً العزم على تخليص الرجل المسكين من براثن الوحوش. عندما رأوني أركض والعصا في يدي، توقفّوا عن ضرب الرجل المسكين الذي كان متكوّراً على الأرض، داميَ الوجه.

استداروا نحوي. وعندما رأيت وجوههم المتوحشة الطافحة بالكراهية، تباطأت وانتهى بي الأمر للتوقّف، فقد شعرت بالخوف. عدت إلى سيارتي، وفي اليوم التالي، نشرت الصحافةُ تقريراً عن رجل قُتل في أحد شوارع باريس تحت ضربات القضبان الحديديّة.

ذكّرني عجزي في هذه القصّة المؤسفة مرّةً أخرى بما كان يقوله والدي: «لا يوجد إنسانٌ قويّ».

العُود

كانت السنوات تنقضي، وبات عرضُ حركات التوازن الذي كنت أؤدّيه في ساحة سان جرمان دي بريه مرهقاً. ولمّا لم يكن عزفي لبعض المقطوعات الموسيقيّة بذلك السوء، فقد استبدلت بذلك العرض تقديم موسيقى عصر النهضة الإسبانية، ثمّ الموسيقى الباروكيّة في وقت لاحقٍ.

كانت بدايتي في العزف أمام جمهورٍ بدايةً متواضعة جدّاً. كنت قد عثرت على بعض الأماكن الهادئة في باريس، حيث أجلس على مقعد، فيمنحني من يتوقّف للاستماعِ من المارّة قطعة نقدية أو اثنتين. كان هذا القليل من المال يكفيني أنا وليدي. فيما بعد، بدأت أقدّم حفلات موسيقيّة في القاعات وفي الكنائس مع عازف عودٍ صديق.

لم يكن الأمر سهلاً، إذ كان لديه عمل يستنزف كثيراً من وقته، وكنّا نواجه صعوبة أخرى: لم نكن نحب الموسيقى نفسها، إذ كان يفضّل الإنجليزيَّ جون داولاند بينما أفضّل أنا موسيقى عصر النهضة الإسبانيّة، فانتهيت إلى العزف بمفردي. كان قد مضى، حينها، وقت ليس بالقليل على وفاة جان جينيه.

كنت أعزف في كثير من الأحيان على مقعد في ساحة فورستنبرغ، لكنّ العزف على العود في الشارع لم يكن أمرًا هيّناً، لأنّ صوت الآلة ليس قوياً. وأتذكر أنّه، ذات يوم، توقّف رجل لفترة طويلة ليستمع إلي،

وعندما غادر قال لي: «آمل ألا تأخذ الأمر على محمل السّوء، ولكن أن تعزف موسيقى عصر النهضة في القرن العشرين على آلة العود في باريس، جالساًعلى مقعد، فإنّ هذا يجعلك مثيراً للسّخرية إلى حدٍّ ما».

اكتشفت بعد سنوات العودَ الشرقي، الذي أعجبني حقًّا، لكنّني لم أحاول تعلّمه، إذ كان لا يزال أمامي شوط طويل مع عوديَ الغربيّ.

كنت قد توصّلت إلى الاستنتاج التالي: يُعزف العود الباروكيّ في قاعة فخمة مليئة بالذهب، لكنّ العود العربيّ شيء آخر، فهو يُعزف في الصحراء، تحت السّماء المرصّعة بالنجوم.

شاعرٌ ورجل سيرك

عندما كنت أقدّم عرضي في الشارع، اتصّلت بي مؤسّسة أونات Onat، وكانت تعنى، حسب ظنّي، بالسّياحة في الجزائر. كان المسؤولون قد استأجروا سرادقًا في فرنسا وتعاقدوا مع عشرين من فنّاني السيرك للقيام بجولة في جميع أنحاء الجزائر. كنت غير راغب منذ مدّة طويلة في العمل في السيرك، لكنّ جولةً في الجزائر كانت أمراً مشوّقاً، إذ لم أكن قد زرت شمال إفريقيا مطلقًا. ولما كنت محبّاً للاستطلاع، فقد سافرت إلى الجزائر في رحلة دامت أشهراً عدّة.

كان في ذلك السيرك أن تعرّفت إلى جان-ماري كيرفتش. كان والده وشقيقاته يؤدون أحد العروض، فأمضى بضعة أيام معهم. وهو غجريٌّ مثلي من قبيلة السنتي. كان في مثل سنّي فتآلفنا على الفور. لاحظت أنه كان ينتقل في بضع ساعات من الفرح الخالص إلى أعمق الحزن، وأنّه واحد من رجال قبيلتنا الذين يعارضون كلّ شيء. ولحسن حظّه، كان فتى طيّباً.

لم يلتحق بالمدرسة، شأنه شأني، ولم يكن مهتمًا بالرواية، لكنّه كان منجذباً إلى الشّعر. كان يدوّن القصائد حين يأتيه الإلهام في دفتر صغير يحتفظ به دائمًاً. لم يكن في قصائده ما هو استثنائيّ في ذلك الحين. كنّا نمضي في كثير من الأحيان، بعد العرض، لتناول مشروب في المدينة، وقد

أمضيت معه أوقاتاً طيبّة. عندما انتهت الجولة، عرّفته إلى ليدي، فتوادّا على الفور. كانا يخوضان في أحاديث طويلة حول الشِّعر، وعندما أقمت سيركاً بعد بضع سنوات، وكان لديه عرضُ ألعاب خفّةٍ لطيف، وظفّته فيه. كان كثيرا ماً يطلعني على قصائده الجديدة ويرسلها إلى ليدي. وكانت هناك أوقات يكتب فيها بغزارة، فكانت ليدي تقول لي، لأنّها كانت تجد متعة في ذلك: «سأفرزها، فهناك قصائد بالغة الجمال، لكن ليس الكلّ جميلًا، وهو لا يستطيع فرزها».

وبما أن كريستيان بوبان كان على اتّصال بدار نشر Le Temps qu'il fait ، فقد طلبت ليدي من كريستيان إطلاع جورج مونتي على قصائد جان-ماري، فأحبّ القصائد ونشرها. في وقت لاحق، أصدر أعمالاً أخرى عن دار ميركور دو فرانس. وكان من حسن ذوق جورج مونتي أنّه كان، حين ينشر ديواناً، يهدي مؤلّفه النُّسخَ الثلاثين الأولى منه.

كان جان -ماري يعيش في كرافان صغير على أطراف الغابة. وكان يمسك غيتاره مساءً في كثير من الأحيان ليعزف ألحان الفلامنكو بتأثّرٌ كبير. وكان يوقف الكرافان دائماً في أماكن بعيدة، في منأى عن الطريق- كان هو سيقول: «في منأى عن العالم».

حين عادت زوجته لرؤيته، مرّت من أمام سلّة مهملاتٍ في طريقها إلى الكرافان، فلمحَت في السلّة طرداً مفتوحاً قليلاً من جانبه. بعد ساعتين، قالت خلال حديثهما: «لمحتُ قبل قليل، حين مررت بسلة المهملات، طرداً لطيفا. هل رأيته؟» «بالطبع،» أجاب جان ماري، «ما دمت أنا من رماه فيها». لكنه لم يزد على ذلك وعاد إلى العزف على الغيتار. وبما أنّها تعرفه جيدًا وتعلم أنه قادرٌ على فعل أيّ شيء، فقد ذهبت لمعرفة ما كان في سلّة المهملات: كانت الكتبَ العشرين أو يزيد، التي أرسلها جورج مونتي.

في اليوم التالي، اتّصل جان بـليدي لِيقول لها: «الكتب التي أرسلها لي وتحمل اسم جان- ماري كيرفيتش، لست أنا من ألّفها».

«نحن لا نصنع كتابًا بالقصائد، وإلّا لكان الأمر سهلاً للغاية.

القصائد الحقّة جنودٌ فارّون من الخدمة يشقّون قمصانهم مزقاً

على الطرقات. ووحدها الريحُ تلّمها لِتضعها بين يدي الله[1].»

(جان- ماري كيرفيتش، الملاك الأعرج)

*

أحببت الجزائر، حيث التقيت كثيراً من الرجال والنساء الجديرين بالاهتمام. ولكن كان هنالك أمر غريب، فقد كان السيرك سيّء التنظيم بسبب نقص الخبرة. كان يُدار إدارة حسنة، بالطبع، لأن المعنيّين كانوا جادّين، ولكن في ما يخصّ الرجال الذين أوكل إليهم نصب خيمة الموسيقيّين والفنّانين، لم يكن هناك من يعطي الأوامر، ولمّا كان القائمون على المكتب يعلمون أنّني لست فنانًا فحسب، بل ابن مدير سيرك، لم يكن ينقضي يوم من دون أن يأتوا إليّ من أجل حلّ مشكلة، فانتهى بي الأمر رغماً عنّي إلى أن أصبح مدير السيرك. وفي نهاية الجولة، سألوني إنْ كنت مهتمًا بالاستمرار في إدارة السيرك لسنوات قادمة.

كانت جميع المعدّات مستأجرة، لكنهم كانوا على استعداد لشرائها ولتكليفي بإدارة السيرك. رفضت دونما تردد، لأنّني لم أكن أرغب بالتأكيد في تحمل مسؤوليات. بعد نهاية الجولة، عدت لتأدية عرضي في شوارع باريس. كنت أمضي إلى الشارع حين أشاء، وعندما لا أريد لا

(1) Jean-Marie Kerwich, L'Ange qui boite, Le Temps qu'il fait, 2005

أفعل. لم أكن مسؤولاً أمام أي شخص. الشيء الوحيد الذي ندمت عليه هو أنني غادرت الجزائر، لأن تلك السّنة كانت واحدة من أسعد السنوات في حياتي.

أُصبتُ في منتصف الجولة بالتواء في كاحل القدم، فلم أتمكن من أداء عرضي لمدة أسبوعين أو ثلاثة. وهكذا، قرّرت العودة إلى باريس لبضعة أيام. وصلت إلى الجمارك مع سيارتي. كان سعر البنزين زهيداً، لذلك ملأت بغباء حوالي عشر تنكات، ولم أخبئها، إذ لم يخطر لي أنها قد تكون مشكلة. رأى مسؤولو الجمارك التنكات، فطلبوا مني مغادرة السيارة، وفتّشوني. كان هنالك رزمة كبيرة من أوراق النقد الفرنسية في جيب بنطالي الخلفيّ.

الشرطي: «ألم يخبرك أحد حين وصلت إلى الجزائر أنّ من المحظور حيازة عملات أجنبية؟» أجبت بأنني كنت على علم بذلك. «هل تعلم أنه قد يلقى بك في السجن؟» أخبرته أنّني لم آخذ التهديد على محمل الجدّ. اقتادني شرطيّان، كلّ واحد من ذراع، إلى مركز الشرطة، وفي الطريق قال لي أحدهما: «سيصل مفوّض الشرطة قريبًا. وهو ليس بالشخص المسلّي، كما سترى». كنت جالسًا على كرسيّ في أحد الممرات وإلى جانبي شرطيّ يحرسني. رأيت رجلاً ستينيّاً حادّ الملامح يعبر من أمامي دون أن يلتفت إليّ. كان يرتدي بدلة رماديّة صارمة للغاية وقميصاً أبيض مع ربطة عنق سوداء. أعترف أنني خفت. ثم سمعت صوتاً يقول: «أدخلوه!».

دخلت إلى مكتبه، تبادلنا التحية ودعاني للجلوس قائلاً: «في الحقيقة، ليست التنكات المعبّأة بالبنزين بالفكرة الذكية حقّاً. كان واضحاً أنّك، بركوبك السفينة مع سيّارة مليئة بالبنزين إنّما تعرّض نفسك للاعتقال،

والأسوأ من ذلك الأموالُ الأجنبية في جيبك. حين وصلتَ إلى الجزائر، أما قيل لك أنه ينبغي تغيير ما لديك من عملة أجنبية؟ «أنا:» بلى، قيل لي ذلك، ولكن أعترف أنني لم أصدّق». المفوّض: «هل تعرف السجن في الجزائر؟» قلت لا. عندما لفظ المفوّض كلمة «سجن» مسح الشرطيّ الذي كان بجانبي جبينه قائلاً: «رحمةً بنا أيّها المفوّض! لا تقل هذه الكلمة، إنّها فظيعة». نهض المفوّض قائلاً: «لا أستطيع فعل أيّ شيء من أجلك. ثمّ إنّ الجميع في مركز الشرطة على علم بقضيّتك، وليس جميع مَن هنا أصدقائي. كان بودّي أن لا أطبّق القانون، ولكني لسوء حظّك لا أستطيع. ستبيت الليلة في السجن. خذوه!»

كنّا على وشك الخروج من مركز الشرطة حين سمعت المفوّض يصرخ: «لمن هذه الحقيبة»؟ تبادل الشرطيّان اللذان كانا يمسكان بي النّظرات وأدركا أنّهما نسيا حقيبتي. أعاداني إلى المفوّض قائلَين: «إنّها له». قال المفوّض: «افتحا الحقيبة فوق مكتبي». ففتحاها، كانت مليئة بكتب لأعظم الشّعراء العرب. التقط المفوّض كتابًا وهو يقول: «أين وجدت هذا؟ فمن المتعذّر العثور عليه. وهذا؟ من الصعب جدّاً أن نجده، وهذا؟ إنّني أبحث عنه منذ سنوات». أمسكت الحقيبة بكلتا يدي وقدّمتها له هديّةً. قال المفوّض: «أيها الشابّ، سأعرّفك هذا المساء بزوجتي وأولادي وستمكث في بيتي ثمانية أيام». كان هاوياً للشّعر. وكانت تلك العائلة لطيفة جدّاً معي.

تَخَفَّف مِنَ الدُنيا لَعَلَّكَ تُفلِتُ

وَإلّا فَإنّي لا أَظُنُّكَ تَثبُتُ

أَلَم تَرَ أَنَّ الحِلمَ لِلجَهلِ قاطِعٌ

وَأَنَّ لِسانَ الرُشْدِ لِلغَيِّ مُسِكتُ

لِكُلِّ امرِئٍ مِن سَكرَةِ المَوتِ سَكرَةٌ

وَأَيُّ امرِئٍ مِن سَكرَةِ المَوتِ يُفلِتُ

عَجِبتُ لِمَن قَرَّت مَعَ المَوتِ عَينُهُ

لِحَصدِ الرَدى ما ظَلَّتِ الأَرضُ تُنبِتُ

(أبو العتاهية، قصائدُ حياةٍ وموت[1])

(1) Traduit par André Miquel. Sindbad/Actes Sud, 2000.

في الطائرة

كنت أُقلّ جان جينيه في كثير من الأحيان إلى مطار أورلي. ذات مرة، تركته في المطار وعدت إلى باريس، وبعد ساعتين، طُرق بابي، فإذا به جان. دهشتُ لرؤيته أمامي، فقلت: «هل أُلغيت الرحلة»؟ قال : «لا ، أبداً، لم تلغَ، بل إنّني صعدت إلى الطائرة، واتّخذت مقعداً، لكنّي غادرتها.»

ثمّ شرح لي أنّ رجلاً غريب الملامح كان يجلس بجانبه في الطائرة. فقلت : «جان، لا تقل لي إنّك غادرت الطائرة لأنّه كان إلى جوارك رجل رأسه الملامح، فليس هذا بالسّبب الكافي».

«أنت على حق، ليس هذاً سبباً كافياً، لكنّي سأوّضح لك الأمر، فأنا أعرف أنّ بوسعك أن تفهمني. تخيّل لو سقطت الطائرة وتحطّمت، ربّما احترقنا جميعًا، فاختلط رمادنا أنا وذلك الرجل، وهذا أمر لا أقوى على احتماله».

كلب

كنّا أنا وليدي نقضي ساعاتٍ بأكملها بعد الظهيرةِ في حديقة قصر فرساي مع جان غروجان. كانا يتحدّثان كثيرًا، لكن لم يكن في ما يقولان ما يمكن الاستغناء عنه. وكان غروجان يشبه في نقاشه شخصيّات قصصه: مفاجئاً على الدوام.

كان أكبر برنامج أدبيّ في فرنسا، طيلة سنوات، هو «Apostrophes» الذي كان يقدّمه برنار بيفو. ومن لم يُستضف فيه، فكأنّما لم يستقبله لويس الرابع عشر في قصر فرساي، فهو إذن لا شيء. وكثيراً ما كان برنار بيفو يدعو كاتباً بلا قيمة، ليكون ضيفاً وحيداً على برنامجه، ولكنّه دعا جان غروجان ذات مرة، بإلحاحٍ من دار نشر غاليمار، إلى جانب كتّاب آخرين، وأعطاه الكلام لثلاث دقائق أو أربع، لا أكثر. غير أنّه ينبغي القول أيضًا، إنْ أردنا أن نكون نزيهين كلّ النزاهة، إنّ جان غروجان لم يبذل أيّ جهد كي يحظى بالقرّاء، إذ كان يحذر الجموع. لكنّ كتبه ستبقى حاضرة زمناً طويلاً.

ليست أعمال جان غروجان يسيرة المأخذ، لكنّ نصوصه السرديّة بالغة الجمال، وأظنّ أن بوسع الجميع أن يقرأها، مثل تلك الصّفحات الرائعة التي كتبها عن المسيح.

أتذكّر نقاشاً قال لي فيه: «لقد ألّفت كتبي إمّا قبل الأوان بكثير أو

بعد الأوان بكثير، فلستُ منسجماً مع العصر البتّة». لم يحظ هذا الشاعر الهائل بأكثر من حفنةٍ من القرّاء، ولكن يجب القول إنّه لم يسع إلى الحصول على المزيد منهم، فقد كان يقول: «لو أردتُ أن أكون مشهوراً، لسلكت طريقاً مختلفاً.على كلّ حال، ما كنتُ لأتنفّضَ مثل كلبٍ بعد المطر، لأجعلَ الناس تتحدّث عني.»

لكنّ فكرة إرنست يونغر، الكاتب الهائل أيضًا، تنطبق بالضبط على أعمال جان غروجان: إنّ بيع مئة ألف نسخة من كتابٍ في شهر واحدٍ لأسهلُ من بيع ألف نسخة منه في مئة عام.

العار

كان في تلك الفترة أن جاءت إيلونغا لزيارة ليدي. كانت راقصة فلامنكو.

كنت أعرف إيلونغا منذ ولادتها، فأنا وأمّها أبناء عمومة من الدرجة الأولى. كنت آخذها بين ذراعيّ وهي رضيعة، وحين كبرت وصارت امرأة، جذبني جمالها وسحرها. وأحببت فرنسيّتها غير المتقنة ولكنْ بالغة الشاعريّة. ثمّ إنّها كانت راقصة فلامنكو بارعة.

دامت قصّتنا أقلّ من عام. كانت تريد منّي طفلاً وتركة أبي الذي كان قد توفّي حديثاً. لكنْ ما كانت تجهله، وأنا كذلك، أنّه لا حقّ لها في التركة وفقاً للقانون، مع أنّنا لم نكن قد تزوّجنا على الطريقة الغجريّة، بل بعقد زواج.

جنى أبي مالاً وفيراً من السيرك، ولكنْ عند وفاته، كانت ثروته قد تبخّرت. فأبناء أخيه جوزيف، وبعوْن كبير من أبيهم، كانوا قد اغتنموا ضعف أبي نتيجة تقدّمه في السن وفترة مرضه الطويلة، ليجرّدوه من كلّ شيء. فقد وقّع أبي، مُطْمئناً، كلّ ما قدّموا له من أوراق من دون أن يقرأها، ولم يدرك أبداً أنّه كان محوطاً بالجوارح التي لا تنتظر سوى موته. وحين حلّ ذلك اليوم الحزين، كان لا يملك شيئاً، وكنّا بعيدين عن التقليد الغجريّ في الميراث، الذي يقضي بإحراق كلّ ما يمتلكه الميّت.

حين عشت مع إيلونغا، أدركتُ سريعاً أنّ الأمر ضربٌ من الجنون. لست أبحث عن عذر، لكن كان لوالدة ليدي يدٌ في ذلك، فقد كانت المسكينة مريضة جدّاً، وكانت تعيش في إنجلترا، وحين أحسّت بقرب النهاية أرادت العودة إلى فرنسا وطلبت منا أن نجد لها بيتاً. وجدنا واحداً في بروفانProvins ، في المنطقة العليا. وحين جاءت لتسكنه، كان واضحاً أنّها لن تستطيع العيش بمفردها.

اقترحت ليدي أن نعيش معها، فسكنّا المنزل ثلاثتنا. كانت ليدي تعتني بأمّها من الصباح إلى المساء، بينما أدور أنا حول نفسي مثل دبّ في قفص. المنطقة العليا من البلدة جميلةٌ، فهي تعود إلى القرون الوسطى، لكنّ استكشاف معالمها لا يستغرقُ وقتاً طويلاً، وما زاد الأمر سوءاً، أنّ الجيران، من جهة اليمين عند الخروج من البيت، كانوا بغيضين.

بعد أن أمضيتُ عدّة أشهر في بروفان، عدت إلى باريس، إلى جادّة روششوار. كانت إيلونغا تعيش مع والديها في البناية ذاتها حيث أقيم، فكنت أصادف ابنة عمي كلّ يوم، وانتهى بي الأمر إلى الوقوع بين ذراعيها المفتوحين على اتّساعهما.

في حكايتي مع إيلونغا، لم أكن بيْن بيْن: أرادت زواجا رسميّاً، ففعلنا، وأرادت طفلاً فأنجبناه. كان كل شيء محسوباً، فما إنْ حمَلت حتّى طلبت الطلاق. كانت أمّها تطلب منها البقاء معي، بينما يشجعّها أبوها على الرحيل.

وحين أخبرتُ ليدي أنّني أريد العيش مع إيلونغا، لم تُبدِ ولو ذرّةً من غضب. قالت لي: «ستندم، الأمر شبه أكيد». لم تكن تعرف كم كانت محقّة. حين كنت ألقى والدَي إيلونغا في مدخل العمارة، لم نكن نتبادل

الكلام ولا التّحية حتّى، وأتذكّر أنّني قابلت والدها مرّة في الشارع، فهجم علي وتقاتلنا بضرواة.

بعد أيام من ذلك، وضعت إيلونغا حَمْلها في عيادة في ضواحي باريس، حيث اخترت لها أشْهر عيادة، وُولدت ابنتي.

وسط كلّ تلك القتامة، وصل أخيراً شعاعٌ من شمس، لكنّه لم يدم طويلاً، فقد رحلت إيلونغا لتعيش مع أهلها ومعها ابنتي.

كنت أنا وليدي نسكنُ في العمارة ذاتها، تفصلنا عن شقّتهم ثلاثة طوابق. وفي الأثناء، كانت والدة ليدي قد توفيّت، فكان أيسر الأمور أن أضمّ ابنتي تحت جناحي بما أننا نعيش في العمارة ذاتها. وفي اليوم التالي، حين طرقت باب الشقّة التي تعيش فيها إيلونغا ووالداها وابنتي، ظلّ الباب موصداً.

عدتُ لأطرقَ بابهم في اليوم الذي يليه، ولم يفتحوا لي. وكرّرتُ المحاولةَ على مدى أيام، فأدركت أخيراً أنهم يريدون معاقبتي. على ماذا؟ لست أعرف. فالوحيدة التي كان من حقّها أن تغضب هي ليدي، لكنها لم تفعل، بل شعرت بالأسى من أجلي، فقد كان لدي بنت صغيرة رائعة، هناك، لا تفصلني عنها سوى ثلاثة طوابق من البناية، لكنّهم كانوا يحولون بيني وبيْنها بسبب حماقتهم.

كنت متزوّجاً من إيلونغا، ما يعني أنّ لي بعضَ الحقوق بوصفي زوجاً وأباً، ولمّا كان العرفُ في قبيلتي يقضي بألّا نلجأ إلى القضاء، فلم يخطر ببالي أن أفعل، لكنّي لم أبق مكتوف اليدين. كنت كلّ يوم، محاكياً غاندي في سعيه لطرد الإنجليز، أطرقُ بابهم وأظل جالساً أمامه ساعةً أو ساعتيْن. كنت آمل أن أمارس بهذا الفعل بعض الضغط عليهم. ينبغي أن نصدّق أن

البريطانيّين كانوا أقل قسوة من تلك العائلة. فقد استمرّت في منعي من رؤية ابنتي.

كنت قد أخبرتهم أنْ ليس لديّ أيّ نيّة للهرب مع ابنتي، وأعرف أنّهم صدّقوني، لكن نيّتهم كانت بسيطة: إيذائي قدر الإمكان. وقد كان لهم ما أرادوا.

واصلت الجلوس أمام الباب. وفي أحد الأيام، علمتُ أنّ إيلونغا قد غادرت البناية وأنّها رحلت إلى هولندا بدون ابنتها. ولمّا كنت أواصل الجلوس يوميّاً أمام ذلك الباب اللعين، فقد خطر لي: بما أنّ إيلونغا لم تعد موجودة، سيسمحون لي أخيراً برؤية ابنتي.

كنت مخطئًا، فقد ظلّ الباب موصداً أشهراً اخرى. لكنْ حين رأوا أنّ ابنتهم لم تعد، فتحوا لي أخيرًا. فكنتُ، بعد الظهيرة من كلّ يوم، أحمل ابنتي بين ذراعي، وآخذ بيد ليدي لنذهب في نزهة في إحدى الحدائق إلى أن جاء اليوم الذي سَئِم فيه جَدّا ابنتي من العناية بحفيدتهما، فطلبا أن تبقى معي ليلَ نهار. ومنذ تلك اللحظة، عاشت ابنتي معي أنا وليدي.

لم أكن لِأمنع ابنتي من رؤية والدتها، ومن يفعلون ذلك بأطفالهم لا يستحقّونهم. غير أنني بسبب ما عشته في بُعدي عن ابنتي، ولأنّ إيلونغا قد تخلّت عنها، طلبتُ تحوّطاً الحقّ في حضانة ابنتي وحصلت عليه. كانت تبلغ من العمر عامين، وكانت تعيش معي أنا وليدي منذ عام. وحين عادت إيلونغا إلى فرنسا، وأقامت مع والديها مرة أخرى، أخذت تطرق باب منزلي كلّ يوم تقريباً لترى ابنتها بعضَ الوقت، ثمّ تعيدها لي بعد العصر.

وذات يوم قالت لي: «أنا راحلةٌ إلى إيطاليا، فهل توافق على أن تبقى ابنتي في حضانتي ستّة أشهرٍ في العام وفي حضانتك أنت الأشهر الستّة

الأخرى؟». ولمّا كنّا في قبيلتي ضدّ المدرسة، لا سيّما بصيغتها القائمة، فلم يكن ثمّة عقبةٌ تحولُ دون ذلك، فقبلتُ الاقتراح من أجل صالح ابنتي.

غادرت إيلونغا إلى إيطاليا مع ابنتي. وانقضت الأشهر الستة، فذهبت لاستعادتها، ولأن حضانتها كانت من حقّي، فإنّ ما حدث لم يخطر لي ببال. حين طرقت الباب، ظلّ موصداً. ها قد عدنا ثانية! أعترف أنني أُصبت بالحيرة. قلت لنفسي: «لا أحد يستطيع الزعم بأنّه يعرف أحداً حقّ المعرفة». عدت لأطرق الباب على مدى أيام، لكنّه ظل موصداً على نحو ميؤوس منه.

اتصلّت بليدي وشرحت لها ما حدث، فقالت: «أوّلاً، خيرٌ لك أن تعود، ثمّ نرى بعدها بهدوء ما ينبغي أن نفعل». عدت إلى فرنسا، وبعد حديث طويل مع ليدي قالت: «بما أن لديك الحقّ في حضانة ابنتك، فالأفضل أنْ توكّل محامياً هناك، وبما أن ابنتك في نابولي، فلتوكل محاميا نابوليتانيّاً». ركبت سيارتي وانطلقت إلى نابولي. فأنا في العادة لا أستقلّ الطائرة إلا إذا كانت المسألة مسألة حياة أو موت.

وصلت إلى نابولي، وذهبت إلى موعدي مع المحامي. وجدت نفسي أمام رجل يوحي بانطباع حسن. كان في الخمسين من العمر تقريباً، بسيط الهندام، يتحدّث بهدوء فرنسيّةً ممتازة، لا تتخلّلها أيّة كلمة إنجليزية. أخبرني أن القضاء في جنوب إيطاليا مختلفٌ عنه في شمالها، وقال: «ما دمت تملك حقّ حضانة ابنتك، فينبغي ترجمة الوثيقة إلى الإيطالية. ليس الأمر معقّداً، ولن يستغرق وقتاً طويلاً. ولكنْ، كي يتّخذ قاضٍ قراراً بإعادة ابنتك إليك، كان الأمر سيستغرق بضعة أشهر في شمال إيطاليا، أمّا هنا في نابولي، فسيستغرق ذلك من عشر سنواتٍ إلى خمس عشرة»، ثمّ أضاف: «إنْ كنت لا تصدّقني، فسأصطحبك فوراً إلى مكان ما، وعندها ستفهم».

خرجنا من المبنى، وركبنا سيّارة أجرة، قال للسائق: «إلى البورصة». سألته «ولماذا نذهب إلى البورصة؟»

«هنا، هكذا نسمّي ما يطلق عليه الناسُ في أماكن أخرى اسمَ قصر العدل». حين دخلناه، قلت له: «ما من داعٍ لأن نذهب أبعد، لقد بدأت أفهم». لكأنّنا كنّا في أحد الأسواق. كان المساء قد بدأ يهبط، فدعاني المحامي إلى العشاء. وفي الشارع الذي يقود إلى المطعم، توقّفت أمامنا سيّارة، خرج منها رجلان يحمل كلٌّ منهما بيده رشّاشاً، ورأيت رجلاً طليقاً يقفز من السيّارة، ويدخل أحد العمارات راكضاً، ما يعني أنّه لم يكن معتقلاً من الشرطة.

لا أدري إنْ كنت أنا من يجذب المواقف المستحيلة أم أنّ ما رأيته في نابولي كان هو ما يعيشه أهل المدينة يوميّاً. كنت جالسًا مع المحامي في شرفة المطعم، وكانوا قد هيأوا لنا المائدة توّاً، حين حطّمت سيارةٌ كبيرة مندفعة كالسّهم النافذةَ التي تفصلنا عن الشارع، ودهست الرجل والمرأة اللذين كانا يتناولان الطعام على الطاولة بجانبنا. وقد أصيبا بجراح خطيرة، أمّا سائق السيارة، فلم يصب شيء، ولكن بسماع ما كان يصرخ به غاضباً، فهمنا أنّ من دهسهما للتّو كانا زوجته وعشيقها. أنهيتُ والمحامي السهرة في مطعم آخر، وقال لي مُحرَجاً: «يؤسفني إخبارك أنّه إذا كنت تريد مني أن أعيد لك ابنتك، فإنّها ستكون قد بلغت سنّ الزواج حين تراها المرّة القادمة.»

عدت إلى فرنسا، لكنّني لم أكن قد استسلمت بعد. وخطرت لي فكرةٌ كان من الممكن أن تنجح. عدت إلى ضواحي نابولي، ووقفت عند مفترق طرقٍ حاملاً لافتة كرتونيةً تشرح قصّتي. وسرعان ما اهتّمت الصحافة بقضيّتي، فعرضتها صحف عدّة وقناة تلفزيونية محليّة على ما يبدو. خافت

إيلونغا من الفضيحة. فاتّصل بي موظّف من البلدية وحدّد لي موعداً لرؤية ابنتي أخيراً في مبنى البلديّة.

رأيت ابنتي عشر دقائق، فَكرَمُ إيلونغا لم يتعدّ ذلك، وقال لي موظّف البلديّة: «هذا الاجتماع مع ابنتك كان الأول وسيكون الأخير أيضاً، فهم لا يدفعون لي راتبي من أجل مراقبة طفلة.»

في اليوم التالي، كنت في شارع صغير. مرّت دراجة نارّية بجواري بسرعة فائقة. ولا أدري لماذا أدركتُ، في جزء صغير من الثانية، أنّ الدراجة آتيةٌ من أجلي. حاول الرجل الجالس في مؤخرة الدراجة أن يطعنني بسكّين في ظهري.

عرفت فيه الشخصَ الذي كان يعيش مع إيلونغا. لم يرغب ذلك الرجل، وهو نصفٌ رجلٍ نصفٌ قِرد، في التوقّف عند هذا الحدّ. ولأنّه لم يكن قادراً على الإطاحة بي أو مواجهتي، فقد أرسل لي شقيقه إلى الميناء مساءً، فتصارعنا مثل وحشين يسعى كلّ منهما إلى افتراس الآخر. عدتُ في اليوم التالي إلى فرنسا، وفي ذهني فكرة محدّدة للغاية: أن أخطف ابنتي.

أخذت ليدي تحدّث جميع من نعرفهم عن مشروع الاختطاف. كانت تقول لهم: «عليكم أن تثنوه عن ارتكاب هذه الحماقة.» أمّا جان-جاك الصغير، الذي كبر وصار رجلاً، فقد اتّصل بي ليقول: «يمكنك الاعتماد علي، إنْ لزم الأمر». ركبنا السيارة في اليوم التالي، وانطلقنا إلى نابولي.

كانت ابنتي تعيش خارج المدينة، وسط مخيّم للغجر. كنت أنا وجان- جاك عند مدخل المخيم. أدركت لأوّل مرة حجم المخاطرة التي كنتُ مقدماً عليها، إذ كان هناك كثير من الرجال المسلّحين، الذين لا يخشون شيئا. وكان من الممكن أن أتلقى رصاصة من مسدّس وكذلك ابنتي.

بقيت أنا وجان -جاك في السيارة لفترة طويلة دون كلام. وبعد صمت طويل، قال: «الكساندر، لم نقطع كلّ هذا الطريق من أجل لا شيء. هيّا بنا».

كنت أنا من يقود السيارة. دخلنا المخيم بسرعة مئة متر في الساعة مخلّفين وراءنا سحابة من غبار. وهجمنا على المكان الذي كانت فيه ابنتي وتصارعنا مع العديد من الرجال. وعلى الرغم من الضربات التي كانت تنهال علينا، تمكّنت من الإمساك بابنتي واحتضنتها بقوة، بينما تعلّق شابّان مثل دُبيّن جبليّين بظهري، لكنّي استطعت الخروج وقفزت إلى السيارة مع ابنتي. وتكفّل جان-جاك بإنهاء الأمر، طارحاً عدة رجال أرضاً قبل أن يلحق بي ويقفز إلى السيّارة وهي تنطلق، وولّينا هاربين. لولا -جان جاك، لكانوا أشبعوني ضرباً ومن يدري، لربما قتلوني، فقد حاولوا بالفعل. وكما يقول المثل الغجريّ:

«المستحيل يحدث.»

توقّعت حدوث مواقف كثيرة في هذه القضية الحزينة، لكن كما هو الحال في الحياة غالباً، فما لم أتوقّع هو ما وقع لنا بعد ذلك. فحين أبلغت إيلونغا الشرطة والصحافة بأنّني سرقت ابنتها منها، أخرج الصحفيون الصور التي التقطوها لي عند المفترق مع لافتتي الكرتونية.

ولئن كانت العدالة بطيئة في جنوب إيطاليا، فإنّ الشرطة ليست كذلك. كانت هناك حواجز تفتيش في كل مكان، ولم يكن من الممكن الخروج من المدينة. وفي الشارع، كان الناس يشيرون إليّ. أمسكتنا الشرطة أنا وجان-جاك كما يُمسَك الأطفال. كان من الجنون أن نقاومهم، فتركناهم يقتادوننا إلى مركز الشرطة.

وُضع جان-جاك في غرفة، وأنا في أخرى. كان اثنان من رجال الشرطة يمسكان بي بقوّة عندما دخل رئيس المركز إلى الغرفة. تقدّم نحوي وهو يصرخ. كنت أتوقع الأسوأ، لكنّه أخذ بذراعي قائلاً بالفرنسية: «يؤسفني ما يحدث لك، أنا آسف جدّاً.»

لم أتوقع على الإطلاق مدى صعوبة الخروج من إيطاليا، ولا أن يُخرج الصحفيون صوري التي كانت لديهم. قالي لي رئيس مركز الشرطة: «ستبيتان هذه الليلة في السجن، هذا غير منصف، لكن الأمر ليس بيدي، إنّه القانون».

بوذجوريالي[1]

مُنعت ابنتي من رؤية والدها، ومنعتُ من رؤية ابنتي. ولكن الأمر كان مختلفاً في ذهني: كنت ذاهبًا إلى جنوب إيطاليا لأخلّص ابنتي. لم أكن أفكّر تفكيراً سويّاً. وإليكم كيف عرفنا أنا وجان-جاك سجن نابولي المشؤوم؛ سجن بوذجوريالي.

كنّا خمسة عشر رجلاً في طابور في الممرّ. ورائي جان- جاك وخلفه رجال آخرون. وأمامي شابّ نابوليتانيّ، يسبقه رجلان من شمال إفريقيا. دخل الرّجل الأوّل إلى غرفة واسعة، بمقدورنا رؤية ما يحدث فيها من الممرّ. كان الحرّاس خمسة أو ستّة. هجموا عليه بوابل من الضربات، وأسقطوه على ركبتيه ليتلقّى سلسلة من الركلات. لم أر أبداً شخصًا يرتجف مثل الشاب الذي كان أمامي. قال لي: «سيفعلون هذا بنا».

دخل الرّجل الثاني الغرفة، فتلقّى المعاملة ذاتها. كان الشاب يبكي، وينادي أمّه، فعانقته قائلاً : «لا بدّ أنّ هذين الرجلين قد ارتكبا أمراً فظيعًا».

جاء دوره ليدخل الغرفة، ولكن حين أصبح وسط الحراس، لم يحدث شيء. شعرت بالارتياح أخيرًا، لأنّ ما ظننته بشأن الرجلين كان صحيحاً. لقد أحسنتُ التخمين. دخلت الغرفة مطْمئنّاً، لكن الحرّاس هجموا عليّ، ومثل

---

(1) سجن معروف في مدينة نابولي الإيطالية ، يحمل اسم الحي الذي يقع فيه. (المترجم).

الرجلين من شمال إفريقيا، تلقيّت الكثير من الضربات. وللإجهاز علي، ركّعوني وتلقيت بضع ركلات قويّة في أكثر موضع يخاف الرجال عليه.

اكتشفت لاحقاً، في الزنزانة، سبب معاملة بعض الرجال على هذا النحو. حين يظنّ الحرّاس أنهم سيتعاملون مع مشاكسٍ عنيد، يقرّرون كسر شوكته منذ اليوم الأول.

أُطلق سراحنا في النهاية. فعندما سألني القاضي ، «هل أنت الأب؟» أتذكّر أنّني أجبته: «لا، يا سيدي القاضي، لست الأب، أنا الأمّ، فأنا من يتولّى أمر قناني الرّضاعة وتغيير الحفّاظات».

حين خرجنا من السجن، أخذ جان -جاك يتقافز في الشارع فرحاً كطفل، وهو يصرخ: «أنا حرّ، أنا حرّ!» أوقفنا سيّارة أجرة وقلت له: «سنذهب إلى أجمل فندق في المدينة». كان ينبغي ذلك من أجل أن نمحوَ ما عانيناه منذ قليل. كنت أحدّث نفسي قائلاً: لقد زجيّتَ برجلٍ أسودَ في السجن، شأنُك شأن أسوأ الرجال البيض.

لم أتعلم في ذلك السجن شيئًا عن الحياة، ولكنْ ثمّة أمر أدهشني: كان الطعام الذي حصلنا عليه ممتازًا. أظنّ أنهم في جنوب إيطاليا، لن يتمكنوا، حتّى لو أرادوا، من صنع طعام رديء. ورأيت أيضًا أنّ معظم الرجال الذين كانوا في السجن، ما كانو ليدخلوه لو لم يكن لهم أب مدمنٌ على الكحول وأمٌّ تُضرَب، ولو أنّهم تلقّوا من آبائهم رعايةً أفضلَ قليلاً.

عدت أنا وجان-جاك إلى فرنسا. وبناءً على نصيحة من بعض الأصدقاء، رفعت دعوى قضائية بتهمة عدم احترام القانون، فاختير طبيب نفسيّ لمعرفة ما إذا كنتُ قادرًا على تربية طفل. عندما وقفت أمامه، كنت أكثر الرجال شفافية وحياديّة ومطاوعةً في العالم.

حين سألني : «هل تحبّ الرياضة؟» أجبت:

- «كثيراً».

«أيّة رياضة»؟

- «جميع الألعاب الرياضية، كرة القدم والتّنس وألعاب القوى والرُّجبي».

«وما رأيك في الموضة؟»

- «أحبّها كثيرًا، فهي تساعد المرء على أن يكون أنيقًا، وهذا أمر مهمّ».

«هل تصوّت في الانتخابات؟»

- «بالطبع، علينا أن ندعم قادتنا السياسيين، إنّهم يستحقون ذلك».

كان كلّ ما قلته زائفاً، حيث قلت له بالضبط عكس ما اعتقد. «لقد التزمت -كما يقولون - باللباقة الاجتماعية».

قالت لي المحامية التي تولّت قضيّتي: «إنّ الصورة التي رسمها لك الطّبيب فظيعة. لقد وقعنا على شخصٍ أحمق. ولأنني أعرفك قليلاً، فأنا على يقين من أنّك لم تخبره بأيّ شيء قد يصدمه. في الواقع، لقد حَكم عليك بناءً على التقرير الذي قدّمتْه له المحكمة. إنّ رجلاً يذهب أكثر من مرّة بالسيارة إلى نابولي لرؤية ابنته لهو رجل مريب، خاصّة إذا أضفنا إلى ذلك أنّه دخل السّجن. لقد تجاهل كليّةً الظّلمَ الذي لحق بك وحقيقةَ أنّ ابنتك ستحرم من أبيها».

في المحكمة

تزامنت هذه القصّة المؤلمة التي عشتها بسبب إيلونغا مع أسوأ لحظة في حياة والدها. كان الرجل لاعبَ خفّة استثنائي، بالغ الأناقة. وقد اضطر للتوقف بسبب تقدّمه في السنّ. فأنشأ مع زوجته بقّالة للمنتجات الغذائية الإيطالية. فألفى نفسه، هو الذي كان يؤدّي فقرة من ألعاب الخفّة لا تزيد عن ثماني دقائق أو عشر ويعيش في كرافان، أيْ في الهواء الطلق، بين عشيّة وضحاها، مع زوجته بين أربعة جدران، يؤديّان عملاً لا يناسبهما.

شعرا كأنّهما في الجحيم، فباعا البقّالة وافتتحا مطعمًا. ولم يكونا يعلمان أن المطعم هو أسوأ الأعمال التجارية. فجنّ جنون الاثنيْن، ومثل معظم الضعفاء، أضمر هذا الفنّان الرائع الحقدَ للعالم بأسره، فبتنا جميعاً مسؤولين عن إخفاقاتهما. ووقعت مشكلتي مع ابنتهما في تلك الآونة، فعذّب هذا الرجل نفسه بغباء في مواجهة موقف عاديّ جدّاً في نهاية المطاف، فمن ذا الذي لا يجرّ وراءه إخفاقاً أو أكثر؟ لم يكن يكفّ عن القول : «لم يعد لديّ مال، أنا لا شيء».

إنّني على يقين أنّه لو كان في وضعٍ طبيعيّ لقال لابنته-فقد كان له سلطة عليها ولم يكن رجلاً سيئًا-: «اهدأي، لقد تجاوزتْ هذه القضية الحدّ. فحتّى لو كنت تشعرين بالكراهية، فهذا ليس سبباً كافياً لمعاقبة ابنتك»، لكنّه لم يفعل.

عرفتُ فيما بعد أن زوجته دافعت عنّي، لكن من الواضح أنها لم تنجح في ذلك. عندما بلَغت ابنتي الثالثة عشرة، ثمّ الرابعة عشرة، استعدت الأمل. قلت لنفسي: في مرحلة المراهقة، يطرح معظم الصغار على أنفسهم الأسئلة، ويعارضون ما يُلقّنون. ستشكُّ ابنتي بما قالته لها والدتها لسنوات عديدة. لذلك، انتظرت شهوراً طوالاً، لكنّ ابنتي لم تظهر.

انتهى بي الأمر إلى التفكير بأنّه حالما تبلغ الثامنة عشرة من العمر، سأرغمها على المثول أمام المحكمة وسأشرح لها الأمر أخيراً. وصل اليوم الذي طال انتظاره. كنت في المحكمة، وابنتي كذلك، لكنّني لم أستطع الاقتراب منها، بل لم ألمحها حتّى، لكثرة الاشخاص الذين أحاطتها بهم أمّها. كان بوسع ابنتي أن تغادر المجموعة، لكنها لم تفعل. وكان لأمّ ابنتي أن تتنفّس الصعداء، فقد جرت الأمور كما أرادت. لكنْ كان ينبغي على ابنتي أن تسأل نفسها السؤال: «لماذا تبذل أمي كلّ هذا الجهد كيلا أحظى بتفسير من أبي؟» كان ينبغي أن تقول لنفسها: «إنّ لأسوأ المجرمين الحقّ في الدّفاع عن أنفسهم. فأين هو دفاع والدي؟ فأنا لديّ فقط رواية أُمّي للأحداث».

غير أن ردّ الفعل هذا، الذي يقتضيه الحسّ السليم لم يصدر عنها. اليوم، أعرفُ تمام المعرفة أين تعيش ابنتي، لكنّني لا أحاول ولو رؤيتها مرّة أخرى، لأنّني أشعر بخيبة الأمل، خاصّةً وأنّني فعلت حقّاً الكثير من أجل العثور عليها. ولست أنسى أنّني كدت أُقتل، ودخلت السجن من أجلها. من الآن فصاعداً، لن أفعل شيئاً، بل الأمر أسوأ، لستُ أريد رؤيتها مرّة أخرى، مؤثّراً الاحتفاظ بالذكرى الرائعة لبنت صغيرةٍ جميلة كانت تنام في حضني.

في أحلامي الأكثر جنوناً، أسمع ابنتي تقول لي: «يا أبي، أعرف كلّ ما ألحقوا بك من أذى. منذ اليوم، لن نفترق».

ستكفّ عن الغناء

كنت في حالة اكتئاب منذ أشهر، لم أعد أجد خلالها، حين احتضن عودي، أيّ معنى لموسيقى رقصة الطاووس التي كنت أحبّ عزفها. أتذكّر أنّني فتحت حقيبة عودي، ووضعته فيها وقلت: «لن تغنّي بعد اليوم».

بعد سنوات، حاولت أن أفهم فعلتي هذه. أظنّ أنني عاقبت نفسي على عجزي عن استعادة ابنتي.

كان أصدقائي يعلمون أنّه في السيرك لا يمكن للمرء البقاء جالساً في كرسيّه مكتوف اليدين، فريسة للأفكار السّوداء، لأنّ حجم العمل عظيم. وكانوا يقولون: «كان لديك مشروع سيركٍ جميل مع صديقك الشاعر، فلماذا لا تنفّذه؟ إذا بقيت في كرسيّك، سينتهي بك الأمر متدليّاً من طرف حبْل».

بدأنا التفكير، مع ليدي، في إقامة سيرك. وكنّا كلما أمعنا التفكير في الأمر، اتّضح لنا أكثر أنّه ينبغي أن يكون سيركاً صغيراً مع خيمة صغيرة، على العكس من الخيام الشائعة هذه الأيام، الأشبه بعنابر الطائرات.

وبدا جليّاً أنّنا لن نتمكّن من صنع العروض التي تخيّلناها أنا وجان، فقد كانت معقّدة أكثر مما ينبغي وصعبة التنفيذ. فرضت فكرةُ إقامة سيركٍ غجريٍّ صغير نفسها. فلم يكن هناك وجود لسيرك من هذا النوع، وتوقّعنا أن نكون أنا وليدي أكثر راحة في العمل ضمن ثقافتنا.

عندما وُلد سيركُ رومانس، وصار يحدث أن أدلي بتصريحات

للصحافة، اعتدت أن أقول: «أنا لا أحبّ السيرك». لم يكن ذلك صحيحًا، ولكن بما أنني لم أكن أرغب في أن أقول لماذا أقمت سيركاً، فقد كنت أقدّم هذا التفسير من أجل تبسيط المسألة. وكنت أقول أيضاً : «أنا أكبرُ ربٍّ عملٍ صوريّ في البلاد.»

سرعان ما طرحنا، مع ليدي، مسألة الاسم. وكانت هي وراء فكرة تسميته «رومانِس»، ليس فقط لأنّ الاسم جميل، وإنّما لكونه أيضاً اسم لغةِ الغجر. أما أنا فقد أضفت عبارة «سيرك عربيّ-غجريّ». واستعنت في ذلك الوقت من أجل تسهيل الإجراءات والحصول على الأوراق الرسميّة بشاب فرنسيّ من أصل جزائريّ. كنا نتبادل الأحاديث كثيراً، ولأنّه كان شديد الذكاء، لم أكن استخفّ بما يقول. وحين قلت له: «سنطلق على السيرك اسم «رومانِس، سيرك عربيّ-غجريّ»، فبالإضافة إلى العائلة، معي بعض العرب»، عارض على الفور، هو الذي لم يكن مفرطاً في المجاملات، هذا الاسم قائلاً: ««عربيّ- غجريّ»! سيكون هذا بمثابة أداة فرزٍ تعمل ضدّنا. حين يشتدّ عود السيرك، يمكنك أن تضع عبارة «سيرك عربيّ- غجريّ»، بل وأن تضيف «يهوديّ» إذا أردت، أمّا اليوم، فلا ينبغي فعل ذلك».

لم يقنعني، لكنّني مع ذلك، اتّبعت نصيحته. وكان من حسن الحظّ أنّني فعلت، ولكن لأسباب أخرى، ذلك أنّ الفتيان المنحدرين من أصلٍ عربيّ الذين كانوا معنا كانوا يقدّمون فقرات استثنائية، وكانت السيركات الكبرى كلّها تريدهم، فكانوا يتلقّون واحداً تلو الآخر عروض عملٍ يصعب رفضها، لكنّني احتفظت بهم لمدّة عام، ما مكّنّا من الجمع بين فقراتهم والفقرات التي تقدّمها العائلة.

لن أستطيع أن أفيَهم حقّهم من الشكر أبداً، إذ كانوا كلّما عُرض عليهم الانضمام إلى سيرك كبير، طلبوا مني أن أختار لهم. وكانوا يتّصلون بي على مدى سنوات قائلين: «أبانا، هل تريدنا أن نعود؟»

أب ـ أبناء، أمّ ـ ابنة

كانت ليدي قد وافقت على مساعدتي في إقامة السيرك، ولكن ما إنْ أنجزنا ذلك، حتّى عدلت عن رغبتها في أن تكون جزءًا منه. كانت هذه أولى المصاعب.

حاولت إقناعها بالبقاء معي، لكنها أصرّت على موقفها. ثمّة شيء واحد مؤكّد، هو أنني وجدت مشقّة في الإحاطة بجميع الصعوبات التي كانت تنتظرني، إذ كانت المهنة قد تغيّرت كثيرًا، وصار عمل السيرك معقّداً إلى حدّ كبير بسبب الأنظمة والأوراق الرسمية التي لا تطاق. حين كان والدي يمتلك سيركاً، كان على سطح سفينةٍ بين رجاله، مثل قبطانٍ من الزمن الغابر، أمّا اليوم فيقبع صاحب السيرك في مكتبٍ من الصّباح إلى المساء، لكنّني لم أمتثل قطّ لهذا الشرط الغبيّ.

وقد قلت في أحد كتبي: «حين أدخل مكتباً، يبلغ يأسي ذروته». في السيرك ، نحن آخر أناسٍ يمارسون نقل الخبرة من الأب إلى الابن ومن الأمّ إلى الابنة، وهذا أمر جميل. لكنهم يفعلون اليوم كلّ شيء لمنعنا من ذلك.

❁

مع إنشاء سيرك صغير، بتّ أقل تفكيراً بابنتي، لكنّني وجدت نفسي أمام العديد من المصاعب التي لم تخطر لي ببال. لقد ولّى الزمن الذي

كنت أمضي فيه إلى شوارع باريس مع سلالمي أو مع عودي لكسب بعض المال. كان هناك العديد من مخيّمات الغجر في ضواحي باريس. زرتها جميعًا بحثاً عن عازف كمان، وعازف أكورديون، وعازف كونتر باص، ومغنّية، وبعض الشبّان للتدرّب على العروض. عثرت على العازفين والشبّان بسهولة، وظلّت المغنيّة.

كان عازفون قد حدّثوني عن فتاة غجريّة جميلة، حسنة الصوت، تعيش في مخيّم شمال باريس، حسب ما قالوا. بحثت عنها كثيرًا، لكنّي لم أجدها. لذلك، جمعتُ الفرقةَ الصغيرة في المخيّم نفسه وبدأنا التدريبات بدون المغنّية.

كانت الحياة قد باتت شديدة الصعوبة بالنسبة للقبائل الغجريّة التي كانت تترّحل منذ قرون في البلقان. ففي رومانيا، حظرت الحكومةُ الترّحل وصار العيش في المنازل أو الشقق إجبارياً. كانت السلطة تعلنُ بصوت عال: «الله غير موجود»، ولم تتأخر النتيجة كثيراً، فقد غرق ثلاثة أرباع الرجال في قبيلتي في إدمان الكحول.

يقول إرنست يونغر: أزال البشرُ اللهَ. لِم لا ؟ ولكن كان ينبغي أن يَحلّ محله من هو أفضل. فأين هو الأفضل؟

كان هذا كلّه ماثلاً في ذهني وأنا أحاول إنشاء سيرك صغير بجماليّات غجريّة. لم يكن الأمر سهلاً، خاصة وأنّ مشروعاً غجريّاً، لا يمكن أن يكون مضمون النجاح مقدّماً.

كان الرومانيّون، الذين يتمتّعون بحسّ الدعابة يقولون: «غريبٌ أمر الغجر، يضعون الخيول في الشُقق، ويعيشون هم خارجها».

ذهبُ يديها

كنا نجري التدريبات كلّ يوم من أيام الأسبوع. وفي أحد الأيام، كنت أعبر مخيّم الغجر في نانتير بالسيارة، سالكاً طريقاً تناثرت على جانبه كرافانات صغيرة متهالكة، حين مرّت امرأة شابة أمام سيارتي. فتحتُ النافذة وسألتها ما اسمُها وماذا تفعل؟ فأجابتني بلكنة شرق أوروبيّة قويّة: «اسمي دِليا، وأمارس الشقاء على هذه الأرض». ونظرت في عينيّ مليّاً: «سيعجبني كثيراً أن أمارس الشقاء معك». فتحتُ باب السيارة، فصعدت وغادرنا.

تفاهمنا سريعاً، كأنّما نعرف بعضنا بعضاً منذ الأزل. ومع ذلك، لم نكن من القبيلة نفسها.

كان الوقت مساء، غادرنا وعدنا في صباح اليوم التالي، وبما أنّنا أمضينا الليلة معًا، فقد صرنا زوجين في نظر قبيلتها وقبيلتي. كانت تعيش في كرافان صغير بلا ماء ولا كهرباء، نوافذه مهشّمة، أصلَحَتها بقطعٍ من الورق المقوّى. لكنْ سرعان ما عثرت لها على كرافان في حالة جيّدة وعشت معها وطفلاتها الثلاث. كان زوجها قد تركها منذ وقت قريب من دون أوراق ثبوتيّة أو مال، وهي في العشرين من عمرها. كانت تقول حين تتحدّث عنّي : «هذا الغجريّ الفرنسيّ، اللهُ من بعثه إلي».

الغجريّة المجريّة الحسناء، التي وُهبت صوتاً جميلاً، وكنت أبحث عنها منذ أشهر كانت هي.

إنّها طفلة

كانت الحدود بين شرق أوروبا وغربها مغلقة بإحكام، فلا يستطيع عبورها أحد، وكان الصحفيون يطلقون عليها اسم «الستار الحديديّ». لم يتمكّن سوى عددٍ قليل من الغجر الشبيهين بالثعالب والذئاب من عبورها مخاطرين بحياتهم.

كانت دِليا قد ضاقت ذرعاً بأولئك النّاس الذين، لأتفه الأسباب، يشهرون مسدسًا ويقتلونك في الشارع. فاض بها الكيل، فاجتازت مع بعض أبناء عمومتها الجسورين حدود بلدان عديدة، وعبرت نهر الراين كي تأتي للعيش في أوروبا الغربيّة، حيث كانت تنتظرها مصاعب أخرى.

مثل إيلونغا وليدي، كان لدى دِليا مواهب شعريّة. وكان هناك بناتها: فلورينا، وماريا، وسورين. كنّ رائعات، ولأنهن لم يلتحقن بالمدرسة، فقد قضيت الكثير من الوقت معهن. كانت دِليا تعرف الكثير من النساء، وكنّ يأتين إلى الكرافان لسؤالها إنْ كانت بحاجة إلى المساعدة.

كانت قد رُحّلت إلى الحدود ثلاث مرّات. فلم تعد تغادر المخيّم. كانت مرعوبةً، وحين تمكّنتُ من جعلها تخرج إلى الشارع بعد مناقشات طويلة، ظلّت تسير بمحاذاة الجدران. كنّا بعيدين عن ثلاثية **الحريّة، والمساواة، والإخاء.**

كان من يعرفون دِليا يقولون: «هي طفلة بين طفلاتها». وكانت جمعية خيّرية تأتيها بملابس كلّ أسبوع، فقد كانت تستخدم الكثير منها، فحين تتّسخ ملابس أطفالها وملابسها كانت ترميها، إذ لم تكن تغسل شيئًا.

كنت أحبّ أيضا طريقتها في إطعام صغيراتها. في الكرافان المضاء بشمعة، كانت تقطّع شرائح الخبز ودوائر النقانق وتلقي بها إليهن، فيلتقطنها في الهواء، وحين يخفقن في الإمساك بقطعة النقانق الدائرية، يأخذن يفتّشن عنها في الظّلام على أرضية الكرافان. كانت تلك تربيةً مختلفة.

ذات مساء، في كرافانها الصغير، ركَعَتْ، ووضعت على صدرها العاري صليبًا كبيرًا ثُبّتت عليه صورة المسيح، ثمّ رفعت بصرها إلى السماء. ففكّرت: «لزامٌ عليّ أن أهبها طفلاً».

غجرُ أوروبا الشرقيّة

قضيت أشهراً مع دِليا في مخيم نانتير، وحين أخلته الشرطة، أقمنا الكرافان لبضعة أيام في معسكر جنفيليه، ثمّ انتقلنا من هناك إلى مخيّم آخر في منطقة باريس، على مرتفعات مونماني. كان هذا المخيم مقسوماً إلى قسمين: الغجر الفرنسيّون من ناحية، وغجر أوروبا الشرقية من ناحية أخرى.

صرتُ مُضغة على ألسنة الغجر الفرنسيّين، إذ كانوا يقولون: «إنه مثلنا، فماذا يفعل بينهم؟» بينهم، كان هناك تضامنٌ وروحٌ مرحة، وبهجةُ حياةٍ، وموسيقى حول النّار كلّ مساء، كانوا يغنّون ويرقصون، الأمر الذي بات، يا للأسف! نادراً بين الغجر الفرنسيّين، الغارقين في أضواء كرافاناتهم الجميلة وسياراتهم الرائعة، موهِمين الآخرين خطأً- فهذا كلّ ما يملكون- أنّهم أثرياء، في حين أنّهم ليسوا كذلك.

يتسبّب سوء الفهم هذا بأذىً كبير لقبيلتي، فكون الكرافانات مطليّة بالأبيض، يجعل المرء لا يرى غيرها في متنزّه أو في حقل. لو أنها فقط كانت خضراء مثل عرباتنا القديمة! على ما يبدو، لا أحد يفكّر في هذا، مع أن الأمر سيكون منطقيّاً. لكنّ المجريّين والرومانيّين كانوا يؤكدون بقسوة على الهوّة بين الغجر في الغرب والغجر في الشرق، وحين كانوا يرون الغجريّات الفرنسيّات في تنانيرهن القصيرة والسراويل أو الجوارب الطويلة اللاصقة أمام الرجال، وأنهن علاوة على ذلك فقدن الحشمة في المشاعر، كانوا يقولون: «يا الله! لم يعد هناك أيّ شيء مشترك بيننا».

كنت قد اخترت مُعسكري، فبما أنني أؤثر الشاعريّة دائماً، فقد عشتُ مع غجر الشرق.

أولئك الذين أتوا من السهوب.

*

أمام مخيّمنا، كان هناك سيرك صغير. كان الطقس شديد البرودة منذ أيام، حيث انخفضت درجات الحرارة إلى ما دون الصّفر بكثير. كنّا نتجمّد جميعنا.

وذات ليلة، دخل الشباب من المخيّم إلى الخيمة الصغيرة التي لم تُقرن بكرافان، ما يعني أن ذلك السيرك لم يكن مأهولاً، ففككوا مدرّجه الخشبي ليصنعوا منه حطباً للتدفئة.

في صباح اليوم التالي، عندما وصل مدير السيرك ولم يجد مدّرجه، سأل الأطفال الذين كانوا يلعبون أمام السيرك إنْ كانوا يعرفون من أخذه، فأشاروا إلى المخيّم قائلين «أيّها السيّد، كان الجوّ باردًا الليلة الماضية، فتدفأنا على الأخشاب».

اتّصل المدير على الفور بمفوّض الشرطة الذي حضر شخصيّاً. تظاهر مدير السيرك أمام المفوّض بتمزيق شعره، وأشار إلى المخيّم: «إنّهم هم، في تلك الليلة، أخذوا كل شيء ليتدفّأوا». كان يطلق الصرخات مثل دابّة. فقال المفوّض: «إهدأ يا سيّدي! ليست هذه بالمسألة الخطيرة جدّاً». المدير: «كيف ذلك، ليست خطيرة جدّاً؟ من سيعيد لي المدرّج؟» المفوض: «أتعرفُ إلى أيّة درجة انخفضت الحرارة تلك في الليلة؟ بما أنّ الطقس كان شديد البرودة، فقد كان هؤلاء الفقراء محقّين في أخذ مدرّجك الخشبيّ لكي يتدفّأوا».

كان مدير السيرك يختنق وتضرّج وجهه بالحمرة، حتّى خلت أنّه سيُصاب بنوبةٍ قلبيّة.

المذياع

في مخيّم مونماني، كان هناك فرقٌ موسيقية عديدة في المساء، حتّى أنّنا كنّ نحتار أنا ودِليا في الاختيار من بينها. فعلى بعد كرافانين منّا، إلى اليمين، كان هناك من يعزفون الموسيقى الغجرية المجريّة، وإلى اليسار، أبعد قليلاً، آخرون يعزفون الموسيقى الغجريّة الرومانية، فيما كان بوسعنا أن نسمع، على مرمى حجر، فرقةَ آلاتٍ نحاسيّة صِربيّة، وعازفي كمان في كلّ مكان تقريباً.

وكنّا نرى من وقت لآخر ثلّة من الأطفال يتراكضون مثل سرب من عصافير الدوريّ، والشّباب يرقصون حول النّار في المساء. كان ثمّة ابتهاج كثير بالحياة، ولكنْ في يوم من الأيام، دخل غجريّ فرنسيّ إلى معسكر الغجر الشرقيّين، بغرض بيعهم مذياعاً. اقترب من جماعة من الرجال الذين بدوا مهتمّين بالأمر وفي أثناء النقاش انتقل الراديو من يدٍ إلى يد، وعند لحظة معيّنة، قال الغجري الفرنسيّ : «أين مذياعي»؟ فقال له غجريّ مجريّ : «أيّ مذياع؟» فلَكَمه الفرنسيّ بعنف وأسقطه أرضاً، إلّا انّه وجد نفسه وحيداً في مواجهة أكثر من عشرة رجال، فأوسعوه ضرباً حتّى الموت.

ولكن ماذا يفعلون بالجثّة؟ خصوصاً وأنّ عائلة الرجل لم تكن بعيدة على الأرجح. وستبحث عنه بالتأكيد حين تكتشف أنه لم يعد. خطرت

للقتلة فكرة: لفوا الجثّة في سجّادة، ورموها تحت جنح الليل في مكبّ نفايات البلدية.

في الصباح، لمح الأطفال المارّون يدًا تبرز من السجّادة وتتحرّك. أُبلغ رجال الإسعاف، فنقلوا الرّجل إلى المستشفى. كان أبناء عمومته وإخوته ينتظرونه مدجّجين بالأسلحة. لم نشهد أنا ودِليا المجزرة، لأنّنا كنا قد غادرنا مع السيرك. سقط العديد من القتلى على ما يبدو، ولم تعرف الشّرطة عن الأمر شيئاً.

لحظة جنون

حين بدأت حياتي مع دِليا في مخيّم مونماني، كانت قد انعقدت صداقة بينها وبين غجريّة مجريّة اقترحت عليها الرحيل معها إلى كندا من أجل كسب المال، لكن الشكوك كانت تساور دِليا فاحتارت في أمرها: هل ينبغي أن ترحل إلى كندا مع صديقتها أم تدير سيركاً معي في فرنسا؟ ثمّ وجدت الحلّ: أن نرحل ثلاثتنا إلى كندا.

غير أنّه لم يكن من الوارد عندي مغادرة فرنسا التي أحبّ كثيراً، لأعيش في أميركا الشماليّة، التي لا تستهويني. وفي لحظة جنون، تفاوضَت دِليا مع غجريّ وزوجته على إعادة طفلاتها الثلاث إلى رومانيا، فالسّفر إلى كندا شيء، واصطحاب ثلاث صغيرات أمر آخر. كانت تقول: «سأستقدمهن، بعد أن أصبح ثريّة». وكأنّما ترمي زجاجة في البحر.

كنّا في فصل الشتاء والسماء تمطر طوال اليوم في المخيّم، والليل يوشك أن يحلّ؛ ليلٌ حالك كثيف. توقفّت سيّارةٌ أمام كرافاننا وخرجت منها امرأة. غادرت دِليا الكرافان ومضت للقائها. كانت أقدامهما غائصةً في الطين. خرجتُ من الكرافان لأتبيّن الأمر. كانت ريح جليديّة تلفّنا. ولست أعرف شيئاً أكثر إثارة للكآبة من مخيّم للغجر، ليلة شتاءٍ، في ضاحية بائسة.

كانت دِليا قد رتّبت كلّ شيء من وراء ظهري. لم أكن أعلم أي شيء. أخذت طفلتيها الصغيرتين بين ذراعيها، بدون أن توقظهما، ووضعتهما في مقعد السيّارة الخلفيّ. لم تكن فلورينا، ابنتها الكبرى، نائمة. كانت في

سنّ السادسة. دخلت السيارة بابتسامة كبيرة، مقتنعةً بأنّها إنّما تعود إلى قريتها مع والدتها.

ما إنْ جلست في السيارة، حتّى أدركت أنّ والدتها لا تسافر معها. فخرجت من السيارة وركلت الباب بعنف، ثمّ ألقت نفسها في الوحل وهي تصرخ. أنهضتها دِليا والمرأة وأعادتاها إلى السيارة.

كفّت البنت الصغيرة عن الصراخ والاحتجاج. كانت مثل أولئك المحكومين بالإعدام الذين تركوا أنفسهم يُقادون إلى الجلاّد دون أن ينبسوا بكلمة لِعلْمهم أنّه لا جدوى من الصرخات.

كنت أحاول أن أعيد دِليا إلى رشدها، قائلاً: «لا يمكنك أن تهجري طفلاتك». لكنها لم تستمع إليّ. فماذا عساي أفعل؟ كنّ طفلاتها، لا طفلاتي. رأينا السيّارة تبتعد في الليل. وعدنا إلى الكرافان المتجمّد. اشعلتُ النار، وأعدّت دِليا القهوة. كانت مطأطأة الرأس، فقد بدأت تقدّر الضرر الذي ألحقته توّاً بالصّغيرات وبنفسها. وبدون أن تنبس بكلمة، جلسَت على ركبتيّ وأجهشت بالبكاء.

كنت قد عشت للتوّ واحداً من بيْن ثلاثة مشاهد أو أربعة هي الأشدّ إيلاماً في حياتي.

بعد بضعة أيام، قالت لي دِليا: «كان من الجنون إرسال الطفلات إلى رومانيا. يجب إعادتهن في أسرع وقت». ولكن لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لها، لأنّها كانت تحمل وثائق شخصية رومانيّة، وفي ذلك الحين، لم يكن ذلك أفضل ما يمكن كي يستطيع المرء عبور الحدود.

لذلك، حاولنا الحصول على الوثائق المناسبة، وحسب الأصول، غير أنّ كلّ طلباتنا أخفقت. فلم يكن هناك سوى حلّ واحد، هو إعادتهن بطريقة غير قانونية. وبما أنّه كان لديّ صورة لابنتي البكر على جواز سفري وكانت

تشبه إحدى البنات كلّ الشبه، فقد ذهبنا إلى رومانيا على أمل إعادتها، وقلنا لأنفسنا: «إذا نجحنا، أتينا بعدها بالاثنتين الأُخريين».

وصلت إلى الجمارك مع دِليا وفلورينا. كنّا أمام موظّف جمارك رومانيّ يتحدّث الفرنسية جيدًا. قال لي: «الصغيرة هنا ليست هي اللي تمسك بيدها. هذه ليست ابنتك». أصرّت دِليا مؤكّدة أن فلورينا ابنتي، وتظاهرتُ أنا بالدهشة قائلاً إنّها ابنتي. لكنّ الشرطي لم يُعد لنا أوراقنا ونادى رئيسه. وصل أحد الضبّاط . نظر في جواز سفري، ثمّ إلى فلورينا وقال: «الطفلة الصغيرة لا تطابق الصورة على جواز سفرك. فلتعترف أنّها ليست ابنتك ونتوقّف عند هذا الحدّ. لن يحدث شيء. ستبقى الطفلة في رومانيا وتنتهي المسألة». وأضاف: «أعتقد أنّها ابنة السيّدة. لذلك لن يكون هناك أي خطر بالنسبة لك».

استمرّت المسألة أكثر من ساعة. فقلت للشرطيَّين : «حسنًا، أنتما على حق، ليست ابنتي، بل ابنة زوجتي». في هذه القضية، كنت ساذجًا جدًا، وتعلّمت من تجربة دفعت ثمنها أنّ الصدق ليس دائماً أنجى.

طلب منا الشرطيّان أن نتبعهما وانتهى بنا المطاف في مركز الشرطة. هناك، سألَنا شرطيٌّ إنْ كنّا نريد محامياً. فوكّلنا واحداً تجنبّاً لأيّة مفاجأة سيّئة. وصل المحامي بعد ثلاثين دقيقة. كنا ننتظر المفوّض متسائلين عمّا يخبّىء لنا، لأنّ فلورينا كانت ما تزال في رومانيا برفقة والدتها. وصل المفوض. وأعترفُ أنني، في الرّواق، حين رأيت وجهه الذي يذكّر بِدُبٍّ، خِفت وتذكّرت المثل القائل: «أوّل الغيث قطرة».

تبادلنا بضع كلمات مع المحامي قبل أن ندخل مكتب المفوّض. تبادلنا التحيّة. كان المحامي واقفًا، ولم يطرح علينا أية أسئلة، بينما المفوّض يحمل بين يديه نسخة من قانون العقوبات، متنقلاً من صفحة إلى أخرى. كان واضحاً أنّه يبحث عن شيء ما، ولمّا لم يفلح في العثور

عليه، قال له محامينا باللغة الرومانيّة: «أنظر في الصفحة 104، ستجد النّص الذي تبحث عنه، وستتمكّن من الإيقاع بهذين اللقيطيْن». كان المحامي متواطئاً مع المفوّض.

قالت لي دِليا بلغة الغجر وقد انتابها الذعر: «إذا ألقاني هذان الرومانيّان القذران في السجن، فستكون تلك غلطتك. وحين أخرج، عليك أن تجّهز تابوتك». لم يكن لدينا المزيد من الوقت لنضيّعه، وكما يقول اللاعبون في لعبة البوكر، راهنت بكلّ ما لديّ. فرفعت صوتي مشيراً إليهما بإصبعي وشتمتهما بابْنَي الق.. وبالغبيّين. ذُهل المفوّض والمحامي، إذ لم يتوقّعا ردّ فعل كهذا. وأضفت: «رولان دوما، وزير الخارجية الفرنسي صديقي. وإذا كانت نيّتكما، أنتما الاثنيْن، إرسالنا إلى السجن، فاعلما أنّ ذلك لن يحدث، ليسَ هذا فحسب، بل أنتما من سيرسلُ إليه بدلاً منّا.»

تبادل المفوض والمحامي النّظرات دون أن يقولا شيئًا. ثم خاطب المحامي المفوّض: «كن حذرًا، إنْ كان هذا الرجل قد سمح لنفسه بإهانتك، فهذا يعني أنّه ذو نفوذ أو مجنون. ولكن قد يكون ما يقوله صحيحاً، ربّما كان صديق الوزير. فمن الأفضل، على سبيل الاحتياط، التخلّي عن القضية. لا بأس، كان بإمكاننا الحصول على بعض المال، لكنّ في الأمر مخاطرة كبيرة».

نهض المفوّض من دون أن يردّ عليه حتّى، ومدّ يده محيّياً وهو يقول: «هذه القضية سخيفة. بالنسبة لي، لا يوجد شيء. أنتما حرّان». نهضنا وغادرنا مركز الشرطة من دون أن نحيّي المحامي.

بعد شهرين، أعاد ابن عم دِليا الطّفلات الثلاث إلى فرنسا بالسيّارة. كنّ ثلاثتهن يناديننني: بابا.

شارعٌ صغير

قبل أنْ ننصب الخيمة في باريس، كنّا في الضواحي. أستطيع القول إنّ الأمور جرت على نحو بالغ السوء، إذ كان حجم العمل المطلوب يفوق قدرة الشّباب الذين كانوا معي، فاعتدتُ القول: «إنّني أطلع من نُقرةٍ لأقعَ في حفرة».

بعد تقديم عروض على مدى أشهر في الضواحي الباريسيّة، بلغنا حالةً من الفوضى جعلتني أقول لنفسي: «إمّا أن أجد مكاناً في مدينة كبيرة، كي نحصل على وقت كاف لاستعادة توازننا، وإلّا فإنّها نهاية السيرك»، إلى أنْ عثرتُ مصادفةً على أرض خالية في باريس. كنت عالقاً بسيارتي في جادّة كليشي، فلمحت على يساري شارعًا صغيرًا في نهايته أرض مثاليّة لنصب خيمة صغيرة. سلكت الشارع وسألت «من مالكُ الأرض»؟ فقيل لي: «إنّها سيدة عجوز اسمها مدام C ...» فضربت موعدًا معها على الفور.

استقبلتني على وجه السرعة. كنت أمام امرأة تناهز الستين، بشعر رماديٍّ قصير جدّاً، وترتدي طقماً يوحي بالصرامة، داكن اللون. أدركت بسرعة كافية أنّها ليست من النوع الذي قد يسمح لأحدٍ برفع الكلفة معه. عندما سألتها أن تتلطف بتأجيرنا أرضها من أجل السيرك، لم أخفِ عنها أنّنا من الغجر وأنّ ظروفنا سيّئة. وافقت دون تردّد على تأجير الأرض لنا وبسعر أكثر من معقول: ما يساوي كلفة استئجار شقّة صغيرة.

عندما دخلنا قطعة الأرض، كان أول شيء فعلناه هو تنظيفها. أتذكّر أنّنا جمعنا من إبر الحقن ما يملأ حاوية نفايات. كان هناك الكثير منها، حتىّ أن بعضها ظلّ عالقًا في نعليّ. بعد أن نصبنا الكرافانات في دائرة حول الخيمة، استعدنا ألواحاً خشبية قديمةً مهجورة، وصنعنا منها حظيرة للحصان. ساهم هذا في اندماجنا مع أهل الحي الذين صاروا يأتونه بالخبز، ما اضطرهم للاقتراب منّا.

حين فُتحت الخيمة للجمهور، لم يكن الحضور كبيرا. ونادراً ما كان لدينا أكثر من عشرين متفرّجاً، وحدث أن ألغينا العرض أكثر من مرّة، لأنّ السيرك كان فارغاً.

في أحد الأيام، وفيما كنّا في جولة في ضواحي باريس، جاءنا رجل لم أكن أعرفه، مع شاحنة وعربة- قفص مليئة بالنّمور. كان يسمّي نفسه موستاش . قال لي: «لم أحصل بعدُ على عقد عمل لي مع نموري. ولا أدري إلى أين أذهب». ثمّ سألني إنْ كان بإمكانه أن يقيم إلى جوارنا في ساحة السيرك مع نموره. وبما أنّني لم أر ما يمنع، فقد أخبرته أن يبقى. فقال من باب اللطف: «عندما تفكّكون الخيمة، سآتي لمساعدتكم».

كنّا قد قدّمنا عرضنا الأخير، وفكّكنا المدرّج بالفعل، وعلى وشك أن نضع الخيمة على الأرض لنلفّها، حين بادرني موستاش بالقول: «إنّ من الجنون لفّ الخيمة على الأرض، فهذا يستغرق بعض الوقت، علاوة على أنه يُتلفها، ثم سيتعيّن عليك وضعها في شاحنة بالقوّة. لذلك ، إن لم أخطىء الفهم، فليس لديك مقطورة مسطّحة لِتسقط الخيمة فوقها. ولكن لديّ كل ما تحتاج. عندي، غير بعيد من هنا، مقطورةٌ لا أحتاجها. فتوقّف عن فكّ الخيمة وسأحضرها لك خلال ثلاثين أو أربعين دقيقة».

لم تكد تمضي ثلاثون دقيقة حتى رأينا موستاش يعود بمقطورة جميلة قُرنت بمؤخرة شاحنته. وضعنا المقطورة بين أعمدة الخيمة، وأسقطناها عليها، وانتهينا من تفكيك السيرك. بعد شهر، تعطّلت الشاحنة الوحيدة التي كانت لدينا. فقال لي موستاش : «لا داعي للذّعر، لديّ كل ما تحتاج، عندي شاحنة لا أستخدمها في أيّ شيء. سأحضرها لك في أقلّ من ساعة».

بعد ساعة، كان لدينا شاحنة جميلة. عندما سألتُ زوجته إنْ كان ما يزال لديه معدّات للسيرك انفجرت بالضحك، ففهمت أنّها كانت معدّات مسروقة. ولو أنّنا تعرضنا للتفتيش في الطريق، لضُبطت معنا شاحنة ومقطورة مسروقتان، وبالتالي، غير مؤمّن عليهما، وشاحنتان صغيرتان وثلاث سيارات أخرى بدون تأمين، علاوة على ما تجرّ من كرافانات غير مرخّصة، إذ كنت قد حصلت عليها مقابل مبلغ زهيد جدّاً.

عندما سُرقت الأوتاد المستخدمة لتثبيت الخيمة، قال لي موستاش «لا داعي للذّعر، امنحني ساعة من الوقت فقط، فلديّ كل ما تحتاجه». انفجرت بالضحك قائلاً: «ابق هادئًا في كرافانك، فصديقي رينيه ماسون سيعيرنا بعضاً منها».

كنت أعلم أنّ استقرارنا لعدّة أشهر في باريس، سيبدّد نصف الصعوبات التي كنّا نواجهها، لأنّنا لن نُضطرّ لنصب خيمةٍ كل أسبوع، ولن يكون هناك حاجة لشاحنات ولا لسيّارات أو كرافانات متنقّلة على الطريق، ولا لملصقات تعلّق على الجدران. لكنّنا واجهنا مشكلات أخرى لم تخطر لي ببال، فتساءلت إنْ كنت سأتمكن أخيرًا من الحفاظ على السيرك قائماً، إذ لم يكن ينقضي يوم بدون وقوع مشكلة، بل اثنتين أو ثلاث.

كنت أقول لدِليا أحياناً: «اليوم، لم يكن هناك الكثير من المشكلات». فتكرّر دِليا دائمًا الإجابة نفسها: «ألكساندر، إنّها الساعة العاشرة مساء فقط، لم ينته اليوم بعد»، فأضحك من الأمر. لكنّ ذلك لم يكن مضحكاً، فالكثير من أهل الحيّ كانوا يضمرون لنا عداء قوياً. وكانوا يتناوبون على الشكوى ضدّنا لدى مركز الشرطة، زاعمين أنّ الأرض والشوارع المحيطة كانت قذرة بسببنا، وأنه لم يعد هناك قطط، لأنّنا أكلناها.

كانت دِليا تهدّد بالعودة إلى رومانيا مع طفلاتها، وكنت أتساءل إنْ كان أهل الحي سينجحون في إجبارنا على الرحيل. كانت خيمة السيرك خاويةً على نحو محبط .

كنت في الكرافان-المطبخ، وحدث صدام بيني وبين غجريّ صربيّ. علت نبرة الحديث بيننا، وفي سَوْرة غضب، أخذ سكّين المطبخ التي كانت أمامه وقفز إلى الخارج صارخاً «خذ سكينًا وتعال، أنا في انتظارك»! أخذت مثل أغبى الأغبياء سكّيناً وخرجت من الكرافان، وتقاتلنا.

قبل أن يتمكنوا من الفصل بيننا، كنّا قد تبادلنا الطعنات. وفي السيّارة التي نقلتني إلى المستشفى، فكّرت في المثل الغجري المعاكس بالضبط لما عشت منذ قليل:

«حين تحطّ الفراشة على الغصن،

تخشى أن تكسره.»

لا مال

جاءت نهاية الشهر. كنت أتساءل كيف سأتمكن من دفع إيجار الأرض، وأنا لا أملك المال. حدّدت موعدًا مع السيدة C... استقبلتني بأدب ودعتني لشرب الشاي قائلة: «لا يزال القلق بادياً عليك». كان هناك ما يدعو للقلق، فإنْ لم أحصل على مهلة لدفع الإيجار، كان من الممكن أن نقول وداعًا للسيرك.

«سيّدتي، السيرك خاوٍ، وليس لديّ مال لأدفعه مقابل استئجار الأرض. إذا أردتِ، امنحينا مهلة، وإنْ كنت لا ترغبين في ذلك، سأسلّمك الموقع خلال يومين أو ثلاثة، ريثما نُفكّك الخيمة ونُسوّي بعض الأمور».

«فلتعلم أيها الشابّ أنّ سروري بأنْ أساعد عائلة غجرية عظيم، لذلك، ابقوا في الموقع قدر ما تشاؤون، ومنذ اليوم، لا تعد للحديث معي عن المال أبداً». مكثنا في الموقع ستّ سنوات ولم يكلّفنا ذلك شيئاً.

كنت أذهب في نهاية كل عام إلى متجر فوشون، فأشتري أكبر علبة شوكولاتة وأحملها إليها، غير أنّي لم أقابلها ثانيةً. وفي أحد الأيام، صادفت مرافقتها، فقلت لها: «إنّني أشعر بالحرج عندما أحضر الشوكولاتة، فعلبة شوكولاتة ليست شيئاً ذا بال».

«مخطئ أنت يا سيدّي، ففي كلّ مرّة أعطيها علبة شوكولاتة منك، تنخرط في البكاء».

حول النّار

ذات ليلة، صعدتُ إلى قبّة الخيمة بحبلٍ حول رقبتي عازماً على أن أرميَ نفسي في الفراغ، لكنّ رجلاً مسناً كان يختبئ تحت المدرّج كي ينام، رأى ما كان سيحدث، وأخذ يصرخ، فهُرعت العائلة كلّها إليّ.

بعد أيام قليلة على محاولتي الانتحار، سمعنا في الليل امرأة تصرخ. كانت الصرخات تأتي من الشارع. فتسلّقنا الجدار بسرعة، وتقاتلنا مع حوالي عشرة رجال كانوا يحاولون اغتصاب امرأة شابّة، وقد نجت بفضلنا. وأنهَت ليلتها في كرافاني، بين ذراعي دِليا، فقد كانت المسكينة مذهولة من الصدمة.

في الصباح، أعدناها إلى بيتها بالسيارة. وقد جلب لنا هذا الحدث المحزن خيراً عظيماً، إذ أخذ سكان الحيّ يتحدّثون عمّا حدث ليلاً، ولم يعودوا يروننا بالطريقة ذاتها. وبدأوا يقولون: «هؤلاء الناس مفيدون. ينبغي أن يبقوا».

وبعد مضي ستّة أشهر على إقامتنا، تحوّل معظم الأشخاص الذين كانوا ضدنا إلى صفّنا لأنّهم رأوا الحي يتغيّر، بمن فيهم مفوّض الشرطة الذي قال: «قبل إقامة السيرك على قطعة الأرض الخالية هذه، كنّا في منطقةٍ خارجة على القانون». بِشغلنا المكانَ، طردنا اللصوص والمغتصبين والواقعين تحت سيطرة المخدّرات. ويبدو أن شرطيّاً قد ردّ

على آخِر رجلٍ في الحيّ كان لا يزال معاديًا لنا : «إنْ كان لديّ أي نصيحة لك، فهي أنّ تصلّي من أجل أن يبقى هؤلاء الناس على هذه الأرض لأطول فترةٍ ممكنة».

لقد أعدنا الحياة لحيّ محروم حين نصبنا خيمتنا فيه، فجاء العديد من الفنّانين والصحفيّين للعيش في العمارات المحيطة بالسيرك. وأُنشئت مدرسةٌ لتعليم رقص الفلامنكو وورشةٌ لصنع الفخّار وأخرى لصنع الأعواد ومتجران للألبسة ومدرسة لتعليم المسرح. كان الأطفال يأتون للّعب أمام السيرك. وكان هناك أيضًا الكثير من الموسيقيّين والكتّاب، ونيكولا روملياس الودود، أفضل من يعرف المسرح في فرنسا. في المساء، كنا نعزف الموسيقى حول نار كبيرة بجانب الخيمة. وقد اعتاد سكان الحيّ الجلوس حول النّار معنا.

وحين كان رجال الشرطة المارّون يرون النّار، ومع أنّه يُحظر إشعال مثل تلك النّار في باريس، لم يكونوا يطلبون منا أبداً إخمادها، بل كانوا يجلسون حولها معنا.

*

كانت تعيش في العمارة المقابلة للسيرك سيدة عجوز. هي أيضاً كانت ضدنا، فلم تكن تطيق وجود السيرك أمام عمارتها، وكانت تقول: «وفوق ذلك، هم من الغجر».

في أحد الأيام، نسيت مفاتيحها داخل شقّتها. كانت تبكي لأنّها لم تعد قادرة على العودة إلى البيت. طلبت المساعدة من جيرانها الذين لم يكن لديهم من الأدوات ما يمكّنهم من فتح الباب، فعجزوا عن فعل ذلك.

قال لها أحد المارّة : «اطلبي المساعدة من الغجر الموجودين أمام العمارة. سيفتحون لك بابك. فبالنسبة لهؤلاء الناس، ليس الباب شيئًا على الإطلاق».

عملت بالنصيحة وتحدّثت إلينا. ولمّا كنا نملك سلّماً طويلاً، فقد ثبّتناه على واجهة المبنى وصعد ابني إلى الطابق الثاني، ودخل البيت من النافذة.

ومن ذلك اليوم، باتت علاقتنا معها ممتازة. وصارت كلّما تسرّب الماءُ من حنفيّتها أو علق مصراعُ نافذتها أو ضاعت مفاتيحها، تتّصل بنا لمساعدتها. وصارت هي أيضاً تأتي في المساء للاستماع إلى موسيقانا حول النّار.

ويبدو أنّها ذرفت دمعة حين غادرنا قطعة الأرض الخالية بعد ستّ سنوات ورأت كرافاناتنا تبتعد.

مسرح

كنت أعبر ساحة كليشي، حين لمحت امرأة تبكي جالسةً على مقعد. جلست بجانبها وسألتها إنْ كنت أستطيع مساعدتها : «أنا ممثّلة ولا أحد يستطيع فعل أيّ شيء من أجلي».

«قد تظنّين أنني أتدخّل فيما لا يعنيني، لكن هل أنت مستاءة لأنّك خسرت دوراً»؟

رفعت رأسها، ونهضت، فرأيت أمامي ملكة سبأ.

«لم أخسر دورًا فحسب، بل خسرت مسرحًا كذلك». عادت للجلوس وأوضحت لي أنّها كانت ستؤدي دوراً في مسرح قريبٍ، لكنّ مدير المسرح ألغى المسرحية من البرنامج دون سابق إنذار. فقلت: «لديّ سيرك صغير على مرمى حجر من هنا. إنْ كان الأمر يناسبك، سأعيرك الخيمة».

قبلَت الاقتراح وُعرضت المسرحية. لم تكن المسرحية على قدر كبير من التشويق، لكنّي كنت أحضر العرض كلّ مساء، لأشاهد الممثّلة، فنحن لا نلتقي كلّ يوم إمبراطورة من العصور القديمة. كان لها طلّة مهيبة، وقد تركت لديّ ذكرى جميلة. كان اسمها رونيت القبَص. ويقال إنّها كانت نجمة في «إسرائيل»، حيث توفيّت مؤخّراً.

المكنسة

في ضواحي باريس، سُرقت الكشافات الكهربائية القليلة التي كنّا نملك، ولم يتبقَ لنا سوى واحدٍ بطاقةِ ألف واط، وهذا قليل جدّاً من أجل إضاءة العرض. والمضحك أنّنا اعتدنا هذا القليل من الضوء. وحين جئنا للاستقرار في باريس، لم نعد نتحدّث في الأمر، ولكن ظلّت هناك صعوبة صغيرة: كان علي أن أرفع الكشّاف الوحيد على مكنسة عندما تصعد ابنة عمّي على أرجوحتها.

كان المتفرّجون يبقون في كثير من الأحيان في الخيمة للتحدّث إلينا في نهاية العرض. وقد لاحظت وجود بعض أهل المسرح كلّ ليلة. وقالت لي ممثّلة كانت تأتي كثيراً: «هل تعلم أن الكثير من أهل المهنة يأتون لمشاهدة عرضكم؟ لديكم بالطبع فقرات جميلة جدّاً، لا نراها عادة في السيركات الكبرى، لكنّهم لا يأتون فقط من أجل تلك الفقرات، بل لرؤيتك أيضاً عندما تضع رأسك في فم الماعز كما يفعل المروّضون مع الأسود، ولكن على وجه الخصوص لرؤيتك مع مكنستك».

أتذكّر أنّني أجبتها بأنّ السيرك سيتوقّف على الأرجح لأنّ أحداً من العاملين لم يحصل على أجره، فأوضحت لي: «إليك ما يحدث في المسرح. عندما تكون المسرحية سيّئة، من الصعب جدّا الاحتفاظ بالممثّلين، حتى

لو كانوا يتلقّون أجراً جيدّاً. ولكن عندما تكون المسرحية جيّدة، فإنهم يبقون حتى لو كان الأجر قليلاً أو لم يُدفع لهم على الإطلاق. في سيركك، لن يتركك أحد لأن عرضك شاعريّ جدّاً» . وأضافت: «ليس هناك سيرك أكثر شاعريّة من سيركك». كانت المرّة الأولى التي أسمع فيها هذا الإطراء، الذي سيكرّره الجمهور والصحافة فيما بعد.

قليلٌ من حسّ الفكاهة

التقيت مؤخّراً في السيرك مسؤولاً سياسيّاً، واحداً من أولئك الذين يعتقدون أنّهم مهمّون وأنّه يُسمح لهم بكلّ شيء. سألني إنْ كنت سأنشر قريباً كتابًا جديدًا، فقلت له: «سأنشر واحداً عمّا قريب».

«يتملكّني فضول كبير لقراءة أعمالك ، فأنا أحبّ حقّاً ما تكتب. أيمكنك أن تخبرني عن فكرة واحدة منه»؟ ولمّا أصر بشدّة، قلت له: «بالضبط، هناك واحدة تخصّك، علاوة على أنك أنت من ألهمني إيّاها». فقال بابتسامة عريضة: «ها أنا أصغي إليك».

«للسياسيّين غالباً عيوب

المراهقين، ولكنْ ليس لهم فضائلهم».

لو كان لديه القليل من حسّ الفكاهة وشيءٌ من الجرأة، لقال: «هذا الوصف مناسب جدّاً لك أنت أيضًا»، ولكن لمّا كانت تعوزه الجرأة وحسّ الفكاهة، فقد تلقّى صفعته من دون أن يتلفّظ بكلمة. هذا الرجل، لن يعود إلى السيرك عمّا قريب.

كان والدي يقول: «السياسة ميدان الشيطان الأثير، لذلك نبقى، نحن الغجر، في ميداننا».

وسمعته أحيانا يقول: «لقد نجح هؤلاء الناس في فعل المستحيل، إذ زاوجوا بين النّار والماء، فهم مجرمون ومهرجّون في الآن نفسه».

وقعت لي مؤّخراً قصّةٌ بالغة الطرافة. كنت أنوي الذهاب مع العائلة في جولة للسيرك في رومانيا. وللحصول على التراخيص، أخذت أنا ودِليا موعداً مع أحد الوزراء، لكنّهم حذّروني وأخبروني: «في فرنسا، أيّاً ما كان هندامك، فليس لذلك أهميّة كبيرة، أمّا في رومانيا، إذا قابلت أشخاصاً من أهل السلطة، فعليك ارتداء بدلة وقميصٍ أبيض وربطة عنق». وفي سبيل إعطاء انطباع جيّد، تحمّلت عناء ارتداء ملابسي بطريقة لا تنفّر المسؤولين الرومانيّين.

كان ذلك في فترة ما بعد الظهر، في بوخارست مع دِليا، ومقياس الحرارة يشير إلى 30 درجة مئوية. كنت أتصبّب عرقاً في انتظار الوزير. رأيت مدير مكتبه يصل عوضاً عنه، لأنّه كان مريضاً. كان شَعرُ المدير أشبه بحصيرة لم تمشّط جيّداً، ولم يكن يرتدي سترة ، قميصه مفتوح تماماً، وبنطاله أشبه بالبيجامة، وينتعل خفّاً.

كان الرجل أمامي. نظر إليّ بفضول وقال: «الكساندر، لقد قرأت كتبك وقيل لي الكثير عنك، لكنّي لم أتخيّلك أبداً بهذا الهندام». خلعتُ على الفور ربطة العنق والسترة وقلت: «ولا أنا تخيّلتك بهذا الهندام.» تفاهمنا جيّداً، إذ كان غايةً في اللطف، لكنْ بدا لي أنّ تقديم عروض السيرك في رومانيا أمرٌ معقّد.

دافيد

صادقت رجلاً مسنّاً كان لديه متجر ألبسة بجوار السيرك. كان قد نشأ في بولندا. كان يأتي في كثير من الأحيان ليأخذني من الكرافان كي نشرب كأساً في الحانة المجاورة. كان ودوداً، ولديه على الدوام قصّة يرويها لي، ودائماً ما وجدتُ المتعة في ذلك.

كنت في طريقي إليه في الشارع، لكنّه ما إن رآني حتّى جاء نحوي ببضع خطوات راقصة. قلت: «ما بك يا دافيد»؟

«إنّني أشعر بسعادة غامرة يا الكساندر، فمنذ ثلاث سنوات وأنا أحاول قضاء إجازتي في «إسرائيل» من دون أن أنجح . كان هناك دائمًا شيء ما يحول دون ذلك، ولكنْ نجح الأمر في هذا العام. كلّ الترتيبات جاهزة ، سأتمكن أخيراً من السّفر إليها».

فقلت له: ««إسرائيل» بلدٌ جميل بالتأكيد، ولكن لماذا «إسرائيل»؟ فهناك الكثير من البلدان». بعثت الحُجّة التي قدّمها السرور في نفسي كما لو أنّه قدّم لي أفضل شمبانيا مع أفضل كافيار، فقد قال: «إسرائيل فريدة من نوعها، ففيها شيء ليس في أيّ مكان آخر». ثمّ أضاف: «في إسرائيل، لا يوجد مثليّون».

كان بوسع هذا العجوز اللطيف أن ينضمّ إلى والدي، الذي كان قاطعاً جدّاً هو الآخر، إذ كان يقول: «السبت والأحد والإجازات، هذه أيّامٌ للكسالى».

وِلادة

كانت دِليا على وشك أن تضع مولودها، وكنت أنا متمدّداً على العشب. كان قد سبق لي أن شهدتُ ولادة آخر بناتي، فقطعت على نفسي عهداً حينها، لأنّ ذلك صدمني، أنْ لا أشهد أيّ ولادة أخرى.

كانت أفكاري تتواثب في انتظار الولادة، فسارعتُ للعثور على قلم رصاص وبعض الورق، وبدأت أدونّها. كان في ذهني ستُّ قصائد، وبما أنّني لم أجدها سيّئة، فقد احتفظت بها. ولم أكد أضع قلم الرّصاص حتّى صرخ علي ابن عم دِليا من النافذة: «جاءتك ابنة». بات لديّ في اليوم نفسه، حمداً للسماء، بنتٌ صغيرة جميلة وستّ قصائد. وهذا ما أسميّه يوماً رائعاً. عندما سألت ابن عم دِليا إنْ كانت الولادة قد جرت على نحو جيّد، قال: «نعم، سارت الأمور سيراً حسناً. لم تعانِ كثيراً. لكنّها عانت بعد ذلك».

«بعد ماذا؟»

«بعد أن رأت أنّها بنت. وصاحت: «عاهرة أخرى!»»

وضعتُ ذلك اليوم في خانة الأشياء الجميلة في الحياة.

عائلةُ سِيرك

كنت قد طلبت من صديقي رينيه ماسون خيمةً خاصّة إلى حدّ ما، تسمّى «شبه-جاهزة»[1]. ولمّا كنت أعرف الرجل حقّ المعرفة وأعلم أن ساعته ومواعيده «مطّاطة»، فقد أوهمته، تحوّطاً، أنه ينبغي أن يسلّمني الخيمة في غضون ستّة أشهر على الأكثر. ولكن انقضى عامٌ من دون أن أحصل منه على شيء. ولإنقاذي من هذه الورطة، عثر رينيه على عائلة سيرك مستعدّة لتأجيرنا خيمة صغيرة . ما لم يكن يعرفه رينيه، ولا أنا كذلك، هو أنّنا كنّا نتعامل مع عائلة من الأجدر تجنّبها.

نصبوا خيمتهم الصغيرة من أجلنا في بروكسل حسب الاتفاق. وظهرت أولى الصعوبات حينَ زعموا أنّ العديد من إطارات سيّاراتهم قد انفجر على الطريق، فدفعتُ لهم تعويضاً تجنّباً للمشكلات. بعد ذلك، لحقوا بنا مع خيمتهم إلى مدينة لوهافر، حيث مكثنا أسبوعاً.

كانت العروض قد انتهت في الليلة السابقة، وكنت أنتظر وصولهم من أجل تفكيك الخيمة، إذ لم أرغب في أن أترك خيمتهم في الساحة وأغادر. كان العصر قد اقترب وكنت متأخراً وهناك من ينتظرني في باريس،

---

(1) Sémi-construction: خيمة سيرك قابلة للإزالة، محورها وهيكل سقفها من الخشب أو المعدن، وغطاؤها من القماش. تُفككك ويعاد تجميعها من مكان إلى آخر خلال جولة السيرك. (المترجم)

وحيث إنّني تلقيّت مكالمة هاتفية من تلك العائلة مفاداها: «نحن على بعد خمسة كيلومترات أو ستّة من لوهافر، ها نحن في الطريق اليك»، فقد فعلت ما كان ينبغي ألّا أفعل: قفزت إلى سيّارتي وعدت إلى باريس.

بعد ثلاثين دقيقة، تلقيّت مكالمة: «الخيام الصغيرة المحيطة بخيمة السيرك اختفت. لقد سُرقت منا.»

«ما تقوله مستحيل، لقد كنت في ساحة السيرك قبل خمسة عشر دقيقة فقط، وليس أنت من سأعلّمه أنه لا يمكن إزالة الخيام المحيطة في خمس عشرة دقيقة». لكنّهم سرعان ما أفصحوا عن حقيقة نيّتهم : «عليك أن تدفع لنا ما يمكنّنا من شراء غيرها».

لقد بالغوا كثيراً، حتّى أنّني لم أحتج وأنهيت المكالمة. اتّصلوا بي على مدى أيام، لكنني لم أُجب. بعد شهر، كنت أنتظر رينيه في مشغله، فإذا بالعائلة الشريرة تصل. كانوا حوالي عشرة رجال، تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين. فأدركت على الفور أنّ مشكلة توشك أنْ تقع.

كنت وحدي، فاغتنموا الفرصة. حين رأوني، ركضوا نحوي، بالطبع ليس من أجل أن يقرأوا عليّ قصيدة، حتّى إنّه لم يتح لي الوقت لتناول قضيب حديديّ، مع أنّه لم يكن هذا ما ينقص في المشغل. أوسعوني ضرباً، وبقيت ملقىً على الأرض، بلا حراك. وكما لو أن هذا لم يكن كافيًا، فقد جاءوا ليلاً ليضرموا النّار في خيمتنا الصغيرة. صحيح أنني لم أخضع لهم، لكنّنا دفعنا ثمن ذلك غالياً. وعلى ما يبدو، فإنّهم فخورون بما فعلوا.

كرافان للبيع

كنت أبحث عن كرافانات مستعملة. جاءتني مكالمة هاتفية من امرأة: «لديّ واحد للبيع، رخيص وبحالة جيدة». عرفتُ من نبرة صوتها والمفردات التي استخدمتها أنها غجريّة. قالت لي: «خذ قلماً وورقة، سأضع لك خريطة، فليس من السهل أن تهتديَ إلى موقعنا». دوّنتُ أسماء الشوارع، ورسمتُ مخطّطاً للحي، ثم ركبتُ سيارتي ومضيت لإحضار الكرافان.

وصلت إلى شارع مغلق. كان تحت الإنشاء. أوقفت السيارة، وخرجت. في اللحظة التي كان سيتقاطع فيها طريقانا، استوقفني رجلٌ ظننتُه أحد سكّان الحي. يمكن القول إنه أنيق الهندام، فقد كان يرتدي بدلة وقميصاً أبيض وربطة عنق لا تشوبها شائبة. تحدّث معي بأدب جمٍّ وقال: «لقد خرجت من السجن حديثاً، وأشعر كثيراً بالضيق لأنّه لا عمل لدي ولا أملك نقوداً في جيبي، فهل يمكنك مساعدتي؟ في العادة، كنت سأعطيه قطعة نقديّة أو اثنتين، لكنّني تأثّرت لحاله، فأخرجت العملات المعدنيّة القليلة الموجودة في جيبي الأيمن وبعض الأوراق النقديّة الصغيرة من جيبي الأيسر. وأعطيته- وهو ما لا أفعله أبداً- كلّ ما كان بحوزتي من مال.

شكرني الرجل قائلاً: «أنت شخص صالح، إذ يبدو لي أنّك أعطيتني كلّ ما في جيوبك». وعدت للبحث عن الكرافان.

لاحت لي، في بقعة أرض خالية في نهاية الشارع، امرأةٌ تجلس أمام كرافان. جاءت نحوي: «إن كنتَ أنتَ من يبحث عن كرافان، فتعال واجلس أولاً، سنشرب قهوة لذيذة». كانت علاقتنا وديّة لأنّنا من القبيلة نفسها. ثمّ أضافت: «أنا منزعجة للغاية لأنّ أخي خرج من السجن. كان هنا قبل خمس دقائق. وهو يسأل من يلتقيهم المال، فإنْ لم يعطوه شيئاً، استلّ مُديته وطعنهم. أتوقّع أنه سيكون في السجن قبل منتصف الليل. لا بدّ أنك التقيته وأنت قادم. أرى أنّك لم تتلقّ أيّة طعنة، هذا جيّد. فالله معك».

أنهيت قهوتي، واشتريت الكرافان وعدت به إلى السيرك. في ذلك اليوم، تعلّمت مرّة أخرى شيئاً جديداً.

خبز القربان المقدّس

من المؤكّد أنّني لست محظوظاً مع رجال الكنيسة. حين نصبنا خيمتنا بالقرب من باب شامبيريه، كان بجوار السيرك كنيسة جميلة. كنت أجلس فيها في بعض الأحيان، بعد الظهر، بصحبة ابنتي الصغرى راجينكا، ولطالما أثار حيرتها الحشدُ الكبير الذي يدخل الكنيسة صباح كلّ أحد. ولمّا كانت مُحِبّة للاستطلاع مثلي، فقد أخذتها ذات أحد إلى الكنيسة، فجلسنا وحضرنا القدّاس. كانت ابنتي تبلغ من العمر خمس سنوات أو ستّ.

عندما دعا القسّ المؤمنين لتناول خبز القربان المقدّس، سألتني راجينكا: «ما هذا؟» وأرادت أن تتناول شيئاً منه أيضاً، فأوضحت لها أنّه لا يحق لّها ذلك لأنها كانت صغيرة جدّاً، لكنّها عاندت، ولمّا أصرت أمسكت بيدها وانتظمنا في صفّ المصلّين.

حين صرنا أمام القسّ، رأيت رجالًا ونساء يمدّون أيديهم لأخذ خبز القربان، فمددت يدي أيضًا، ولكن بدلاً من العودة للجلوس، اختبأت مع ابنتي، وتضامناً معها قسمت خبز القربان إلى قسمين؛ نصف لها ونصف لي. ثمّ ما لبثت أن سمعت رجلاً يندفع نحونا بأقصى سرعة. كان القسّ.

وقف أمامي وأخذ يصرخ. ارتمت ابنتي بين ذراعيّ خائفة. كان هناك حشد من حولنا، فيما القسّ يوبّخني لأنّني أعطيت خبز القربان لطفلة. ثمّ قال حرفيّاً «فلتغرب عن وجهي!»

اتّجهت إلى المخرج دون أن أتفوّه بكلمة، ولم يزد الكاهن على ما قال. كنت على وشك اجتياز الباب، ولكن قبل الخروج مباشرة استدرتُ، وابنتي بين ذراعيّ، وقلت بصوت عالٍ كي يسمعني الجميع: «لا أعتقد يا أبي أنّ المسيح كان ليفعل ما فعلتم».

سيناريو

أيّام كان السيرك منصوباً بالقرب من ساحة كليشي في باريس، كنت أذهب أحياناً لأشرب الشاي صباحاً في المقهى القريب. كنت أبقى بصورة شبه دائمة عند منضدة الشراب، وفي كثير من الأحيان، كان إلى جانبي رجلٌ يتناقش مع صاحب الحانة. انتهى الأمر بأن تصادقنا. كان يأتي في كثير من الأحيان لمشاهدة العرض، فنذهب بعد العرض إلى المقهى. وذات يوم قال لي، إذ كان يملك دار إنتاجٍ سينمائيّ: «ينبغي أن تكتب لي قصّة غجرية».

لم تكن فكرة كتابة سيناريو سينمائيّ تثير اهتمامي، بل قد أقول إنهّا كانت مستبعدة بالنسبة لي. ظلّ يسألني بانتظام لأكثر من عامين عن السيناريو، لكنّ جوابي كان دائمًا هو نفسه: «لست مهتمّاً بالأمر». ثمّ علمت أنّ الأفلام الفرنسية تُعرض على القنوات التلفزيونية عشر مرّاتٍ أو عشرين، ففكّرت بسذاجة كبيرة: بما أن سيرك رومانس غير معروف، فإنّه إذا ما كتبتُ قصّة تدور في السيرك، مع لقطات كثيرة تظهر اسمنا، وعُرض الفيلم عشر مرّات أو عشرين على شاشات التلفاز، فسيغدو سيركي مشهوراً بقدر السيركات الكبرى.

كنت ساذجاً إلى حدٍّ رهيب، فلا دليل على أن القنوات التلفزيونية ستشتري الفيلم، وأنّها إذا ما اشترته، سيظهر على الشاشة عشر مرّات أو

عشرين. وقد عرفت فيما بعد أنّ القنوات التلفزيونية قد تشتري الفيلم ولا تعرضه أبدًا. وكانت هناك عقبة أخرى تتمثّل في الحصول على سلفة تمويل من المركز الوطني للسينما[1]. كان قد سبق لي إصدار كتاب «شَعب من الجوّالين»، لكنّ كتابة سيناريو للسينما أمر مختلف كل الاختلاف. فهذا الكتاب، ألفّته وأنا أمشي، أو أقود شاحنتي، أو أدرّب أطفالي.

وحين كانت تراودني فكرة أو قصّة، كنت أعثر على قلم رصاص ومزقة من الورق، فأدوّنها، لكنّ كتابة سيناريو هي عندي ككتابة رواية. لذا، تزوّدتُ برزمة أوراق وعدّة أقلام وجلست إلى الطاولة. كان أمامي ورقة بيضاء، فيا لَه من رعب!

جاءت الصيغة الأولى بالغة الرداءة، إذ إنّني لم أستطع أخذ هذا العمل على محمل الجد واعتقدت، مخطئاً، أنّ من السهل القيام بذلك، لكنّني اكتشفت في دهشة أنّه ينبغي أنْ أنفق وقتاً في كتابة السيناريو لكي يكون متماسكاً. قد يبدو الأمر غبيّاً بعض الشيء، لكنّي لم أكن أفهم كيف يمكنني الانتقال من مشهد إلى آخر.

في الواقع، كان الأمر بسيطًا جدًّا. أمام السيرك، كانت إحدى دور السينما تعرض فيلمًا بلجيكيّاً بسيطاً لكنّه لطيف جدًّا، بالأبيض والأسود، اسمه «الحرّاس ينتظرون». لكي أفهم، كان عليّ أن أشاهد الفيلم عشر مرّات. كتبتُ نسخة ثانية، لكنّي كنت لا أزال غير راض عنها، فأعدت كتابتها.

---

(1) مساعدة ماليّة يقدمها المركز الوطني للسينما والصّورة المتحرّكة على أساس سيناريو الفيلم قبل إنتاجه، على أن تسدّد من عائدات الفيلم لاحقا. يعتمد تمويل الأفلام الأولى إلى حدّ كبير على هذه المساعدة ، لأنها تحدّد في كثير من الأحيان المساعدات الأخرى ومدى التزام الموزعين السينمائيّين والقنوات التلفزيونيّة بعرض الفيلم بعد إنجازه. (المترجم)

بمرور الوقت، ولأنني لا أحبّ العمل الذي يفتقر للإتقان، قرّرت أخيرًا كتابة سيناريو متماسك بمشاهد جميلة، وساعدني على الاستمرار فيه أنّ دِليا وأطفالنا سيكونون هم أبطال الفيلم.

ولكنْ حدث شيء بالغ الغرابة. فعندما دخلت إلى مكتب المنتج، كان يحمل الهاتف في يده، فأشار إليّ بالسكوت والجلوس، ثمّ سمعته يقول: «جاك! لقد بدأت أضيق ذرعاً، لم أعد أطيق برناديت بعد الآن. نعم، إهدأ! سأستقلّ سيّارة أجرة وآتي إليك في الإليزيه. لكنْ قبل كل شيء، أريدك أن تتوقّف عن إزع...» اذهلني ما سمعت، مع أنّه كان جليّاً أنّه لم يكن يتحدّث إلى رئيس الجمهورية[1]. ولذا، تغيّرت نظرتي إليه.

عندما ذهبت إلى المقهى معه، كان الجزء العلويّ من قميصه مفتوحاً بحيث تُرى نجمة داوود، تتدلّى من عنقه على نحو بارز. ولمّا كنت مهتمًا أكثر فأكثر بالأنبياء اليهود، فقد انتهزت الفرصة، نظرًا لوجود يهوديّ أمامي، لأطرح عليه بعض الاسئلة، لعلمي أنّ اليهود، حتّى أولئك الذين يدّعون عدم الإيمان بالله، يعرفون الكثير عن الرجال والنساء البارزين في تاريخهم.

سألته أسئلة بسيطة إلى حدّ ما، لكنه لم يتمكّن من الإجابة عن أيّ منها. وأتذكّر أنّني قلت له في المقهى: «نجمة داوود التي حول عنقك نجمةٌ مزيّفة، وأنت لا تؤمن بالله ولستَ يهوديًا، فأنت غير قادر على الإجابة عن الأسئلة التي أطرحها عليك منذ شهور عن هذا الشّعب». أوضح لي بهدوء أنّه لصّ، وأنّه يسرق الجميع، وأضاف ليطمئنني: «لكنك تعجبني، ولن أسرقك. لكنْ هذه هي الحقيقة، إنّني أحتال على الجميع. وصحيحٌ أنّي لست يهوديًا». فقلت: «ما دمت لست يهوديًا، فلماذا ترتدي نجمة داوود

(1) المقصود هو الرئيس الفرنسي الأسبق جاك شيراك، وبرناديت هي زوجته.(المترجم)

بصورة بارزة حول عنقك؟» فأجاب: «كي يظنّ الناس الذين خدعتهم أنّ من خدعهم يهوديّ». انعقد لساني. قاومت رغبتي في ضربه، لكنّها كانت أقوى مني، فصفعته.

إنّ عبارة واحدة قد تغيّر وجهة حياة المرء. بعد كتابة ذلك السيناريو، كتبت اثنين آخرين، ما منحني ثلاث قصص غجريّة لأكتبها. وأظنّ أنّه كان من الممكن أن أجد متعة في صنع بعض الأفلام. في وقت لاحق، قابلت منتجين آخرين ولكن كانت متطلباتهم لا تتوافق مع متطلباتي، خاصة وأنهم أرادوا جميعًا إعادة كتابة االسيناريو لكي تتماشى الأفلام مع روح العصر.

أقولها من دون أي ادّعاء: إنّهم لم يروا الجميل في سيناريوهاتي، ويجب أن أقول أيضًا إنّني لم أبذل الكثير من الجهد من أجل العثور على منتجين آخرين. أظنّني التقيت ثلاثة أو أربعة. أراد روبرت غيديغيان وشريكه دومينيك بارنو إنتاج الفيلم لأنهما أحبّا النصّ ولم يعّدلا فيه. وقد اجتهدا بقوة في الحصول على سلفة المركز الوطني للسينما، إلاّ أنّ طلبنا رُفض. وأظنّ أنّ من العسير جدًا الحصول عليها، إنْ لم يكن المرء في يوم سعده.

وضع منتج الفيلم الذي كان يُبرز نجمةَ داود قدّمي في الرّكاب، لكنّه أسقطني من على ظهر الحصان حين أخبرني بأمره المقزّز. ولولا وضاعة هذا الرجل، لكانت حياتي اتّخذت مرّة أخرى مساراً مختلفاً.

أُناس لطيفون

في حياتي التي مضى منها شوط طويلٌ الآن، نادراً ما ركبت الطائرة. كانوا قد تعاقدوا معنا، في مدينة شنغهاي، في الصين، من أجل تقديم عرضنا في الجناح الفرنسيّ ضمن المعرض العالمي، لكنّني لا أطيق ركوب الطائرة ولا أستقلّها إلا إذا كان الأمر مسألة حياة أو موت. سألتُ عن إمكانية السّفر بالقطار، فقيل لي: ستكون الرحلة طويلة، لكنّ هذا ممكن. كان هذا يعني أنّني سأكون للمرّة الأولى في إجازة، وفي القطار عادة ما أغطّ في النّوم مثل طفل رضيع.

غير أنّه لم يكن أمامي سوى يومين من أجل الرحلة، بسبب التزامنا بالعروض التي كنّا نقدّمها في باريس، بينما تحتاج الرحلة خمسة عشر يوماً. لذا، قنعت يائساً بركوب الطائرة. وعندما خرجت منها، أوقفتني المضيفة وقالت لي: «أعملَ مضيفة منذ سبعة عشر عامًا يا سيّدي، ولم أر من قبل ما فعلتَه؛ عندما أقلعت الطائرة، خلعت حزام مقعدك بسرعة كبيرة وركعت في الممرّ راسماً إشارة الصليب عشرات المرّات». فقلت لها إنّ هذا غير ممكن، فمع أنّ إيماني بالله قويّ، فإنني لا أصلّي أبداً.

في رحلة العودة، طلبتُ مقابلة قبطان الطائرة. «أيّها القبطان، أنا شخص لطيف كما ترى، ولي عندك طلب، لأنّني مرعوب من طائرتك. إنّني أسألك بلطف: أيمكنك أن تحلّق بطائرتك على ارتفاع أخفض وبسرعة أقل»؟ وعدني القبطان بأنّه سيحلّق بطائرته على نحو أخفض وأبطأ. إنّ من المُطَمْئن على كلّ حال معرفة أنّه ما زال هناك أناس لطيفون في هذا العالم.

رشيد

في صغري، كانت جدّتي تسقيني قدحاً صغيرًا من النبيذ الأحمر كلّ صباح، لأنّها كانت تظنّ، مخطئة، أنّ من شأن ذلك أن يزيدني قوّة، لكنّي لم أستسغه أبداً. وذات يوم، أخبرتها أنني لم أعد أستطيع تناوله، وأنه ينبغي إيقاف تلك الوصفة.

فيما بعد، عندما بلغت سنّ شرب النبيذ، لم أشربه قطّ، ربما لأنّه كان لديّ الكثير من الذكريات السيّئة حول هذا المشروب.

قبل أيام، جاء صديقي رشيد لأخذي من الكرافان واصطحبني إلى المطعم الصغير بجوار السيرك. وبعد اختيار وجبة الطعام، قال لي: «ماذا عن النبيذ، أبيض أم أحمر؟» فشرحت له قصّتي مع جدّتي وقلت: «أنا لا أشرب النبيذ أبداً». فقال «الكساندر، لم ير أحدنا الآخر منذ سنوات، وينبغي أن نحتفل بلقائنا. لذا، سيسرّني أنْ تشرب معي كأساً من النبيذ الأحمر». ولأنّه ألحّ كثيراً، فقد شربت لأوّل مرة منذ بلوغي كأسًا من النبيذ الأحمر. ولكي أكون صادقًا كلّ الصدق، عليّ أن اعترف بأنّه ليس سيّئاً.

تقودها امرأة

في الآونة الأخيرة، أُضطررت، بقوّة الظروف، إلى ركوب الطائرة مرّة أخرى للسفر إلى روسيا. لم تكن رحلة الذهاب بذلك السوء. ويبدو أنني بقيت موثقاً إلى مقعدي بهدوء، دون احتجاج، ودون صلاة.

ولكن في العودة، وقع أمر كوميديّ إلى حدّ ما. كنا تنتظر في مهبط الطائرات الطائرةَ الروسية التي ستعيدنا إلى باريس. وكانت تتنظر إلى جانبنا مجموعة من رجال الأعمال الفرنسيين أيضًا. عندما وصلَت الطائرة ورأوا أنّ من تقودها امرأة، قال رجل من المجموعة: «أنا لن أستقلّ هذه الطائرة». انقسمت المجموعة إلى قسمين. كان هناك من يريد الركوب ومن لا يريد. كنت على السلّم فقلت لهم : «هل تعرفون كم عدد مدمني الخمر من الرّجال في هذا البلد؟ إنّه عدد هائل. وأرى من المطمئن ربّما، أنّ تقود الطائرة امرأة». فصعد الجميع إلى الطائرة، في نهاية المطاف.

مهرجان أفينيون

كنّا في باريس، أواخر الشتاء. فكّكنا الخيمة وسلكنا الطريق. كنّا قد خطّطنا لقضاء شهريْ تموز وآب في مدينة كبيرة جنوب شرق فرنسا. وافق طاقم البلدية على استقبالنا، ولكن حين اكتشف عمدة المدينة، من خلال الصحافة، أنّنا سيركٌ غجريّ، اخترع ذريعة غبيّة ليحظر وجودنا في مدينته. ونظرًا لأنّنا لسنا ممّن يلجأون إلى المحاكم، فقد تخلّينا عن الأمر قائلين لأنفسنا: بما أنّه بات لدينا فسحة من الوقت في برنامج الجولة، ونحن لا نأخذ إجازة أبدًا، دعونا نرى تأثير ذلك علينا.

نُشرتْ في الصحافة مقالات أخرى تشرح الحادثة المزعجة التي وقعت لنا. وفي اليوم التالي، اتّصل بي ممثّلٌ قائلاً: «لديّ مكان للسيرك في مهرجان أفينيون». لم أكن مهتمًّا جدًا بالأمر في تلك اللحظة، فأجبته: «لسنا معروفين كفاية، ولن يأتي أحد لمشاهدتنا». اجتمعنا لدراسة حسنات الأمر ومساوئه، ولما رجحتْ كفّة الموافقة، انطلقنا إلى أفينيون.

تمثّلت الصعوبة الأولى في العثور على وسيلةٍ نلفت بها انتباه النّاس إلى وجودنا، فالملصقات الخمسون التي كنت أعلقّها كلّ صباح على أعمدة المصابيح لم تكن تبقى لأكثر من عشر دقائق. لكنّي عثرت على حيلة، فكنت أجيء بسلّم وأضع الملصق أعلى العمود، غير أنّ اختفاء الملصقات

ظلّ مستمراً، وأسوأ ما في الأمر أنّها لم تكن تُزال بنيّة إيذائنا، بل كان الناس يسرقونها، لأنّهم يجدونها جميلة.

كنّا نذهب بعد العرض لتناول العشاء في مطعم بالقرب من السيرك. بادرت مجموعة من الممثلين اللطيفين للحديث معنا. وصرنا نتحدّث معهم عن كلّ شيء. كانوا في كلّ ليلةٍ يحصون إيراداتهم، فيقولون: «هذا المساء ليس سيّئاً، كان لدينا تسعة وأربعون شخصاً. وأنتم يا آل رومانس، كم كان لديكم»؟

«هذا المساء، كان لدينا حوالي مئتي شخص». فيصفّقون قائلين: «مرحى لكم». ما لم يعرفوه، لأنّني لم أخبرهم به قطّ، هو أنّني كنت أشمل في حسابي الأشخاص الذين لم يتمكّنوا من دخول الخيمة بسبب امتلائها.

كتاب الغجريّ

بعد نصب الخيمة في مدينة في جنوب فرنسا، ذهبتُ للتجوّل في وسط المدينة، ودخلت إلى مكتبة، فعرفني المسؤول ودعاني لنشرب شيئاً في المقهى القريب. أخبرني أنّه كان يحجّ كلّ عام إلى سانتياغو دي كومبوستيلا مع الرّهبان.

وشرح لي أنّه خلال رحلة الحجّ الأخيرة، كان ضمن المجموعة راهبٌ شابٌّ خشي أن يشعر بالملل خلال الرحلة، «ولتقصير الدّرب ملأ حقيبة ظهره بدواوين الشّعر، فقد كان يهوى الشّعر كثيرًا. كان يتخلصّ في كل محطةِ توقّفٍ من كتابين أو ثلاثة تخفّفاً من حمْل الحقيبة الثقيلة. بعد حوالي عشرة أيّام، كانت حقيبة الظهر فارغة تقريبًا. ولم يبق فيها سوى كتبك».

حين قال له الرُّهبان: «ألا ترمي كتب الغجريّ؟» أجابهم الراهب الشّاب: «هذا غير وارد، إنّها كتبي الأثيرة».

وأنا، أدرجتُ هذه الحكاية في خانة الأشياء الجميلة في الحياة.

راهب

نُظّمت مؤخّراً مظاهرة أمام السيرك، هتف فيها سبعمائة شخص أو ثمانمائة بفظاعات ضدّ الغجر. كان في قلب الحشد رجلٌ يحمل مكبّر صوت، وكانت تتكرّر بانتظام جُملٌ من قبيل: «الغجر، إلى خارج فرنسا!»

بالضدّ من رأي العائلة، شققتُ الحشد واتّجهت نحو الرجل الذي كان يؤلّبهم، لكنّي فشلت في الوصول إليه، إذ أوقفني أصدقاؤه وسألوني إنْ كنت فرنسيّاً. قلت لهم إنّني فرنسيّ، لكنّهم ألحّوا مستفسرين إنْ كنت مسيحيّاً.

قبل ذلك بأيام، كان قد أوقفني راهبٌ في الشارع قائلاً: «لديّ شيء لك»، وعلّق صليباً صغيراً على صدر سترتي. فسألته إنْ كان يعرف من أكون وعمّا إذا كان قد قرأ قصائدي التي أتحدّث فيها عن المسيح. لم يكن يعرفني على ما يبدو. وحين تركته، قلت : «أبي، لست أفهم لماذا علّقت صليباً صغيراً على سترتي». فأجاب: «يا ولدي، بالنسبة لي، أنت راهب». فقلت: «ربمّا، لكنّني متزوّج. فقال: وأنا أيضاً».

على أيّ حال، أظهرتُ الصليب الصّغير للرجال، فتركوني وشأني.

اللّغة الفرنسيّة

حين بدأت كتابة الشّعر، تزايد اهتمامي باللغة الفرنسيّة.

أيّام كنّا نقيم في الدائرة السابعة عشرة في باريس، كنت أصطحب دِليا أحياناً للتّسوق في مكان قريب؛ في نُويّي. وبما أنّني لا أحب ارتياد المتاجر كثيراً، كنت أنتظرها في مقهى. إلى جانبي، كان الشباب الفرنسيّون يتحدّثون كثيراً، فأتابع في بعض الأحيان أحاديثهم، لكنّهم كانوا يكثرون من استخدام الكلمات الإنجليزية، بحيث لا أتمكّن غالبًا من فهم ما يقولون.

وفي الوقت الحالي، ثمّة أناس خبيثو النيّات يريدون أن يكون هناك فرنسّيون وفرنسيّون آخرون من درجة ثانية، أي فئتان إجمالاً، وكان أولى بهؤلاء النّاس أن يقلقوا أكثر من الهجمات التي تتعرّض لها اللغة الفرنسيّة الرائعة.

حين أذهب إلى حيّ باريس لأقصّ شعري أو لآكل الكُسكس، لا يستخدم الشباب الفرنسيّون المنحدرون من شمال إفريقيا في حديثهم كلماتٍ إنجليزية.

مُشغّل آلة العرض

قضينا شتاءً في ستراسبورغ، حيث كان قد استقدَمَنا مسرحُ مايون، وسأتذكّر ستراسبورغ دوماً، ففي هذه المدينة واجهنا إعصار عام 1999 الرّهيب.

كنت أذهب بعد العرض أنا ودِليا لتناول العشاء في مطعم بالقرب من السيرك، مع مديرة المسرح، وهي امرأة لطيفة للغاية. كانت قد أخبرتنا أن زوجها يدير صالة صغيرة للسينما والتجريب الفنيّ في ستراسبورغ، وقدْ وقعَ هناك أمرٌ غريب، إذ اختفت زوجة مشغّل آلة عرض الأفلام من دون أن تترك أثراً.

أُشيعَ أن مشغّل آلة العرض قد قتل زوجته، وتولى مفوّضُ شرطةٍ التحقيقَ في القضية. كان يذهب كثيراً لمشاهدة فيلم في الصّالة من أجل أن يفهم ما حدث. وعلى الرغم من أنّه لم يكن يملك أيّ دليل، فقد كان مقتنعاً بأن المشغّل وراء اختفاء الزوجة. كان مصراً على ذلك، لكنه لم يجد شيئًا، وظلّ التحقيق مستمرّاً. اتّهم المشغّلُ «أوغاد اليمين» بأنّهم يريدون النّيل منه، وشُكّلت لجنةُ دعمٍ للدفاع عن الرجل اليساريّ البسيط.

أُسقط التحقيق بسبب نقص الأدلة، وأعفي المفوض من القضيّة، إلّا أنّه واصل الذهاب من وقت لآخر لمشاهدة فيلم في دار السينما تلك، وتابع طرح الأسئلة وكأنّ شيئا لم يكن. كان يفتّش خفية في كلّ مكان.

وذات مساء، كان يجلس في مقعده، والفيلم على وشك أن يبدأ، فلاحظ نتوءًا صغيراً في الجزء السفليّ من الشاشة. فنهض ومضى إلى وراء الشاشة، حيث اكتشف جثّة المرأة المفقودة، ملفوفة بالكامل في رغوة البوليوريثان عالية التمدّد. كانت المسكينة هناك منذ أشهر، ولم يفكّر أحد في البحث في ذلك المكان. كان مشّغل آلة العرض هو قاتل زوجته.

كانت الرياح عاتية

حدث ذلك في الصباح الباكر. اتّصل بي صديقي رينيه ماسون قائلاً: «ليس هناك دقيقة واحدة نضيّعها. فلتسرع في تفكيك خيمتك، ستهبّ عاصفة رهيبة على منطقة الألزاس».

ارتديت بنطالي بسرعة وخرجت من الكرافان صارخاً لأوقظ العائلة. كانت الرياح من القوّة بحيث كان واضحاً أنّه لن يتاح لنا الوقت لترتيب الخيمة كما يجب. كان هناك شيء واحدٌ يجب القيام به: إسقاط الخيمة على المدرّج، مع ما ينطوي عليه ذلك من عواقب يسهل توقّعها. فإذا نجحنا في ذلك-وهو ما لم يكنْ مضموناً أبداً-، ستملؤها الثّقوب في كلّ الأحوال، إلّا أنّه يمكن إصلاح الثّقوب، أمّا إذا طارت الخيمة بعيدًا، فسنعثر عليها مزقاً، وسيتعّذر إصلاحها.

دخلنا تحت الخيمة راكضين، لنُشغّل رافعات السّحب اليدويّ، وكنّا على وشك أن نُسقط الخيمة حين هبّت عاصفة رهيبة من الرياح والمياه، فلُذنا بالفرار من دون كلام أو حتّى تبادل نظرات، قبل أن ينهار كلّ شيء فوق رؤوسنا. ركضنا لنحتمي بجدار مبنى، وبقينا بضع دقائق وفي ظنّنا أنّه لم يعد هناك ما نفعله، فقد خسرنا الخيمة.

ثمّ حدثت المعجزة؛ حيث تراجعت قوة الرياح، فهرعنا إلى الخيمة

في محاولة لفعل شيء ما، ولكن ما إنْ ابتعدنا عن المبنى عشر خطوات فقط، حتّى انهارت الشرفة الحجريّة الثقيلة التي كنّا تحتها.

وصلنا أسفل الأعمدة، وكنّا نوشك أن نشغّل رافعات السحب اليدويّ حين انهمرت علينا في اللحظة ذاتها زخّات من المطر أسوأ من سابقاتها. كانت المياه والرياح تأتي من كلّ صوب، حتّى خلنا أنفسنا في قارب صغير وسط بحر هائج. لكنّنا، تمكنّا أخيراً من إنقاذ أداة عملنا.

اللّقاء

كان في مدينة أفينيون أنْ تعرّفت إلى الشّاعر كريستيان بوبان. لم يكن قد جاء من أجل المهرجان، بل لرؤيتي. كنت قد نصبت خيمة السيرك داخل المدينة، في فناء مسرح لي آلـ(Les Halles)، بينما اصطفت كرافاناتنا في أرض للتخييم عند مدخل المدينة. وصل كريستيان في الصباح الباكر. ولم نكن قد التقينا من قبل.

جلسنا أمام كرافاني، حيث طاولة صغيرة مع كرسيّين. وامتدّ الحديث بيننا حتّى المساء. كانت دِليا مَن قطعت حديثنا بقولها «إنّها الساعة السابعة مساءً، سيبدأ العرض بعد ساعة».

عدت بعد العرض إلى المخيّم لأجد كريستيان، فاستأنفنا نقاشنا خلال قسطٍ كبيرٍ من الليل إلى أنْ غلبنا النعاس، فأعطيته سريرًا في كرافان بدون باب. وفي الصباح الباكر، واصلنا النقاش أمام فنجان من الشاي وبعض الكرواسان. تحدّثنا في شتّى المواضيع وكنّا متّفقيْن على كلّ شيء. وكانت تلك واحدةً من اللحظات الجميلة التي لا يحظى بها المرء كلّ يوم.

منذ ذلك الحين، التقينا كثيراً، ولم أره قطّ مكتئبًا أو منزعجًا أو في مزاج سيّيء، فلدى هذا الشاعر فرحٌ بالحياة ينقله إليك، مصحوباً بتأمّلات بعيدة الغور. عندما افترقنا في المساء، قال لي: «تبيّن أنّه كان لديّ صديق ولم أكن أدري».

❁

عاد كريستيان إلى السيرك بعد بضعة أشهر، فأمضينا اليوم معاً في النقاش على رصيف أحد المقاهي. وحين ركب سيارته في المساء للخروج من المكان الذي نُصبت فيه الخيمة، أشارت له ابنتي ماريا بأن يتوقفّ قائلة: «أبي يكتب القصائد».

لم تكن قصائد، بل نصوص صغيرة؛ حكايات رأيتها وسمعتها، وكنت دوّنتها في دفتر مدرسيّ من دفاتر ابنتي ألكساندرا. خرج كريستيان من سيّارته وقال لابنتي، «أريد أن أرى ذلك». بدأنا في البحث عن الدفتر. كانت الصعوبة الأولى أنّنا لم نكن ندري في أي كرافان هو وما إذا لم يكن قد رمي ببساطة في سلّة المهملات. وجدناه في النهاية تحت مرتبة. كان هناك منذ أشهر.

كان رجلٌ عاديٌّ جداً سيقول: «دفترٌ مدرسيٌّ تحت مرتبة، كتبه غجريّ لم يرتدْ مدرسةً؟ لن أبحث»، لكنّ كريستيان أرهفُ من أنْ يفعل ذلك، فأنفق من وقته لقراءته، ثمّ قال لي: «لديّ موعد غداً مع جورج مونتي، مسؤول دار نشر Le Temps qu'il fait. إنّه ناشر جيّد جدّاً، وإذا وافقت، سأعطيه الدفتر، وسيدهشني كثيراً أنْ لا ينشره.»

عثرت على العنوان «شَعبٌ من الجوالين»، وأعطاه كريستيان للنّاشر.

بعد بضع سنوات، أعادت دار غاليمار نشر الكتاب، إذ لم يكن قد صار لي أعداء بعدُ في دار النّشر الكبيرة هذه.

صُنِع عن عمد

كان قد مضى شهران على وجودنا في مدينة فرنسيّة كبيرة؛ مدينة لم تترك عندي، والخطأ خطأي، ذكريات طيّبة فقط. كان أحد المسارح قد تعاقد معنا لتقديم عروضٍ نهاية السّنة، تحت خيمتنا الصغيرة التي نُصبت في وسط المدينة. كان لدينا خمسمائة مقعد، لكنّ إقبال كثير من الناس أُضطرّنا إلى تجهيز مئة مكانٍ إضافي. ولحسن الحظّ أن جمهورنا طيّب. كنت أطلب من المتفرجين أن يتزحزحوا قليلًا، فنجحنا في إجلاس الجميع. ذكّرني ذلك أيامًا كنتُ أستقل مترو الأنفاق مع السلالم.

انتهى العرض الأخير، ففكّكنا الخيمة وعدنا إلى باريس. ولكن قبل ذلك بشهر، كنت قد أرسلت قصائدي، بناء على نصيحةٍ من ليدي، إلى جان غروجان وغي غوفيت، وكلاهماعضوٌ في لجنة قراءة الشّعر في دار غاليمار. كنت في منطقة باريس بشاحنتي بُعيْدَ تعرّضي لاعتداءٍ من عصابةٍ، انتفخ على إثره الجانبُ الأيسر من وجهي بضعة مليمترات. وحين صعدت إلى الشّاحنة مجدّداً، تلقيّت مكالمة هاتفية من جان غروجان قال فيها: «لقد وافقتْ لجنة القراءة على قصائدك، ودار غاليمار ستنشرها». وأضاف: «إذا صار لديك في المستقبل قصائد أخرى مثل هذه، يجب أن ترسلها إلينا»، وأغلق الخطّ.

بعدها بيومين، اتّصل بي جان غروجان ليقول: «عزيزي الكساندر، تعال للقائي في منزلي، في فرساي، كي نرى إنْ كان هناك ما ينبغي حذفه».

كنّا قد نصبنا من فورنا الخيمة في باريس. قفزت بُعيد الظهر إلى سيّارتي وذهبت لأرى جان غروجان في شقّته الصغيرة في فرساي. كان هو من فتح لي الباب، وشدّ على يدي طويلاً حين صافحني. جاءت زوجته، وابتسمت لي ابتسامة عريضة، ثمّ جلست أنا وجان إلى طاولة. واغتنمت الفرصة لأطرح عليه العديد من الأسئلة، وقد قدّم لي، بلطف كبير، طيلة ما بعد الظهر شروحات كثيرة. ثم جلس بجانبي، ومخطوطتي بين يديه، ودون أنْ يقول شيئاً، قرأ قصائدي واحدةً تلو الأخرى.

عندما بلغ منتصف المخطوطة، قال لي: «هناك قصيدة ترتكبُ فيها خطأ باللغة الفرنسيّة، لكنّني متأكد من أنك فعلت ذلك عن عمد». فقلت له: «بدلًا من القول: إلى أين تذهب؟ أقول: تذهب إلى أين» ؟

«لقد كنتَ على حقّ في ارتكاب هذا الخطأ، فالتعبير على هذا النحو أقوى». ثمّ قرأ ثلاث قصائد أخرى أو أربع، ونهض دون أن يتفوّه بكلمة. دخل إلى غرفته وعاد يحمل نسخة من الكتاب المقدّس. وضعها فوق قصائدي وفتح الكتاب على سِفْر الجامعة، وهو نصّ لم أقرأه قطّ ، بل لم أسمع به من قبل، وقرأ صفحةً منه بصوت عال، ثمّ أغلق الكتاب دون أي تفسير. أعاده إلى غرفته، واستأنف قراءة قصائدي. كنت أتحرّق لسؤاله لماذا قرأ صفحة من سِفْر الجامعة، لكنّني لم أجرؤ.

خطوط اليد

ليست كلمة «سيرك» أفضل بطاقة تعريف لدخول العالم، على أنّ الصعوبة التي نواجهها نحن صعوبةٌ مزدوجة، فسيركنا يسمّى «غجريّاً» أيضاً. وتؤدي هذا التسمية دور الغربال في كلا الاتجاهين، فأمّا النساء والرجال الذين لا ينفّرهم هذا الاسم فيكونون غالباً في صفّنا. وليس من النادر أن يأتي متفرّجون ليعانقونا في نهاية العرض.

ولكن ليس هناك من يحبوننا فقط، فهناك أيضًا الآخرون؛ من لا يحبوننا. وعندما نحتاج إلى مستند إداري، يكفي وجود شخص واحد من هؤلاء في المكتب المعنيّ، كي يتسبّب لنا بالمتاعب.

عندما بدأنا السيرك، بكّرتُ إلى حدّ ما-لكن ليس في الأشهر القليلة الأولى ربّما- في تقديم إقرارٍ بجميع الفنّانين الذين يعملون معي، ولمّا لم أتلقّ أيّ ردّ من الإدارة، أخذتُ أرسل كلّ شهر رسالةً أطلب فيها تسوية أوضاعهم، ولكني لم أحصل على إجابة ولا على موعد.

ذات يوم، ذهبت إليهم، وانتظرت خلف باب مكتبٍ يُفترض أن يكون المكتبَ المعنّي. حين فُتح الباب وخرج أحدهم، دخلت بثقةٍ وعرّفت بنفسي. كانت المرأة التي أمامي تعرف السيرك، حتّى أنها لم تفاجأ برؤيتي أمامها، وبدا واضحاً أنها تعرف سبب وجودي. كنت أمام سيّدة في الخمسينات من عمرها، ترتدي فستانًا يلتصق بجسدها وقصيراً إلى حدٍّ ما،

يحاكي ألوان النّمر، وكعبًا عالياً جدّاً، ووشاحاً ورديّاً حول رقبتها. ابتسمت لي ابتسامة عريضة وقالت : «إجلس هنا أيها الشابّ». وبدلاً من أن تجلس في الكرسيّ خلف مكتبها، جلست على المكتب أمامي: «أيّها الشابّ، أعرف لماذا أنت هنا، لكن يجب أن أخبرك أنّني لست مستعدّة لأن أسمعك، فقد عدت توّاً من الإجازة، وأعترف أن ذهني ما يزال هناك». فسألتها على سبيل المجاملة أين أمضت عطلتها. «لقد عدت من مصر، حيث قمت برحلة في النّيل، وكان ذلك رائعاً». وأضافت وهي تعكس اتّجاه ساقها الموضوعة فوق الساق الأخرى: «لو تعرف كم البحّارة لطيفون!».

فكّرت: ها أنا أقع مرّة أخرى على «ظاهرة»، لا يحدث هذا إلّا لي، ومشكلتي لا توشك أن تُحلّ. نهضت المرأة وقالت لي: «هل في عائلتك الغجرية نساء يُحسنّ قراءة الكفّ»؟ ولأنّني أحب المزاح، أجبتها دون تفكير: «إنّني أعرف كلّ شيء عن خطوط اليد». فلم تكذّب خبراً! مدّت يدها إليّ، وأرتني راحتها قائلة: «أريد أن أعرف كل شيء، خاصّة إذا ما كنت موعودة بلقاء جميل». منعتُ نفسي من الانفجار بالضحك. وكأن كلّ هذا لم يكن كافياً، فقلت لها ظانّاً أنّي سأتخلّص منها أخيراً: «سيدتي، أنا لا أحسن قراءة الكفّ، بل أحتاج لرؤية الجسد كلّه. وهذا سيضطرك للتعرّي أمامي، وأظنّ المكان غير مناسب لهذا الأمر».

«لا مشكلة»، قالت وهي تمضي إلى الباب فتغلقه. وبدأت في خلع ملابسها، فقلت: «سيّدتي، لقد انتظرتُ أكثر من ساعة خارج مكتبك، والآن أنا معك منذ ثلاثين دقيقة. لدي موعد بالغ الأهميّة وقد تأخرت كثيرا. ولا أريد التسرّع في قراءة خطوط جسدك لأنّي بحاجة إلى الوقت، لكنّني أعدك بأن أعود غداً وسأفعل ما تريدين، هذا وعدُ غجريّ». ثمّ وليّت هارباً، ولم ترني ثانية قطّ.

جالسيْن في العشب

خلال وجودنا في أفينيون، كنت أذهب في الصباح الباكر في نزهة على ضفاف النهر. ذات يوم، تنبّهت إلى أنّ شابة كانت تلاحقني منذ بعض الوقت. فاستدرتُ وواجهتها. سألتني إنْ كنت الكساندر رومانس. قلت: نعم. فقالت: «إنْ كان لديك متّسع من الوقت، أودّ أن أخبرك بقصّتي». وجلسنا على العشب.

«إليك حكايتي: ولدتُ في عائلة بالغة الثّراء، لم أعد أطيقها. كان ذلك قبل عامين. نشأت صداقة بيني وبين مجموعة من الممثّلين الذين كانوا يؤدون مسرحيةً لتشيخوف في مدينتي، حيث أُصيبت ممثّلةٌ، فحللتُ محلّها دون تحضير. وعندما غادروا البلدة، كانوا طيّبين بما يكفي للاحتفاظ بي، فشاركت على مدار عامين في جميع المسرحيات التي قدّموها. لم أكن تعيسة، لكن كان ينقصنا كلّ شيء. لم يكن ذلك فقراً، ولكن يكاد.

ذات يوم، وبسبب نقص المال وانسداد الأفق، وقع بيننا خصام عنيف، فعدت للعيش مع عائلتي. كنت قد اعتدت ارتياد المكتبات، لأنّني أحبّ الشعر كثيراً. في ذلك اليوم، اشتريت عدّة مجموعات شعريّة وكتابك «شعب من الجوّالين». قرأته في الليل دفعة واحدة، وأعدت قراءته مرّات عدّة. في الصباح الباكر، عندما أغلقت الكتاب، كنت قد اتّخذت قراري:

سأعود لفرقة الممثلّين. ولهذا السبب أنا في أفينيون. ولمّا وجدتك أمامي، أردت أن أشكرك لأنّك وضعت قدمي على الطريق الصحيح.»

كان هذا البوح صدمة، لأنّني أدركت أكثر، مرّة أخرى، قوّة الكلمات.

اتّصلت بي ليدي، قبل ثلاث سنوات أو أربع، لتقول: «أنت بحاجة إلى العثور على جهاز تلفزيون، ستُعرض الليلة مسرحية كورني «سورينا»، تؤدّيها فرقة الكوميدي فرنسيز». كانت المسرحيّة رائعة، وقد أثارت انبهاري.

يعتقد العديد من الرجال والنساء في فرنسا أنّ الموسيقى والرسم والأدب تتساوى. ولكن إنْ أنت استمعت إلى لحن رائع من موسيقى البلاط، قد تشعر بشيء قوّي، لكنك لا تقتل أحداً، بينما قد يقتل ابن أباه بسبب كلمة واحدة في غير محلّها.

وخطر لي: عندما تكون الكتابة والإخراج والممثّلون استثنائيّين، فما من فنٌّ يضاهي المسرح.

عضو الأكاديميّة الفرنسية

حادثة غريبةٌ أخرى: دعتني صحيفة ليبراسيون إلى إلقاء محاضرة عن الأدب في أحد المسارح الوطنية، بصحبة عضو في الأكاديمية الفرنسيّة، وهو صاحب مؤلفات عديدة. كانت الأمسية منقولة في بثّ غير مباشرٍ على إحدى القنوات التلفزيونية. ولمّا كنّا قد وصلنا أنا وعضو الأكاديميّة مبكراً جدّاً، وكانت العلاقة بيننا أقرب إلى الودّ، فقد تبادلنا الحديث بقدر كبير من الحريّة.

«الكساندر، يزعجني أنّنا سنتحدّث عن الأدب، وأنا لا أعرف شيئًا عنك ولم أقرأ من أعمالك شيئاً، وذلك لسبب بسيط هو أنني لا أعرفك. فهل لديك شيء من قصائدك ؟ مادام لدينا بعض الوقت، سأغتنم الفرصة لقراءتك». أعطيته اثنتين من مجموعاتي الشعريّة: «كلامٌ ضائع»، و«على كتف الملاك». اتّخذ كرسيّاً وشرع في القراءة، وذهبت أنا لأشرب الشاي في مقهى المسرح.

عدت بعد نصف ساعة إلى المقصورة، فكان ما يزال يقرأ. أخذ يطريني، فشكرته قائلاً: «هناك ما هو أجمل».

-هل كتبتَ قصائد أخرى؟ سأل عضوُ الأكاديميّة.

- «نعم كتبت، لكنّي لا أعني قصائدي. هل قرأت كتبَ ليدي داتاس»؟

- «لم أسمع بهذا الاسم قطّ»، ردّ عضو الأكاديمية.

- «لديّ كتابان معي، هل تودّ إلقاء نظرة؟»

جلس وبدأ في قراءة «الصّاعقة». كان في الصفحة الثالثة أو الرابعة، لم يتوقّف عن الثناء: «هذا رائع، استثنائيّ. إنّنا لا نقرأ كلّ يوم مثل هذا النصّ الكثيف والجميل. هل ألّفتْ كتباً أخرى»؟ أعطيته «حياة جان جينيه العفيفة».

«الأسلوب مختلف، لكنّه لا يقّل جمالاً عن «الصاعقة». من تكون ليدي داتاس»؟ قلت: «هناك أربعة كتّاب هم جان جينيه، وجان غروجان، وإرنست يونغر، وكريستيان بوبان، إضافة إلى آلان بورير، الرّجل الذي يعرف الشّعر أفضل معرفة، يقولون إنّ ليدي داتاس هي أعظم شعراء اللغة الفرنسية. أمّا أنا، فأعتقد أنّ الناس الذين يقرؤون الكتب الحقيقيّة سيضعونها في يوم من الأيام مع كورني وراسين». وبما أنه أراد معرفة المزيد عن ليدي، فقد أخبرته: «إنّها تنشر كتبها لدى دار غاليمار منذ عشرين عامًا، ومع ذلك فهي لا تكاد تكون معروفة. وباستثناء لور أدلر، التي خصّتها بأمسية على إذاعة فرانس كلتور، فإنّها لم تظهر أبداً في أي برنامج أدبيّ».

ثمّ جاءت امرأة إلى المقصورة: «إنّهم يدعونكم للصعود إلى المنصة». جلسنا أمام جمهور كبير، ومُنح كلّ واحد منّا ثلاثين دقيقة للحديث عن الأدب. عندما شاهدتُ البرنامج على شاشة التلفاز لاحقًا، تبيّن أن عضو الأكاديميّة حصل على حوالي ثلاثين دقيقة، بينما لم يبقَ لي سوى عشر دقائق تقريباً. ومع ذلك تحدّثت عن علاقة النساء بالرواية وأعتقد أنّ ما قلته لم يكن تافهاً. ولكن يا لسذاجتي! فهم لا يأبهون بالأشياء غير التافهة؛

بل الأمر أسوأ من ذلك ، إنّهم لا يريدونها، ولا يريدون على وجه الخصوص ما يحرّك المياه الراكدة.

ألتقي الكثير من الصحفيّين بفضل السيرك. وأعطيهم في كثير من الأحيان كتب ليدي، وعلى الرغم من ذلك لا يتردّدون في القول كلّ سنتين أو ثلاث سنوات إنّه لم يعد هناك كاتب عظيم في فرنسا.

قبل عامين، نشر كاتب ذائع الشهرة قصائد لا قيمة لها، فتحدّثت عنها الصحف كلّها. ونشرت ليدي في الوقت نفسه كتابها «الليل الروحيّ»، وهو نصّ استثنائي، فلم تحظ بمقال أو حلقة إذاعيّة أو برنامج تلفزيوني.

وهناك صحفيٌّ في قناة تلفزيونية كبيرة لديه برنامجٌ يحظى بنسبة مشاهدة عالية، ويُفترض أنّه برنامج جادّ، يدعى إليه عديد من الكتاب. كنت قد أحضرت له كتب ليدي كلّها. التقيت به مؤخراً، مصادفةً، فسألته إنْ كان قد قرأ كتبها، فقال إنّه قرأها. قلت له: «لماذا لا تدعوها إلى برنامجك؟» فأجابني هذا الغبيّ : «أنت على حقّ، يجب أن أدعوها».

في أحد حلقات برنامجه، أتذكرّ أنّ ممثلّة امتلكت من النزاهة ما يكفي لِتقول: «لست أعرف لِم أنا هنا، فليس لديّ ما أقوله». المسكينة، لا تعرف أنّها مدعوة تحديداً لأنّه ليس لديها ما تقول.

التلاعبات

البشر مُعجبون بالقوّة منذ الأزل. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية والقوة العظمى في العالم هي الولايات المتحدة الأمريكية؛ بفضل جيشها ودولاراتها ولغتها التي فرضتها أينما استطاعت. ولا يوجد بلد اليوم يمثّل القوّة خيراً منها، وهذا ما يفسّر الافتتان بلغتها في العالم.

أمّا اللغة الفرنسيّة، فقد وُلدت في نهاية العصور الوسطى، وكافح الآلاف من الرجال والنساء للدفاع عنها، حيث فقد كثيرون حياتهم، إذ لم يكن الأمر هيّناً. أنشأتْ السلطة الملكيّةُ الأكاديميةَ الفرنسية وفرقةَ الكوميدي-فرنسيز التي تقدّم عروضها المسرحية باللغة الفرنسية فقط، وقدّمت الصالوناتُ الأدبية والشعب إسهامهما الكبير أيضاً بمساعدة الشعراء، فوطّدوا للّغة وجعلوها معروفة في العالم بأسره.

كان المتنفّذون والأثرياء في القرن السادس عشر يجعلون حول أعناقهم ياقة كبيرة من الدنتيلا. كانوا سخيفين، ولكن ما هَمّ! فقد كانوا منسجمين مع الموضة. وفي القرن السابع عشر، كان رجال دردٌ وقذرون يرتدون على نحو غريب شعراً مستعاراً مجعّداً ورائعًا، ما كان ليفسد مظهر امرأة جميلة. وكانت رائحتهم كريهة، لأنّهم كفّوا عن الاغتسال بناء على توصية الأطباء. كانوا سخيفين، ولكن ما هَمّ!، فقد كانوا هم أيضاً منسجمين مع الموضة.

يقول الكاتب إرنست يونغر: «العام الماضي، في باريس، كان بإمكانك وضع رَجُلَيْن في السترة نفسها». هذا العام، لا تكاد تتّسع لرجل واحد، فالموضة غالباً ما تكون سخيفة، مثل أولئك الرجال وراء المقود في سيارّاتهم الرياضية مكشوفة السقف، ونظاراتهم الشمسيّة على أعينهم، والقميص المفتوح واسعاً ليكشفَ عن سلسلة ذهبيّة كبيرة.

ليس هذا السلوك الطفوليّ شديد الخطورة في حدّ ذاته، ولكن عندما تهاجمُ الموضةُ اللغة، وعندما يستبدل عديمو الإدراك هؤلاء الكلماتِ الإنجليزية بالكلمات الفرنسيّة، فإنهم لا يفعلون سوى التعجيل في فقدان الأخلاق والذوق، الذي بات واضحاً بالفعل في المجتمع، حاله حال العولمة بلا حدود، التي تجعل كلّ شيء بلا طعم.

لكنّ الموضة ليست هي المسؤولة الوحيدة، إذ سيكون من المغالاة قول ذلك. فمقدّمو البرامج الإذاعية والتلفزيونية، ومعظم السياسيّين أيضاً، وكلّ ما هو ضحل في هذا البلد مسؤولون عن ذلك أيضاً. فما الذي يدور في خلد هؤلاء الناس عندما يستبدلون بكلمة «travail» كلمة «Job»؟ ماذا يعتقدون؟ ليس هذا الاستبدال سوى ضرب من التبجّح . ولو لم تكن الكلمات الفرنسية موجودة، لاستطعت أن أفهم ذلك. ثمّ لماذا اللغة الإنجليزية تحديداً؟ أليس ثمّة لغة أخرى في العالم؟

ونظراً لحالة الأخلاق والذوق البائسة في فرنسا، فإنّه لم يعد لديها سوى لغتها. وهؤلاء الأشخاص عديمو الإدراك لا يعرفون أنّ 60٪ من مفردات اللغة الإنجليزية فرنسيّ. ثمّة إعلان نسمعه حالياً في كلّ مكان: «La French Touch (اللمسة الفرنسية)» ؛ وكأن من العار أن تقول «La touche française»! ولكن بما أنّ هذا البلد قد فقد قوّته، فإنّ بوسعنا القول إنّه لم يعد يمتلك هوّية خاصة به. فحين يستبدلُ هؤلاء الرجال

والنساءُ ضعافُ الشخصيّة باللغة الفرنسية، التي هي دقيقة للغاية، اللغة الإنجليزية، عليهم أن يسألوا أنفسهم السؤال التالي: «هل ما أفعله شيء ذكيّ؟» لكنّهم لا يطرحون على أنفسهم هذا السؤال، فلو طرحوه، لما كانوا إمّعات.

هذا الجذام الذي يتوطّن كلّ يوم يرعاه أصحاب الإعلانات. فهم يفكّرون- نعم يحدث في بعض الأحيان أن يفكّروا- أنّ الإعلان باللغة الإنجليزية يمثّل ميزة إضافية للمنتجات التي يروّجون لها، ولكن ما من دراسة تثبت ذلك.

إنّها مسألة معيبة، لأنّنا نُعوّد يومًا بعد يوم الرجالَ والنساء في هذا البلد، والأمر ذاته في دول أخرى، أن يلبسوا بالطريقة ذاتها، ويأكلوا الأطعمة ذاتها، ويقوموا بالأنشطة نفسها، ويتحدّثوا باللغة نفسها ويفكّروا بالطريقة نفسها، أيْ أن يكفّوا عن التفكير. وعلاوة على ذلك، فإنّهم يفعلون كلّ ما بوسعهم لجعلك تعتقد أنّك لستَ شيئاً، إنْ لم تلتحق بالقطيع.

عندما أقابل أشخاصاً أذكياء ممّن يكتبون المقالات أو الكتب، أجدهم يشعرون بالفزع لرؤية اللغة الفرنسية تتوارى، غير أنّهم لا يتحدّثون عن ذلك في وسائل الإعلام . فهل يخشون أن يُربط بينهم وبين العلَم ونشيد المارسيّيز، أو أحد أحزاب اليمين المتطرّف؟ يا له من خطأ! فلا علاقة لدفاعك عن لغتك بالنزعة القومية، بل له علاقة بأعظم شعراء اللغة الفرنسيّة. فهل سيذهب كلّ ما قدّمه عشّاق اللغة الفرنسية على مدى قرون، بالرغم من كلّ العقبات والتضحيات الثقيلة، أدراج الرياح؟ إنّني اليوم ـواحد من القلائل في هذا البلد ممّن يعبّرون في وسائل الإعلام عن رفضهم هذا الوضع. أنا الغجريّ، فوق ذلك.

عندما استعادت الشرّيرة إيزابيلا الكاثوليكيّة شبه الجزيرة الإيبيريّة، كنّا نحن الغجر إذا تحدّثنا لغتنا تُبتر أعضاؤنا أو نقتل، لأنّ هؤلاء الناس كانوا يعرفون أنّك حينَ تهاجمُ لغةَ شعبٍ ما فإنّما تهاجمُ روحه. لكنّ العرب واليهود قد ينقذوننا، فهم لا يريدون حقًّا قراءة القرآن والتوراة باللغة الإنجليزية، وبحفاظهم على لغتهم، قد يكونون مثالًا لجميع محبّي اللغة الفرنسية، المتأهّبين اليوم للدفاع عنها.

علينا أن نأمل أن يكون هذا الهجوم مجرّد موضة عابرة مثل معظم الموضات، مع أن ربطة العنق، هذه القطعة السخيفة من القماش، وُجدت منذ قرون، ولا تزال. ففي عصر مضطرب مثل عصرنا، تظلّ كلّ التلاعبات ممكنة.

عودي

يؤلمني التوقّف عن حمْل عودي بين ذراعيّ، وأنْ لا أسمعه يغنّي مرّة أخرى، أعترف بذلك. ولكن اليوم، مع المسافة، أكاد أجزم بأنّني لو واصلت تقديم الموسيقى، فلربّما ما كنت كتبت الشّعر أبداً.

أعلم أن الجميع لا يتّفق معي، لكنني لن أعدل عن رأيي، لأنّني متأكّد من أن الكلمات أقوى من الموسيقى. أقول ذلك دون أيّ ادّعاء، لكنّي أعرف أن قصائدي قادرة على الصمود.

أتذكّر أنّه في وقت بعيد، عندما كنت أتألّم وكان عودي بين ذراعي، ما كان أحد ليجرؤ على الذهاب بعيداً في مملكة الحزن قدر ما ذهبتُ ...

أنت الوحيد القادر على جعلي أنسى الأيام التي أدميَ فيها قلبي، لأنّ الأيام القديمة لن تعود.

أنا أيضا أشرعت أبواب الشقاء، لكنّي التقيت بكَ وأعطيتك قلبي مع أجمل أوراقٍ لأجملِ شجر. فلتحتفظ به بكلّ ما أوتيت من حرصٍ، فالخريف قادم...